مجلة كلية الآداب

جامعة فاروق الأول



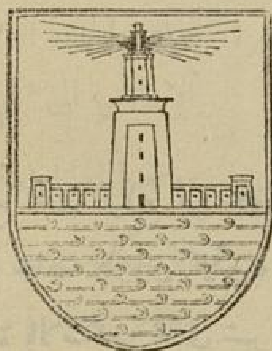
المجلد الرابع

١٩٤٨

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة
فاروق الأول بالشاطبي
بالاسكندرية

الاسكندرية
مطبعة التجارة

مجلة
كلية الآداب
جامعة فاروق الأول



المجلد الرابع
١٩٤٨

تطلب هذه المجلة من مكتبة جامعة
فاروق الأول بالشاطبي
بالاسكندرية

الاسكندرية
مطبعة التجارة

كمل طبع المجلد الرابع من مجلة كليـة
الآداب بجامعة فاروق الأول بمطبعة
التجـارة بالاسكندرية فى شهر المحرم
سنة ١٣٦٨ (نوفمبر سنة ١٩٤٨)

جامعة فاروق الأول

مجـــلة كلية الآداب

المجلد الرابع ١٩٤٨

موضوعات القسم العربي صحيفة

المستعربون من علماء المشرقيات[١]

جرى الاصطلاح عند المتأخرين من كتاب العرب أن يطلقوا اسم المستشرقين على من يعنون بالبحث فى لغات الشرق وعلومه ، واطلقو اسم (الاستشراق) على عملهم هذا.

ولما كان الاستشراق واسع المدى متشعب المقاصد قضت الحال بأن يقال لمن يعنون خاصة بدراسة مدنية العرب والاسلام (المستعربون) تمييزا لهم عن سائر من يعنون بلغات الشرق وعلومه.

نشأ الاستشراق فى الغرب بعامل ديني أولا وانقلب بعد الى عامل مدني .وكان سبق أن بعض ملوك أوروبا وباباواتها أخذوا العربية عن علماء الاندلس وصقلية وتعلم أمراء الصليبيين وبعض قوادهم اللغة العربية في الشام أيام غزواتهم الطويلة.

ولما قام الباباوات بانشاء الرهبنات لبث الدعوة الدينية فى الشرق ، بدا لهم أن يعلموا الرهبان لغاته ولا سيما العربية وبعض اللغات السامية كالعبرية والسريانية وهذا لتفهم العهد العتيق ، فقضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م برياسة البابا اكلمنس الخامس أن تؤسس فى باريز واكسفورد وبولون وصلمنكة أي في عواصم العلم فى فرنسا وايطاليا وانكلترا واسبانيا يومئذ دروس عربية وعبرانية وكلدانية وسريانية . وكانت المدرسة الطبية فى مونبليه في فرنسا سبقت فأنشئت سنة ١٢٢٠ دروسا عربية ليتسنى لها تدريس الطب فى كتب العرب ، وفى سنة ١٢٥٤ أنشئت أول مدرسة عربية فى اشبيليه من ارض الاندلس.

وظل الاستشراق العربى فى الغرب ضعيف الأثر الى القرن الثامن عشر وما قوي الا بقوة الاستعمار وفى غضون تلك الحقبة دخل فى طور العلوم المنظمة، وقضت

(١) موضوع محاضرة القاها بالكلية بدعوة منها حضرة صاحب السعادة محمد كرد علي بك وزير المعارف السورية سابقا وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية وذلك في أول مارس سنة ١٩٤٨

بعض الدول الغربية وفى مقدمتها بريطانيا العظمى على عمالها فى بلاد العرب أن يتعلموا اللغة العربية فكان من تعلموها من أبنائها أكثر عددا من غيرهم من الامم لأن من طبع الانكليزي المتانة في الصناعات وما خرج الاستعمار عن كونه صناعة ايضا واعدد المعدات لاتقانها ما أمكن . وأنشأت النمسا سنة ١٧٥٣ مدرسة لتعليم لغات الشرق يدرس فيها القناصل والتجار وحذت فرنسا حذوها فأنشأت مدرسة اللغات الشرقية لمثل هذا الغرض سنة ١٧٩٥ وشادت المانيا مثلها فى برلين سنة ١٨٨٧ ثم تبعتها روسيا وايطاليا وانكلترا فأسست كل منها مدرسة لمثل هذا الغرض .

وكانت جامعات المانيا تدرس العربية منذ أكثر من ثلثمائة سنة وكذلك بعض جامعات بولونيا وبريطانيا العظمى . وهكذا بدأ الاستعراب فى الغرب ونبغ مئات من بنيه فى العربية وآدابها كانوا من العوامل الكبرى في النهضة العربية الاخيرة بما أحيوا من كتب العرب القديمة وخدموها أجل خدمة بمعارضتها على النسخ المتعددة وبوضع الفهارس المنوعة لها ليسهل الانتفاع بها بسرعة ومنهم تعلمنا هذه الطريقة واعتادوا أن يشرحوا غوامضها بلغة الناشر وباللغة اللاتينية لغة العلم المعتمد عليها الى عهد قريب ، فانتفعوا بما نشروا ونفعوا بما حوت من معارف كانت مجهولة ، بل بهم تجلت مدنية العرب لأول مرة لأنهم طبعوا في القرنين السادس عشر والسابع عشر فى ايطاليا وهولاندة كتبا عظيمة من كتبنا كانت حجر الاساس في انبعاث العربية من رقدتها الطويلة ، ويكفي أن نقول أن أوروبا طبعت كتبنا بالحروف العربية قبل أن تدخل الطباعة الى القسطنطينية والقاهرة بمائتى سنة ومن تصفح معلمة الاسلام (Encyclopedie de l'Islam) التى أصدرتها أوائل هذا القرن مطبعة ليدن الهولندية بلغات العلم الثلاث (الانكليزية والالمانية والفرنسية) يتضح له مبلغ عناية الغربيين بالمشرقيات العربية ويتجلى لعينيه ما وصلوا اليه ببحثهم

وإخصائهم فى اللغات والعلوم . هذا الى مئات من كتب أجدادنا نشروها وما قطع اطراد صدورها الا الحرب الاخيرة .

ولقد أسعدنى الحظ منذ نشأت ان تعرفت فى مصر والشام وفى اوروبا الى بعض المستعربين من امم اوروبا اختلطت بهم وخالتهم ووقعت على اساليبهم فى البحث والدرس والتأليف والنشر وعاونونى فى بلادهم على درس المدنية الغربية وعلى الكشف عما فى خزائنهم ومتاحفهم من كتب العرب وآثارهم فعلى من ماتوا الرحمة وعلى الاحياء منهم السلام .

حدانى على معالجة هذا الموضوع وعلى الأشادة بمن لقيتهم من المستعربين حديث وقع لي منذ سنين مع الاستاذ حافظ عامر بك من رجال السلك السياسي المصري وطلب الي لما تقوض المجلس أن اكتب نبذة فيمن عرفت من المستعربين فاعتذرت بان المواد التي لدي عنهم لا يتألف منها مبحث ، فقال رحمه الله يكفى أن تدون ما على خاطرك منه فطلاب الفوائد يستفيدون منه على كل حال .

وبعد ، فلا بد لي قبل أن أشرع فى الكلام على من عرفت ممن يعنينا أمرهم أن أشير الى أن أكثرهم جعلوا علمهم لخدمة دولهم وأممهم يخدمونها فى سياستها بما تصل اليه ايديهم ويهديهم اليه اطلاعهم ، ومن خرج قليلا عن قواعد وطنية شعبه نبذته دولته فلا يتوقعن اذاً من مستشرق أن يخدم غير أمته ولهم المعذرة في ذلك ، أما نحن معاشر العرب فيقنعنا منهم أن يخدموا آدابنا بأمانة لا يتخذونها سلما الى الطعن بنا وبمقدساتنا ولا ذريعة الى اغتصاب حقوقنا فى الحياة على نحو ما فعل لامنس البلجيكي ومرجليوث الانكليزي وكراتشقوفسكي الروسي وهارتمان الالماني وكايتانى الايطالي مع اختلاف بينهم فى مقدار الطعن والداعى الذي ساق اليه. والأب لامنس سامحه الله كان أكثرهم تعصبا علينا لأن حياته على ما يظهر كانت متوقفة على هذه المطاعن حتى لقد سماه علماء الافرنج المؤلف المتحزب (L'historien partial).

أول من عرفت من هؤلاء المستشرقين المستعربين من الفرنسيس دوسو وماسينيون وكى ومازاك جاء الأول الى الديار الشامية يكشف عن آثار بلاد النصيرية (العلويين) وجبل الدروز والصفا واللجاة وقد ألف بضعة كتب فى لغته بآثار هذه الاقاليم الشامية وعرض لتاريخها ووصف آثارها وظل يخدم هذا العلم باخلاص ومقامه عظيم بين علماء الآثار وأمناء متحف اللوفر فى باريز وأصدر مجلة سيريا (Syria) ملأها بتحقيقاته وكان خير صلة بين بلاده وبلادنا لأنه لم يتدخل فى شيء اسمه سياسة ، صرف جل اهتمامه لعلمه ولم يخلط فيه غيره . ومن أهم ما كتب (طوبوغرافية سورية فى القرون الوسطى) و (العرب قبل الاسلام) وهو فيما اعلم لم يكتب بالعربية بل أخذ من نصوصها واستعملها فى تآليفه.

أما المستعرب الثاني الاستاذ ماسينيون فانه انقطع الى الابحاث الاسلامية منذ نشأته وقال لي إن العلامة السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي رحمه الله كان له أعظم الفضل عليه بأرجاعه من الألحاد الى حظيرة الدين . وأنا أقول بل زاد على ذلك وأصبح متصوفا وأذكر انى دعوته فى إحدى رحلاتى الى باريز لنشهد التمثيل ونتعشى معا ، فقال ، العشاء أمره سهل ولكن من للمتصوف أن يشهد التمثيل . وهو صادق في قوله فانه صرف جانبا عظيما من عمره فى نشر كتب التصوف، فنشر تآليف الحلاج واخباره ـ وديوانه بالعربية كما نشر الامثال البغدادية للطالقانى وتاريخ الاصطلاحات الفلسفية. ومعظم المقالات التي لها علاقة بالتصوف الاسلامي فى معلمة الاسلام على عهدها الاخير هى من قلمه وهو لعهدنا المرجع بين المستعربين فى مسائل التصوف فى الغرب، اذا عز على أحد المشتغلين كشف غامض وحل مسألة صوفية فليس له الا باب ماسينيون لأخذ الجواب . وهو اليوم عضو فى عدة مجامع منها مجمع فؤاد الأول للغة العربية والمجمع العلمى العربى والجمعية الآسياوية وهو أستاذ في كوليج دى فرانس وكتب مئات من الابحاث والمقالات في المجلات

الأســـلامية والشرقية بالفرنسية ومنها المجلة الآسياوية ومجلة العلم الأسلامى ومجلة الدروس الاسلامية وهو يعاون طلاب العرب فى باريز ويوجههم ويرشدهم .

أما الاستاذان كى ومالزاك فشغلا بمهام السياسة وأخذ وقتهما ما هما بسبيله من مصالح دولتهما وطافا معظم بلاد العرب والفرس فى السلك القنصـلي وانتفعا بمعرفة العربية والفارسية في الوظائف التي شغلاها ، وهيأت لهما سـبيل الانتفاع فى عملهما ومعرفة هذا الشرق القريب . ويليهما استاذان متقدمان على هذين القنصلين في العمر وهما السيدان أوتافى و بات فانهما كانا يجيدان العربيـة ويكتبانها كتابة سلسة صحيحة وقـد توليا شؤون دولتهما السياسية ، والسيد أوتافى كان استاذه في العربية السيد برغش أمـير زنجبار وكان قد قضى فيها أعواما طويلة قنصلا لفرنسـا وكلاهما كان معجباً بالمدنية الاسلامية يصرحان بذلك أمام الموافق والمخالف وهما آية فى معرفة تاريخ العرب معرفة ثاقبة ويعرفان الاقطار العربية كما يعرفها أهلها ، ولا أعرف ان كان اتسع لهما الوقت فالفـا فى العربية أو الفرنسية أو نشرا بعض كتبها العلمية والأدبية .

وعرفت السيد هوار مدرس العربية بمدرسـة اللغات الشرقية فى باريز وناشر كتاب البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر ومقامات ابن ناقبا وديوان سلامه بن جندل وغير ذلك ، وله تاريخ العرب بالفرنسية وعدة مقالات فى معلمة الأسلام ومعلوماته مثل معلومات غودفروا ديمومبين ليست واسعة كثيرا أو ليس فيها شيء جديد ولا يعد كصاحبه من اللامعين المبرزين كما كان السـيد شاتيليه صاحب مجـلة العالم الاسلامى الفرنسية وأستاذ علم الاجتماع الاسلامى في كوليج دي فرانس . وعرفت المستعرب مرسـيه ناشر كتاب حلبة الفرسان ، وعرفت آمار ناشر مقـدمة الوافي بالوفيات وله مقالات كثيرة فى مجلات المشرقيات ، كما صحبت المسيو فران أحـد مستعربيهم وناشر كتاب «الفوائد فى معرفة علم البحر والقواعد» لابن ماجد الملاح

البصري وهو من المعجبين بمدنية العرب خدمها فى نطاق اختصاصه وكان يجهر بذلك في خطبه و كتاباته.

ومن المستعربين الفرنسيين الذين عرفتهم ليفى بروفنسال وقد امتاز بابحاثه في الاندلس ونشر عدة كتب ممتعة في تاريخها بلغته وهو الذي أعد الذخيرة لابن بسام للنشر وتنشرها الآن جامعة فؤاد الأول وهو المرجع الأول فى الغرب بتاريخ الأندلس وما يتعلق به وقد تمم فى معلمة الأسلام ما كان يعالجه من مقالات بلاد الأندلس ورجالها المستعرب الألماني سيبولد .

وممن عرفتهم من أبناء هذه الامة السيد بلاشير المتخصص فى شعر المتنبي والسيد بريز العالم بالأندلسيات والصدر المتقدم في البلاغة العربية وصاحب الجولات الموفقة في آدابها وحضارتها .

ومن أهم رجال الاستعراب من الفرنسيين السيد مارسيه وهو يكتب العربية ويتكلمها كما يتكلمها أدباؤها أنفسهم ويكتبونها ويعد من مستعربي الدرجة الاولى من الأوربيين وقد نشر عدة ابحاث دلت على علو كعبه في العربية وآدابها واستفاد منه كثير من أدباء تونس ممن تخرجوا به كما استفادطلاب الاستعراب من أبناءأمته. وعرفت استاذا مستعربا صرف معظم حياته فى مراكش وهو السيد ميشوبلليرعاش عيشة المراكشيين وتزوج فيهم وله مقالات في مجلات المستشرقين . كما نشأت لى صداقة مع السيد بوفا وقد نشر أشياء كثيرة بالعربيةوأكثر من ذلك بالفرنسية مأخوذا من المصادر العربية وله أبحاث كثيرة لم تشتهر لانها قليلةالجرم وان كانت عظيمة الفائدة . ويلحق بالفرنسيين العلامة مونتيه السويسرى استاذ العربية في جامعةجنيف وهو الذي نقل القرآن الكريم الى الفرنسية وله أبحاث جليلةفي الأسلام ومحاضرات وقد ألف كتاب (الاسلام) قات فيه ان ماينشره الاستاذ مونتيه الحين بعد الآخر في الأسلام يليق بعالم القرن العشرين لانه يكتب وقد نزع منه التقاليد

القديمة والتعصب الذي يتلبس به طوعا او كرها من نشأوا فى الغرب ولم يخالطـوا أهل الأسلام ولا درسوا أصوله وقواعده وتاريخه الا دراسة متقزز منحرز ومما قاله في الرسول فى هذا الـكتاب ، انه كثيرا ما حكمت عليه الاحكام القاسـية ذلك لأنه ندر مثله في المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل وان ماقام بهلأصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع يمكن ان يعد به من أعظم المحسنين للأنسانية . وقال ان الأسـلام يسير سيرا حسنا في نشوئه خلافا لما يدعيه بعضهم وان الواجب على المسلمين ان يحتفظوا لقيام أمرهم بما حظرته الشريعة عليهم من تعاطى المسكرات .

هؤلاء معظم من عرفت من الفرنسيين اما الأنكليز والأميركان فعرفت بضعة منهم من العيار العالى فمن أوائلهم كرنيليوس فانديك وابنه إدوارد فانديك فان كرنيليوس خدم لغتنا ونشر العلم فى ربوعنا بما كتب بالعربية من اصناف العلوم كالطب والطبيعة والجغرافيا وقد أخلص فى خدمة العرب حتى إنه استقال من التـدريس في الجامعة الأميركية فى بيروت لما ارادت عمدة الجامعة ان تنقل التعليم من العربية إلى الأنكليزية قائلا إننا جئنا هذه الديار لنخدمها بلغتها لا بلغتنا . وتآليفه علي قدمهـا ما زالت متداولة يستفاد منها وكذلك ابنه إدوارد ألف فى علم الـكتب العربية كتابا جيدا وله غيره ودرس الأنكليزية فى المدارس المصريه زمنا . ومن اعظم المستعربين من الأنكليز صديقي العلامة براون أستاذ العربية في جامعة كمبريدج فانه نشر كتبا بالعربية وله بالأنكليزية تاريخ آداب اللغة العربية وهو من أمتع ما كتب في موضوعه على ماقال لى من قرأه بلغته من أحبابي ومن رأيه فيه خطابا لمـن بهرتهم الآداب الفارسية ، إن قصيدة واحدة من المعلقات السبع خير مما قاله شعراء الفرس . وكان فى الحقيقة المدافع عن مدنية الفرس فى الغرب والمحامى المتطوع فى خدمة قضية العرب والفرس في الغرب ، اخذ كثيرا عن الأستاذ الأمام محمد عبده وله ايادبيض عـلى العرب وهو ممن امتازوا بمعرفة الأسلام معرفة ثاقبة ، وتعمق فيه وحنى عليه وعلي

أهله مثل رصيفه صديقي العلامة أرنولد مدرس العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن وناشر كتاب المنية والامل للمرتضى في ذكر المعتزلة وهو إمام فى الأبحاث الأسلامية لم تعد عليه هفوة واحدة في كل ما كتبه ولا سيما فى معلمة الأسلام وكنا فى مصر نتكلم بالعربية وهو في سن الشباب فلما عدنا واجتمعنا فى انكلترا تعذر عليه النطق بالعربية وآثر ان نتكلم بالفرنسية ومنهم الأستاذ بفن مدرس العربية فى جامعة كمبريدج وناشر مناقضات جرير والفرزدق في بضعة مجلدات كبيرة وفيها من التحقيق اللغوي ما يدهش شهدت له بتبحره فى ادب هذا اللسان وقوة ملكته فى النقد حتى أذكر أني ذكرت له إعجابي بوستنفيلد ناشر معجم البلدان لياقوت وعشرات غيره من كتب العربية فقال لى ان التحقيق يعز فى الكتب التى نشرها وأخرج لى جزءا من هذا المعجم صحح فيه أماكن كثيرة في كل صفحة فاضطررت الى الاعتراف بخطأي .

ومن مستعربي البريطانيين الاستاذ مرجليوث أستاذ العربية فى جامعة أكسفورد وكان يكتب العربية كتابة سلسلة نقل فيها التراكيب التي تشعر بعجمته وقد نشر من كتب سلفنا الصالح معجم الأدباء لياقوت فى بضعة مجلدات والأنساب للسمعاني ونشوار المحاضرة للتنوخي وديوان التعاويذى ورسائل المعري وغير ذلك وكان مقدما فى موضوعه وسبب اشتهاره بين ابناء صناعته انه تكلم في الأسلام بما لا يقره عليه العارفون فحظى عند العامة ونزلت منزلته عند الخاصة . وخليفته في اكسفورد اليوم الأستاذ جيب وهو رصيفي في مجمع فؤاد الأول للغة العربية والمجمع العلمي العربي يكتب العربية مثلنا وقد كتب أشياء كثيرة فى الاسلام بلغته وهو يعد كتبا عربية أصلية لنشرها بلغتها التي كتبت بها .

ومن المستعربين الاميركان المستر وطسون رئيس الجامعة الأميركية فى القاهرة وله تلاميذ كثيرون وأصدقاء غير قليلين فى مصر كتب إلي يوم ١٩ ديسمبر ١٩٢٤

وكانت الجامعة الاميركية فى محنة إذ كثر التقول عليها فى مصر ورموها بأنها جامعة تبشير لا جامعة علم وكنت متعاقدا معها علي إلقاء محاضرات وأردت أن أرجع عن تعاقدي فأبيت الا القاءها — قال لعل اتصالكم بزملائي اعضاء مجلس ادارة الجامعة قد اطلعكم علي رغبتنا الشديدة في خدمة مصر والعالم العربي ما وسعنا ذلك وانا لنعد معهدنا جسر صداقة بين العالم العربي والعالم الغربي يشاد على الرغبة الخالصة فى أداء الخدمات المتبادلة بين العالمين فلئن كان فى الغرب ما يستفيد منه الشرق فان في الشرق ما هو خليق ان ينتفع به الغرب . ولا ريب فى انكم تبينتم من أناقة بناء قاعتنا الكبرى والصغرى مبلغ عنايتنا وتقديرنا للفن العربى الجميل وفضلا عن هذه الخدمات بين الشرق والغرب فان مهمتنا الكبرى هى العمل على حسن التفاهم بين هذين العالمين فهنالك من الأسباب ما دعا الى الكراهية والنفور بينهما والصلة التي تجمع عندها الشعوب والجماعات بحكم الثقافات هى المحبة والوئام .

ومن مستعربي الأميركان السيد الجليل دودج رئيس الجامعة الاميركيــة فى بيروت فانه ووالده من قبله قد أسديا إلى الأمة العربية يدا لاتنسى على ممـر السنين وتخرج علي يديه وفي جامعته مئات من ابنائنا من المصريين والشاميين والعراقيـين ولم تبق الأمور الأدارية للسيد دودج وقتا يصرفه فى الأبحاث التي غلبت عليه وهو آية فى فعل الخير عرف بها زمن الحرب العالمية الأولى فأنفق كل ما عنده على الفقراء ثم باع ما أمكنه بيعه ورهن أملاك جامعته وأخذ الفضل من ذلك فصرفه علي إطعام الجياع وهذا عمل فريد قل ان عمل مثله رجل من رجال الدين ، فهو كوطسون قسيس راق خدم دينه وأمته وخدم الأنسانية .

ويلحق بمستعربي الانكلوسكسونيين مستعرب آخر عنيت به صديقى العــلامة كرينكو ولد في قرية من قرى شمالي ألمانيا وأتقن فى المدرسة الثانوية اللغات الألمانية والأنـكليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية ثم درس الأردية والفارسية وسكن فى

انكلترا وتجنس بالجنسية الأنكليزية وتزوج سيدة إنكليزية وكان له فى الحرب الماضية معمل لصنع الاقمشة فى ولستر يشتغل فيه اكثر من ألف عامل وعاملة فلما نزلت الأسعار عقبي الهدنة وكان فقد ابنه الوحيد فى الحرب أثر ذلك فى صحته وحمل الى المستشفى ولما خرج منه كان افلس من ابن الزلق فجاءه كتاب من الهند يطلب منه بعض اصدقائه في حيدر آباد الدكن ان ينسخ لهم ما يشاء من كتب العرب المحفوظة في المتحف البريطانى مقابل ثلاثمائة جنيه فى السنة قال فأنا الآن أعيش بفضل لغتكم. درس كرينكو العربية بدون معلم علي الكبر وهو يكتبها كتابة صحيحة إلا انه يجد صعوبة في التخاطب بها لقلة من لقيهم من أبناء العرب. كتب لي مرة وانت تعلم اني تعلمت اللغة العربية والفارسية والهندية بلا معلم لبعدى فى شبيبتى عمن يعلم شيئا من هذه اللغات فاعتمدت علي الكتب فقط الي ان ورد صديقنا كاظم الدجيلى (الى بريطانيا) ومنه سمعت اول كلمة عربية ثم سألني صديقى عماد الملك وزير سمو النظام سلطان حيدر آباد بان أعاون دائرة المعارف التي أنشأها هو في عاصمة حيدر آباد لأحياء العلوم العربية في الهند مخافة خمولها فأول كتاب هذبته كان جمهرة اللغة لابن دريد فى ثلاث مجلدات مع فهرسته فى مجلد ضخم ...

يحسن العلامة كرينكو لغات اوروبا بأسرها ويتكلم بها بسهولة ويعرف من لغات الشرق العربية والفارسية والاردية ومن لغات الشرق القديمة طرفا من الحميرية والتركية والعبرية والأرامية وهو شاعر بالألمانية لغته الأصلية. وما كان يفارق المطالعة طول حياته وما منعه معمله عن الانصراف الى التأليف اوقات الفراغ وقلت له فى اكسفورد وانا ادهش من كتاب ضخم لابن قتيبه في الشعر وقد صححه وعلق عليه حواشي مفيدة ومتى أنجزت كل ذلك ياسيدي وأنت رجل صناعة فقال كنت في بعض أيام الآحاد اترك امرأتي تتنزه وحدها وألزم البيت فاكتب وأصحح وأعلق واذا نجوت ساعات قليلة في اليوم من حسابات المصنع انقلب نحو دفاترى وكتبي .

وقد نشر السيد كرينكو عشرات من الكتب والرسائل والمقالات بالعربية والألمانية والأنكليزية مالو نشر بعضه مجمع علمى في ثلاثين سنة لعد ذلك من مفاخره فمما نشر شعر ابى دهبل الجمحي وقصيدتان لمزاحم العقيلي وطبقات النحاة لابى بكر الزبيدي وديوان عمرو بن كلثوم التغلبي والمجتبي لابي بكر بن دريد بن عبد العزيز العجلي والحارث بن حلزة البشكري وديوان طفيل الغنوي وكتاب الجمهرة (الذي تقدم ذكره) وتنقيح المناظر لكمال الدين الشيرازى وكتاب التيجان فى تواريخ ملوك حمير لعبد الملك بن هشام وفي ذيله ما بقى من رواية عبيد بن شرية والدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلانى (مع الفهارس التى ابى الطابع نشرها اقتصادا) وهو فى اربع مجلدات والجماهر فى معرفة الجواهر لابى الريحان البيروني والمنتظم لابن الجوزى (اربع مجلدات) والمؤتلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزباني ومعانى الشعر الكبير لابن قتيبة واخبار النحويين البصريين للسيرافي وكتاب الافعال لابن القطاع وتفسير ثلاثين سورة لابن خالويه وكتاب الجرح والتعديل لابن ابى حاتم وهو اليوم يعد كتبا للطبع من تراث العرب العظيم فله المنة علينا بأحياء هذه المجموعة العظيمة من كتب أسلافنا .

أحب الأستاذ كرينكو العرب والأسلام محبة لاترجى إلا من العريق فيهما ، يتعصب للعرب على سائر أمم الأسلام من الفرس والترك والهند ويعتقد (كما كتب لي في ٢٣ آذار سنة ١٩٣٥) إن زوال الدولة العربية أعني خلافة بنى أمية وانتقال مركز الأسلام من دمشق الي العراق وظهور الفرس علي العرب كان أول سبب في الحيلولة دون انتشار الأسلام فى الأمم النازلة فى الشمال الغربي اى فى أوروبا وان الدولة العباسية قام بنيانها على دمن الدولة الاموية وان دخول الفرس فى المناصب العالية أدخل الغش والخيانة في الأعمال المالية وما كان الخلفاء الا ما ندر يفكرون في شيء من اعمال الشام ومصر (ولا أذكر ما وراءها من البلاد مثل إفريقية والمغرب

والأندلس) اللهم الا ما كان من نقل اموال الخراج الى العراق لشراء الجوارى والجواهر وإعطاء الجوائز للمغنين والشعراء وما ماثلهم . ولو تدبرت مثلا اولاد الخلفاء لرأيت ان جميع خلفاء بنى أمية سوى مروان بن محمد آخرملوكهم كانوا أبناء حرائر وبالعكس كان خلفاء بنى العباس فان اكثرهم كانوا اولاد جوار مجلوبةمن غير بلاد إسلامية . وآفة ثانية وهى جلب الغلمان الأتراك الي بغداد ليجعلوا منهم عبيدا للدولة فأصبحوا أرباب الخلفاءانفسهم فى اقل من قرن . وآفة ثالثة وهى ما كان من الحروب التى نشأت بين اهل السنة والشيعة وظلت متصلة الى زماننا هذا. وقد شاهدت ما غمنى فى بلاد الهند وهنا في انكلترا عند ما عيدنا عيد الفطر فامتنع بعض المتشيعين عن الصلاة خلف إمام سنى المذهب. وكل هذامما يهين أهل الأسلام في عيون الذين لايعتقدونه. ويضاف الى كل هذه الآفات وهو أعظمها فى خمول الامم الاسلامية استنجاد السلاطين والامراء في حروبهم بالامم النصرانية من مجاوريهم ، وأول من ارتكب هذا الأثم خلفاء العبيديين فى مصر عند استيلاء الصليبيين علي الشام . قال ولو كتبت الأسبوع كله لما أتيت علي آخر براهيني . ورأى ان علي أبناء العرب اليوم ان يتحدوا في منازعهم وينزلوا عن الجدال فى تحصيل الحرية الشاملة ويطبعوا فى قلوبهم المثل الانكليزى . ان ارحاء الله تعالى اذا طحنت ببطء فهي تطحن الجيد .

وبعد فان من المتعذر الآن ان نلم بسيرة هذا المستعرب من عامة أطرافها فهو الى أعماله العلمية العظيمة داعية متطوع في خدمة الأسلام الصحيح والحضارة العربية. هداه البحث الي أمور نحن أبناء هذه الحضارة كنا غافلين عنها فقد رد مثلا علي من زعم انه توجد نسخ من المصحف الشريف بخط الائمة علي بن ابى طالب والحسن والحسين وهى مما يكثر بين الشيعة وقال لوفرضنا انهم كتبوها فانهم لم يكتبوها بالخط الكوفي بل بالخط المكي القديم الذي هو الخط المعتاد الان . وفى رأيه ان

الخط الكوفي من اختراع مسلمة النصارى من الشاميين . وكتب لي مرة انه لا يعتمد علي مؤرخي الفرس لانهم يخلطون ويخبطون خبط عشواء . حدثني صديقي الاستاذ خليل مردم بك انه كان يسمر عند الاستاذ كرينكو فكان من جملة ما تحدث به فى تلك الليلة امام زوجته سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وما كان من أمره مع النساء وما عملهن به ومامنحهن الأسلام من الحقوق مما لم تعط مثله امة قبل العرب وبحث فى علاقة رسول الله مع أزواجه ولا سيما مع عائشة أم المؤمنين . قال ومازال يتدرج فى حواره حتى ذكر كيف خرجت روح الرسول الطاهرة وهو على حجر عائشة . فلما سمعت امرأته هذا الكلام شهقت بالبكاء وخرجت من الغرفة . فقال الأستاذ كرينكو اني اتعمد إسماعها مثل هذه الأخبار لانها ليست محيطة بكل ما فى الأسلام من محاسن .

والاستاذ ليس له ارتباط بجامعة ولا بجمعية وكل ما فرح به ان اختاره المجمع العلمي العربي فى دمشق عضوا فاكبر هذا التنويه به وعده فخرا له . كما كان من أكثر من اختارهم هذا المجمع اعضاء مراسلين له فانهم اظهروا فى كل فرصة تفاخرهم بانضمامهم الينا وعدونا وعددناهم كاننا ابناء أسرة واحدة .

ومن مستعربى الأستراليين الأستاذ جفرى نشر كتاب المصاحف للسجستانى وهو معروف في مصر كان يدرس فى الجامعة الأميركية بالقاهرة . ومن أكبر المستعربين من الطليان الأمير كايتاني فانه تفضل فى سنة ١٩١٣ وقبلني فى قصره في رومة ابحث فى المصورات التى صورها عن المخطوطات العربية في تاريخ الأسلام ولقد قضيت في هذه المهمة ثلاثين يوما رأيت منه عطفا كبيرا واطلاعا واسعا وانقلبت من لدنه بمذكرات ثمينة استعنت بها علي تأليف كتابي (خطط الشام) وهو يحسن سبع لغات ومنها العربية والفارسية وقد وضع بالايطالية كتابه تاريخ الاسلام (آنالي دل اسلام) العظيم طبع منه بالايطالية ستة مجلدات ضخمة وكان يرجو ان يفسح الله

في أجله ليكمل القرن الاول للأسلام فقط فى خمسة وعشرين مجلدا وما كان يطبع من تاريخه أكبر من مئتين وخمسين نسخة وقد جعل شعاره فى كتبه قول الشاعر العربي .

كفاف عيش كفانى ذل مسألة * وخدمة العلم حتى ينقضى عمري

يقول هذا وثروته قبل الحرب العالمية الأولي كانت تقدر بخمسة ملايين جنيه ايطالى ذهبي عدا ثروة الأميرة زوجته ، كان ينفق علي العلم فقط كل سنة عشرة آلاف جنيه انكليزي ، ونشر كتاب تجارب الأمم لمسكويه وكان يعد للنشر تراجم ثلاثين ألف عالم وأديب من المسلمين فى الأندلس وهى جذاذات جمعها طول حياته المستشرق الأسباني ريبرا . ومن كبار مستعربيهم السنيورجويدي وهومعروف في مصر وكان أستاذا فى الجامعة القديمة وحاضر في أدب الجغرافيا والتاريخ فأجاد من وراء الغاية وله كتب عظيمة في اللغات السامية ولا سيما الحبشية والأمحرية وكان يعد من مستشرقى الطبقة الاولى فى الغرب كتب الى مرة .

وان كان شاعركم العربى قال

وماذا تبتغى الشعراء مني * وقد جاوزت حد الأربعين

فأنا جاوزت حد الثمانين ومازلت أكتب وأؤلف نشر جويدى من كتبنا شرح بانت سعاد لابن هشام وكتاب الافعال لابن قوطية والاستدراك لابي بكر الزبيدي وكتاب مهدي الموحدين محمد بن تومرت وديوان الحطيئة جرول بن أوس ومعانى النفس ومقالة فى أسماء الله الحسنى لكاتب إسرائيلي قديم وغير ذلك عدا المقالات بالأيطالية وغيرها من لغات الغرب . وابنه ميكل انجلو مستعرب مثل أبيه وكان يدرس فى جامعة فؤاد الأول قبل الحرب الاخيرة . وممن عرفه العلماء والأدباء فى مصر الاستاذ غريفيني ناشر فقه زيد بن علي وديوان الأخطل والطبقات لأبى بكر الزبيدي ولمع القوانين المضيئة فى دواوين الديار المصرية لعثمان بن ابراهيم النابلسي الى غير ذلك من النصوص العربية ومنها قصائد لبعض شعراء الجاهلية.

ومن الايطاليين الممتازين بين المستعربين صديقي العلامة نلّينو عضو مجمع فؤاد الأول والمجمع العلمي العربي ومدير المعلمة الايطالية (دائرة المعارف والموسوعات) وصاحب المقالات الممتعة فى معلمة الاسلام الى غير ذلك من التآليف ومنها تاريخ علم الفلك عند العرب القاها محاضرات على تلاميذ الجامعة القديمة بالقاهرة وقد نشر كثيرا من كتب العرب منها زيج البتاني فى الفلك والبيان لابن رشد وكان يكتب ويخطب بالعربية ثم انقطع عن معاناة العربية مدة فصار يسهل عليه أن يكتب بالفرنسية وصعبت عليه الكتابة بالعربية وكان يحب الشرق وأهله وقد امتاز بمعرفة بلاد شمالي افريقيه وجغرافيتها وآثارها وتاريخها ويعد من أعظم علماء المشرقيات عامة .

وعرفت من مستعربي الالمان والهولانديين والتشكيين والدانمركيين والسويديين والاسبانيين والبولونيين والمجريين جملة صالحة ، فمن الالمان هرزفلد مكتشف آثار السامانيين وآثار سر من رأى ومنهم هوروفتس ناشر الهاشميات للكميت ، درس العربية سنين طويلة في جامعة أليغار فى الهند وكثير من رجال القضاء وحملة العلم من الهنود هم من تلاميذه ومنهم ريتر ناشر كتاب مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين للأشعرى ، والوافي بالوفيات للصفدي ، ومنهم برتزل نشر طبقات القراء لابن الجزري مع برجسترازر . ونشر برتزل التيسير فى القراآت العشر لابي عمرو الداني والمقنع فى رسم مصاحف الامصار من كتاب النقط له أيضاً. ونشر الدكتور مايرهوف مقالات فى العين لحنين بن اسحق. ومن أعظم من عرفتهم من مستعربي الالمان العلامة بروكلمان صاحب تاريخ آداب اللغة العربية بالالمانية وهو ناشر كتاب تلقيح فهوم أهل الآثار فى مختصر السير والاخبار لابن الجوزى وعيون الاخبار لابن قتيبة وديوان لبيد وكتاب ما تلحن فيه العوام للكسائى. وعرفت من الالمان هوميل وميتفوخ وهارتمان والاستاذ هوميل من أعظم المستعربين في الغرب وقد اثبت أن حمورابي صاحب القانون كان عربيا. ورأيت هوميل في مونيخ وهو

فى الخامسة والستين يدرس لغة الجغطاى من لغات الترك القديمة ، وقد توفر على درس ديوان ابن قيس الرقيات سنين بأمل أن يجد فيه اسماء بعض الالبسة عند العرب ، وبعد البحث الطويل ظفر بلفظين اثنين فاغتبط بهذا الاكتشاف . ومن المجريين غولد صيهر نشر فضائح الباطنية للغزالي ، وكتاب المعمرين للسجستانى وغير ذلك ، وكان يعد من اكبر رجال المشرقيات فى الغرب كتب مئات من الابحاث الاسلامية بالمجرية والالمانية والفرنسية والانكليزية والروسية والسويدية والخرواتية الصربية والعربية وكان يتكلم العربية جيدا درسها فى الأزهر . ومن الهولنديين سنوك هرغرونى واواندونك وهوتسما وهذا نشر زبدة النصرة للعماد الاصفهانى وتاريخ اليعقوبى والاضداد لابن الانبارى وغيره من كتب العرب وكان مدير تأليف معلمة الاسلام ، وقال لي مرة ترى أعيش وأشهد هذه المعلمة قدمت وظهرت للناس فمتعه الله بالحياة ورآها تامة كما أحب.

ومن الاسبانيين الأب آسين بالاسيوس مدرس العربية فى جامعة مجريط كتب مؤلفا ضخما بالاسبانية اثبت فيه أن دانتى شاعر الطليان أخذ قصة المهزلة الالهية من رسالة الغفران للمعري. ونشر آسين بالاسيوس من كتب العرب المدخل لصناعة المنطق لابن طملوس وغيره .

ومن السويديين سترستين من جامعة اوبسالا نشر تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها لابراهيم مغلطاى وقطعة من تهذيب اللغة للازهري ومنهم بدرسن الدانمركى وسموغرجفسكي البولونى ، ومنهم موسيل التشكى وقد قضى سنين مع قبيلة الرولا فى بادية الشام رسم خلالها أحسن المصورات الجغرافية وكتب كتبا عظيمة عن اكتشافاته وكان يدعى الشيخ موسى الرويلي ورأيته في الحرب العالمية الاولى يتقلد رتبة جنرال ويصحب بعض أمراء ملوك النمسا فى رحلة إلى الشرق القريب .

هذا ما وعته الذاكرة ممن اجتمعت بهم وعرفتهم عن أمم وذلك بالاختلاط بهم وبقراءة كتبهم وابحاثهم وربما فاتني ذكر بعضهم وليس المقصود استقصاء اسمائهم كلهم بل الغاية التنويه ببعض أعمالهم ورسم الخطط لمن يحب العلم للجرى على آثارهم ، والسلام عليكم .

محمد كرد على

قمة دلتا النيل

وتغيير موضعها منذ أقدم العصور البشرية حتى الوقت الحاضر

للدكتور ابراهيم احمد رزقانه

تكوين الدلتا:

لم يأخذ سطح مصر في الظهور فوق صفحة الماء الا فى أواخر الزمن الجيولوجى الثاني واستمرت حركة الارتفاع هذه خلال الزمن الثالث فى عصري الايوسين والأوليجوسين حتى أصبح ساحلها الشمالي في العصر الاخير يمتد في المنطقة المحصورة بين الفيوم والقاهرة. ولم يكن نهر النيل بشكله الحالي قد تكون بعد ولكن كان هناك نهر كبير يجرى نحو الشمال حتى يلتقى بالساحل الأوليجوسيني شمال الفيوم مباشرة وما زالت آثار مجرى هذ النهر واضحة الى الغرب من مجرى النيل الحالي حيث يطلق عليه الجيولوجيون[1] اسم «جد النيل» أو «بحر بلاماء» (انظر شكل ١)

فاذا انتقلنا الى عصر الميوسين نجد أن توزيع تكويناته يدل على انه فى القسم الأول من هذا العصر انخفض شمال مصر بحيث تراجع خط الساحل نحو الجنوب عما كان عليه فى العصر السابق، ولكن فى القسم الاخير من نفس العصر تنعكس الحركة وترتفع الارض ويوجد لأول مرة نهر النيل الحالي الذي أخذ في التقدم شمالا — كلما زاد ارتفاع الارض وتقهقر البحر — ناحتا واديه العظيم خلال صخور العصور السابقة.

فلما جاء عصر البليوسين ارتفع مستوى البحر من جديد حتى وصل مستواه الى ١٨٠ فوق مستواه الحالي وتراجع خط الساحل تبعا لذلك نحو الجنوب حتى

---

(1) J. De Morgan, *Recherches sur Les Origines de l'Egypte. L'Age de La Pierre et Les Métaux.* Fig. 3. Paris 1896.



شكل (٢)

وصل الى عرض القاهرة وتحول جزء كبير من وادي النيل الى خليج بحري(١) غير أن هذا الخليج لم يلبث أن امتلأ بالحصباء والرمال التي جلبتها المجاري المائية المنحدرة من الهضاب المحيطة بهذا الوادي ، ثم نجد ساحل البحر يتقدم نحو الشمال نتيجة لارتفاع الارض فى القسم الاخير من هذا العصر ، وكلما انحسر البحر عن منطقة تقدم النيل فيها بواديه وأخذ يلقي فى البحر كميات كبيرة من الحصباء والرمال انتشرت علي شكل دلتا.

ولما بدأ عصر البليستوسين (منذ نصف مليون سنة تقريبا) كان مستوى البحر المستمر في الانخفاض — مازال أعلا من مستوي الارض بمقدار مائة مترعنه في الوقت الحاضر وكانت أرض الدلتا مازالت مغمورة بمياهه ولكنها أخذت في

(1) W. F. Hume and O. H. Little, *Raised Beaches and Terraces of Egypt* in Report of the Commission of Pliocene and Pleistocene Terraces, Union Geographique Internationale p. 11, 1928.

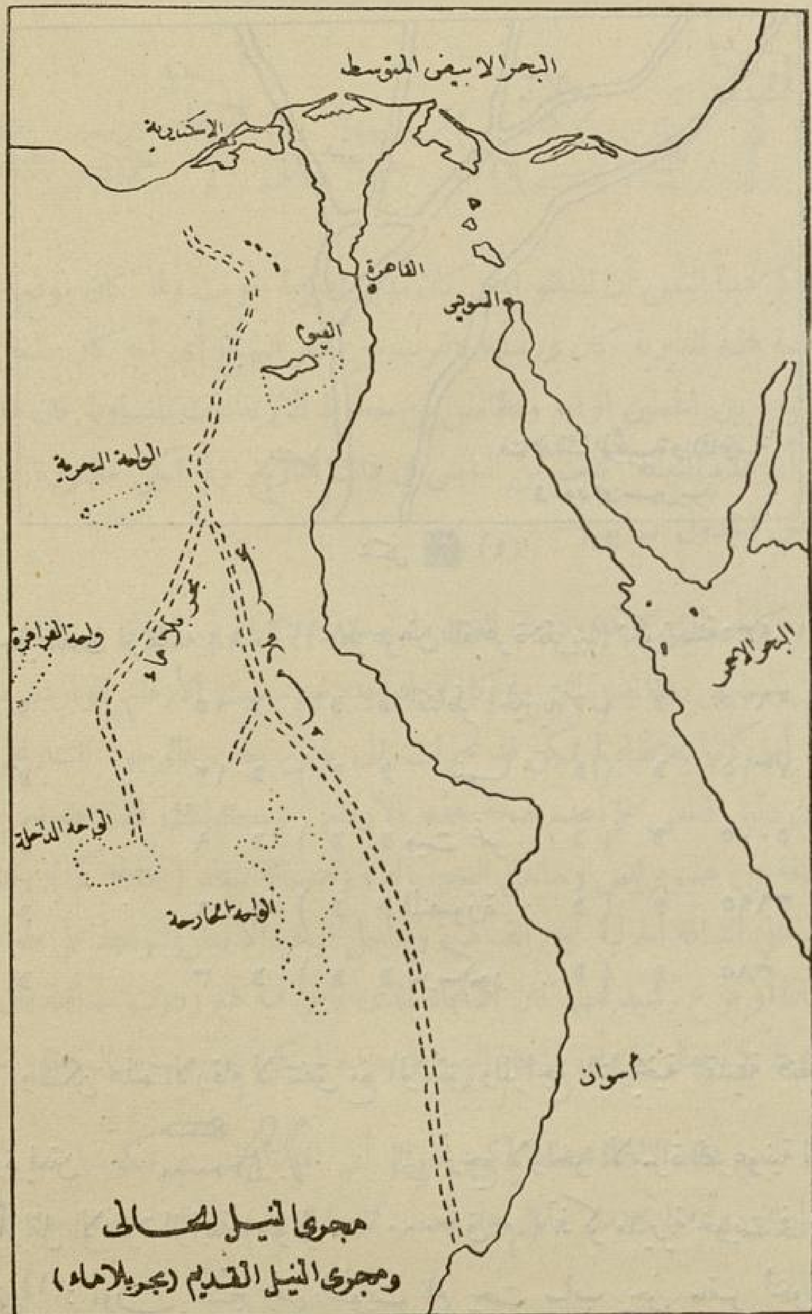
الظهور فوق صفحة الماء شيئا فشيئا بسبب استمرار انخفاض البحر وبفضل ما كان يلقيه النيل فيه من رواسب الحصباء والرمال وبدأ نموها من الجنوب بطبيعة الحال حتى كانت فى أواخر هذا العصر قد كسبت علي حساب البحر تسعين كيلو مترا شمال عرض القاهرة . ويقابل هذه الفترة من العصور البشرية العصر الحجرى القديم الاوسط (منذ ٤٠ ألف سنة تقريبا)

فأذا ما انتقلنا الي العصر الجيولوجى الحديث وهو الذى يكون العشرين الف سنة الاخيرة منذ نهاية البليستوسين حتي الوقت الحاضر نجد أن انخفاض البحر مازال مستمراً حتى وصل أقصى انخفاصه فى العصر الحجرى القديم الاعلى (سنة ١٠٫٠٠٠ ق. م. تقريبا) فكان مستواه على عمق ٤٣ مترا تحت مستوى البحر الحالى ونتج عن ذلك تمام تكوين الدلتا بشكلها الحالى بل وتقدم حدها الشمالى بمقدار ١١ كم شمال الحد الحالى وبذلك كانت الاراضى الغارقة حاليا على طول ساحل مصر الشمالى عبارة عن أرض جافة صالحة لسكنى الانسان . ثم بعد هذا التاريخ تنعكس الحركة ويأخذ مستوى البحر فى الارتفاع حتى اصبح فى منتصف العصر الحجري الحديث (سنة ٦٫٠٠٠ ق. م. تقريبا) علي مستوي ثمانية أمتار فقط تحت المستوي الحالى وبذلك أصبح حد الدلتا الشمالى علي بعد ثلاثة كيلومترات تقريبا شمال الساحل الحالى (١). ثم باستمرار حركة ارتفاع البحر اتخذ خط الساحل موضعه الحالى (انظر شكلي ٢،٣)

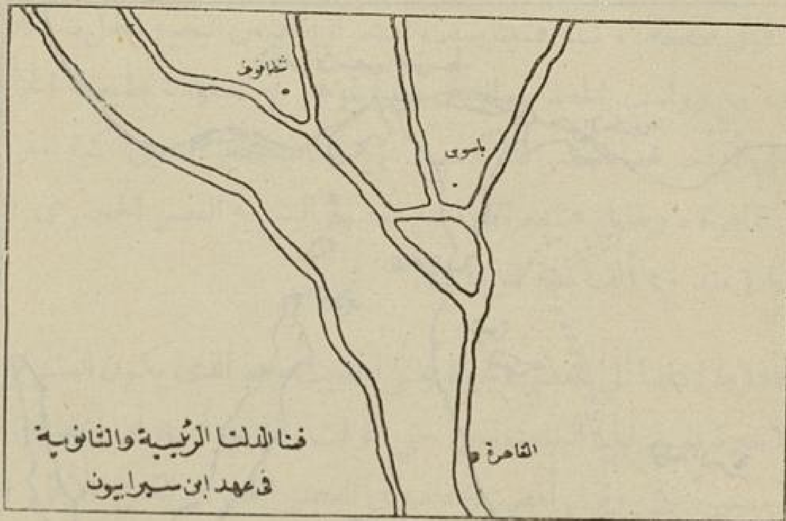
ويري الامير عمر طوسون (٢) أن تراجع ساحل البحر — أو نمو الدلتا بمعني آخر — تم على المراحل الآتية :

(1) John Ball, *Contributions to the Geography of Egypt*, Cairo 1939 pp. 31, 32, 39 and plate 8.

(2) Omar Toussoun, *Mémoire sur L'Histoire du Nil*, t. 3 1925 planche 22.


البحر الابيض المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
السويس
الفيوم
الواحة البحرية
واحة الفرافرة
الواحة الداخلة
الواحة الخارجة
البحر الاحمر
أسوان
مجرى النيل الحالى
ومجرى النيل القديم (بحر بلاماء)

شكل (١)



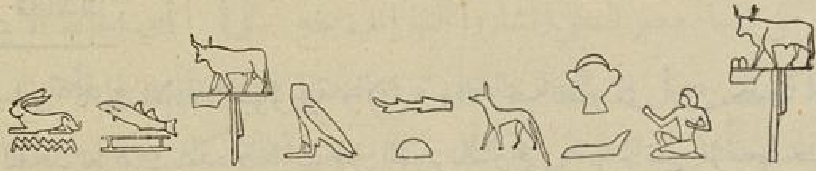
شكل (٤)

الساحل الذى ارتفاعه ١٨ مترا (خط عرض القاهرة تقريبا) تكون سنة ١١٩٣٥ ق.م.

»	١٥ »	(»	» القناطر الخيرية »	)	»	٩٦٢٥ »
»	١٢ »	(»	» بنها »	)	»	٧٣١٥ »
»	٩ »	(»	» ميت غمر »	)	»	٥٠٠٥ »
»	٦ »	(»	» المنصورة »	)	»	٣٦٩٥ »
»	٣ »	(»	» فارسكور »	)	»	٣٨٥ »

ولكن هذه الارقام لا تتفق مع الوثائق والمراجع التاريخية القديمة فنصوص مقبرة إمتن [hieroglyphs] التي ترجع لاواخر الاسرة الفرعونية الثالثة أو أوائل الاسرة الرابعة (حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م.) تذكر مديرية خويت في النص الآتي(١): أون عَـج مِر خُويت إم خت ساب حر سِقِر خُويت

(1) Depsins (C.R.), *Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien*, Zweite Abtheilung, Denkmäler des Alten Reichs, Blatt S.



ويذكر هذا النص أن المدعو إمتن كان مدير لمديرية خويت ولما كان موقع خويس عاصمة هذه المديرية كان فى سخا بالقرب من كفر الشيخ أى أنه كان يشغل منطقة محصورة بين الخطين الرابع والخامس من خطوط الارتفاعات المتساوية فان هذا يدل علي أن هذه المنطقة كانت من اليابس فى ذلك التاريخ ولم تكن مغمورة بالماء كما يفرض الجدول السابق.

كما أن المؤرخ هيرودوت الذى مات سنة ٤٢٥ ق.م. يحدثنا عن المدن القديمة بوتو وسايس وتانيس التي ما كانت لتوجد لو صحت الأرقام الواردة بالجدول لأن أماكنها بمقتضاه لم تكن قد تحولت الى يابس بعد . فالوجود التاريخى لهذه المدن دليل قطعى علي عدم صحة هذه الارقام . وكذلك قدر هيرودوت(١) المسافة بين هليوبوليس وساحل البحر بألف وخمسمائة ستاد (٢٨٧ كم) وهو رقم يزيد علي المسافة الحالية بين القاهرة وساحل البحر الابيض المتوسط علي طول فرع دمياط أو فرع رشيد فمهما كان الاتجاه الذى قاس فيه هيرودوت مسافته فان الرقم الذي ذكره يدل علي أن ساحل البحر فى عهده لم يكن جنوب خط الساحل الحالي.

ومن هذه الادلة مجتمعة يمكن القول أن الدلتا قد تم تكوينها قبل العصر التاريخى وأنه لم تحدث خلال هذ العصر تغيرات ملحوظة فى موضع خط الساحل الشمالي.

---

(1) Herodotus II, 7.

تطور قمة الدلتا:

اذا كانت الادلة الجيولوجية والاثرية والتاريخية تشير الى أن حدود الدلتا الشمالية قد تعرضت لعده ذبذبات قبل العصر التاريخي وانها لم تغير موضعها خلال هذا العصر فان الامر ليس كذلك فيما يختص بقمة الدلتا ، إذ تشير نفس الادلة الى انها في تغير مستمر منذ تكونها حتى الوقت الحاضر .

ونحن اذا نظرنا الى خريطة طبيعية للمنطقة المحصورة بين حلوان والقاهرة وجدنا أن الهضبة الشرقية تحتضن النيل فى هذه المنطقة وتشرف عليه بواسطة سلسلة من التلال هى من الجنوب للشمال جبل حوف وجبل طره وجبل المقطم فلم تسمح له هذه المرتفعات بتكوين سهل فيضى كما لم تسمح له بالتفرع فى الاتجاه الشرقى على طول امتداده بين حلوان ومصر العتيقة ثم بمجرد ان تبتعد عنه الهضبة فى هذا المكان الاخير نجده يمد له ذارعا نحو الشمال الشرقى ، وأما في غرب النهر فى نفس المنطقة فنجد الهضبة الغربية بعيدة عن النهر ويزداد بعدها عنه كلما اتجهنا شمالا ولهذا استطاع أن يكون سهلا فيضيا متسعا ومن الجائز أنه استطاع أن يمد له ذراعا فى الاتجاه الشمالى الغربى يخرج منه عند منفيس . وعلي أي فان هذه المنطقة — من الوجهة الطبيعية — أنسب مكان لتكون قمة الدلتا الاولى اذ تشرف التلال عليها من الشرق والغرب ثم تأخذ التلال في الابتعاد عن النهر كلما سرنا شمالا حتى يتحول المنظر الطبيعي الى سهول متسعة أشبه شىء بالبوابات التى تؤدى الى ميدان فسيح .

ومع أنه ليس لدينا - من الوجهة الاثرية - نصوص صريحه من اوائل العصر الفرعونى تعين لنا موضع قمة الدلتا في تلك الفترة ألا أننا نستطيع أن نستنتج من التقسيم الاداري رأى الفراعنة فى موضع هذه القمة التي كانت بمثابة الفاصل بين الدلتا والصعيد فقد جعل الفراعنة من منفيس حاضرة القسم الادارى

الاول من اقسام مصر السفلي وأشاروا اليها إنب حج [hieroglyphs] أي الحائط الابيض الذي كان يفصل بين الدلتا والصعيد ويقع عند طرف كل منهما لحماية أهل الصعيد من اغارات أهل الدلتا ومعني هذا أن ماتلا منفيس شمالا كان معتبرا — فى رأى الفراعنة قبيل قيام الحكم الملكي — من الدلتا . وكان قلب منفيس وحيها الرئيسي في موضع قرية ميت رهنية الحالية أي جنوب رأس الدلتا الحالى بحوالى ثلاثين كيلو مترا ، هذا فى غرب النهر وأما في شرقه فقد اعتبر الفراعنة منطقة المعصرة وطره الحالية قسما اداريا من اقسام شرق الدلتا وأطلقو عليه اسم [hieroglyphs] (١)

ولاشك ان التقسيم الادارى كان صدي للحالة الطبيعية القائمة فى عهده أو قبله ولهذا يمكن القول أن رأس الدلتا كان فى بدأ الحكم الملكي المصري أو قبله بقليل فى منطقة منفيس وطره وأن تفرع النيل كان يبدأ من هذا المكان .

فاذا ما انتقلنا الى الدولة الحديثة نجد نصوصا صريحة تعين موضع قمة الدلتا مثل النص الآتى الذى أورده برجسن فى قاموسه (٢)

---

(١) قرأ زيتا اسم هذا الاقليم عيئن وقال انه هو اقليم [hieroglyphs] الذى يشغل المنطقة الجبلية بمحاجر المعصرة وطره على الشاطيء الايمن للنهر تجاه منفيس وقد ورد ذكره فى مقبرة الملك ساحورع من الاسرة الخامسة في أبوصير . وكان يعين الحدود الفاصلة بين منطقتى نفوذ الالهين حورس وست أي بين مصر العليا ومصر السفلي . وقد اعتبر هذا الاقليم فى العصر اليوناني مديرية مستقلة من مديريات الوجه البحرى كتب اسمها بهذا الشكل [hieroglyphs] كما ورد اسم عاصمتها فى الصيغ [hieroglyphs] , [hieroglyphs] , [hieroglyphs] [انظر Sethe, dans Bodchardt, Sahure, II, p. 131 et III, pl. 72; Dümichen, Geog. Inschr I, pl. 66, nº 36; Gauthier, Dictionnaire des Noms Géographiques contenus dans Les textes Hiéroglyphiques t. I. p. 78].

(2) Brugsch, *Dictionnaire Géog. de l'Ancienne Egypte*, Leipsig 1879 p. 622.

حابي إم خري عحا

أى النيل الذى ينبع عندي خري عحا

وكذلك جاء فى نفس القاموس النص الآتى :

ومعني النص « هذه المنطقة التى هى خرى عحا تدفع النيل نحو مدينة جـدجد (بوصير) وتجعل النيل يأتى وتقيسه بالذراع لـكي توصله الى كل المصبات »

ولا يمكن أن تفسر هذه النصوص الا علي ان مدينة خرى عحا (مصر العتيقة الحالية) كانت تقع عند قمة الدلتا حيث كان ينبع عندها من النيل الاصلى أحد فروعه الرئيسية وهو فرع دمياط الحالى الذي كانت تقع عليه مدينة جدجد(بوصير جنوب سمنود بقليل).

ثم فى أواخر الحكم الملـكي المصري نجد المؤرخ اليوناني هيرودوت (القرن الخامس قبل الميلاد) يشير اشارة دقيقة الى موضع قمة الدلتا فى عهده فيقـول (١)

Μέχρι μὲν Κερκασώρου πόλιος ῥέει εἷς ἐὼν ὁ Νεῖλος τὸ δὲ ἀπὸ ταύτης τῆς πόλιος σχίζεται τριφασίας ὁδούς, καὶ ἣ μεν πρὸς ἠῶ τραπέται

ومعني النص « يجري النيل الآن حتى مدينة كركاسور في مجرى واحد ولـكنه بعد ذلك يتفرع الى ثلاثة فروع »

فأين كانت تقع مدينة كركاسور التي جعلها هيرودوت قمة للدلتا ومكانا يتفرع النيل عنده الى فروعه الرئيسية ؟

(1) Herodotus, 2. 17.

لم يعين لنا هيرودوت موضع هذه المدينة ولكن سترابون الذى كتب بعد هيرودوت بأربعة قرون يعين لنا موضعها بالدقة فيقول(١)

Ἐντεῦθεν δὴ ὁ Νεῖλός ἐστιν ὁ ὑπὲρ τοῦ Δέλτα· τούτου δὲ τὰ μὲν δεξιὰ καλοῦσι Λιβύην ἀναπλέοντι, ὥσπερ καὶ τὰ περὶ τὴν Ἀλεξάνδρειαν καὶ τὴν Μαρεῶτιν, τὰ δ᾽ἐν ἀριστερᾷ Ἀραβίαν· ἡ μὲν οὖν Ἡλίου πόλις ἐν τῃ Ἀραβίᾳ ἐστίν, ἐν δὲ τῇ Λιβύῃ Κερκέσουρα πόλις κατὰ τὰς Εὐδόξου κειμένη σκοπάς ...ὁ δὲ νομὸς Λητοπολίτης οὗτος· ἀναπλεύσαντι δ᾽ἐστὶ Βαβυλών,

ومعنى النص : «يصل الانسان من هليوبوليس الى النيل عند قمة الدلتا . والاجزاء الواقعة علي يمين القمة ونحن مبحرون جنوبا تسمى ليبيا وتتبعها الاجزاء التي حول الاسكندرية وبحيرة مريوط وأما الاجزاء الواقعة علي اليسار فتسمى (صحراء) العرب. وعلي هذا تتبع هليوبوليس (صحراء) العرب. واما مدينة كركاسور الواقعة بالقرب من مرصد اودوكس فتتبع ليبيا ...... ونحن هنا فى مديرية ليتوبوليت واذا واصلنا الابحار جنوبا وصلنا الى بابيلون» .

واذاً فهذا الكاتب يخبرنا فى صدر النص أن المسافر اذا اتجه من هليوبوليس الى النيل فانه يصله عند قمة الدلتا. وفى هذا اشارة — ولو انها غير صريحة — الى أن قمة الدلتا تقع تجاه هليوبوليس . ثم يخبرنا سترابون فى آخر النص بأن مدينة كركاسور تقع غرب النهر فى مديرية ليتوبوليت — وهى القسم الاداري الثاني من اقسام مصر السفلى — وأن هذه المدينة قريبة من مرصد أودوكس أي تجاهه لأن هذا المرصد كان يقع شرق النهر جنوب مدينة هليوبوليس. ولما كانت مسلة هليوبوليس تقع فى الوقت الحالي علي بعد ٣٢٠٠ مترا شمال عرض الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق كما أن المسلة لم تكن كل شيء في المدينة بل كانت المدينة عظيمة الامتداد ولا شك أن جزءاً من امتدادها كان جنوب المسلة ثم بعد ذلك كان

(1) Strabo, 17.30.

المرصد جنوب المدينة فان هذا يرجع وضع المرصد — وبالتالي وضع كركاسور — تجاه الطرف الجنوبي لجزيرة الوراق الحالية وبهذا يمكن القول أن قمة الدلتا ونقطة تفرع النيل كانتا قبيل الميلاد عند هذا المكان(١)

ويعطينا سترابون المسافة بين منفيس وقمة الدلتا فيقول(٢)

Ἐγγὺς δὲ καὶ ἡ Μέμφις αὐτὴ τὸ Βασίλειον τῶν Αἰγυπτίων εἶσι γαρ ἀπὸ τοῦ Δέλτα τρίσχοινον εἰς αὐτήν.

ومعنى النص « ممفيس نفسها عاصمة المملكة المصرية قريبة أيضا منها (من بابيلون) لأن المسافة اليها من الدلتا ثلاث شوينات فقط »(٣)

وكذلك يعين لنا بلينيوس المسافة بين ممفيس وقمة الدلتا فيقول(٤)

unde (Memphis) ad Hammonis oraculum XII dierum est, ad scissuram autem Zili, quod appellavimus Delta, XV.

ومعنى النص «من ممفيس الى واحة آمون مسيرة اثنى عشر يوما ومنها (منفيس) الى النقطة التي يتفرع عندها النيل ويكون ما سميناه الدلتا مسافة خمسة عشر»(٥)

وأما بطليموس الجغرافى فيذكر ان المسافة بين ممفيس وقمة الدلتا عشر دقائق عرضية أي حوالى عشرين كيلو مترا (٦)

(1) Prince Omar Toussoun, *Mémoire sur l'Histoire du Nil, t. I.* p. 139-140.

(2) Strabo, 17.31.

(٣) الشوين عند سترابون تساوى ٨٦٥٢ مترا

(4) Plinius, *Hist. Nat.*, V, IV.

(٥) لم يذكر بليني في نصه تمييز هذه الخمسة عشر. وقد فهم مترجم طبعة لويب هذه الجملة خطأ فقال فى ترجمته لها أن المسافة من منفيس الى نقطة تفرع النيل مسيرة خمسة عشر يوما وهو تفسير مستحيل وصحته خمسة عشر ميلا رومانيا ويستحسن أن يثبت فى النص اللاتينى علامة الميل الرومانى بعد الرقم ١٥ منعا لهذا اللبس وكان الميل الروماني فى عهد بليني يساوى ١٤٨٢ مترا

(٦) الدرجة العرضية عند بطليموس تساوي ١٢٣ كم

وهكذا نرى أن سترابون يعطى للمسافة بين ممفيس ورأس الدلتا ثلاثة شوينات (٢٦ كم تقريبا) وأن بليني يعطى للمسافة بين هاتين النقطتين ١٥ ميلا رومانيا (٢٢ كم تقريبا) وأن بطليموس يعطى لنفس المسافة عشر دقائق عرضية (٢٠ كم تقريبا) . وتدل أرقام هؤلاء الكتاب فى مجموعها على أن رأس الدلتا تقدم نحو الشمال وأنه كان فى القرون الاخيرة قبل الميلاد وفى القرون الاولى بعده شمال القاهرة الحالية أى عند روض الفرج لان المسافة بين ميت رهينة (قلب ممفيس) وبين روض الفرج حوالى ٢٥ كم

وترجح الظروف الطبيعية وضع رأس الدلتا فى هذه الفترة عند الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق الحالية (١) لان هذه الجزيرة عظيمة المساحة وتدل حالتها علي أنها كانت يوما ما متصلة بقلب الدلتا من طرفها الشمالى بحيث تكون شبه جزيرة يتفرع النهر عند طرفها الجنوبي الى فرعيه البلوزى والكانوبي . ويتفق مظهرها في هذه الحالة مع مظهر قمة الدلتا الحالية حيث يتفرع الفرعان دمياط ورشيد عند الطرف الجنوبي لجزيرة الشعير .

فاذا ما انتقلنا الى العصر العربى نجد ابن عبد الحكم المتوفي سنة ٢٥٧هـ (٨٧١م) يتحدث عن النيل فيقول (٢) «وكانت الجنات بحافتى النيل من أوله الى آخره فى الجانبين جميعا مابين اسوان ورشيد وسبع خلج خليج الاسكندرية وخليج سخا وخليج دمياط وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنها وخليج سردوس» فهذا

(1) Prince Omar Toussoun, *Mémoire sur les anciennes branches du Nil, Epoque Ancienne*, dans Mémoires présentés à l'Institut d'Egypte, t. IV, premier fascicule 1922, p. 9 et pl. 4 and 5.

(٢) ابن عبد الحكم — فتوح مصر وأخبارها ص ٦—٧ طبعة Torrey ليدن سنة ١٩٢٠م

الـكاتب يعدد لنا خلجان النيل أى فروعه ويسمى كل فرع اما باسم البلدة التى يخرج عندها من النيل أو باسم البلدة التي ينتهى عندها فى البحر أو فى بحيرة قارون فاما خليجا المنها والفيوم فلا شأن لنا بهما عند بحث قمة الدلتا ويكفى أن نذكر أن ابن عبد الحكم ينسب حفرهما الى يوسف عليه السلام . وكذلك لاتفيدنا خلج الاسكندرية وسخا ودمياط فى تعيين موضع هذه القمة لانه سماها باسماء مصباتها ويبقى بعد ذلك خليجا منف وسردوس فأما خليج منف فانه يشير الى موضع رأس الدلتا القديم عند المدينة السماة بهذا الاسم ومن المرجح أن هذا الفرع لم يكن يجرى في العصر العربي وانما كانت آثار مجراه مازالت ظاهرة في ذلك العصر . ويبقي لدينا بعد ذلك خليج سردوس الذي كان يخرج من النيل الرئيسى عند البلدة السماة بهذا الاسم بجوار باسوس الحالية وتجاه الطرف الشمالى لشبه جزيرة الوراق حيث تخرج من النيل فى الوقت الحالى ترعة ابو المنجا التى تمثل مجرى فرع سردوس القديم

ومع أن ابن عبد الحكم لم يشر فى هذا النص صراحة الى أن قمة الدلتا كانت تقع عند بلدة سردوس الا ان هذه البلدة كانت أقصى البلدان الواقعة جنوب الدلتا مباشرة التي ذكر هذا الكاتب أن فرعا يخرج من النيل عندها دون أن يكون هناك شك فى جريان هذا الفرع فى عهده . ثم كانت تخرج من النيل شمال هذه البلدة سائر فروعه فى العصر العربى كدمياط وسخا ورشيد ومن هنا يمكن القول أن قمة الدلتا فى القرون الاولى من العصر العربى كانت حول هذه البلدة ومعني هذا ان كلا الموضعين جنوب جزيرة الوراق وشمالها يعينان قمة الدلتا القديمة وانما في عصرين مختلفين الاولى فى القرون الاولى من الميلاد والثانيه في القرون الاولى من الهجرة .

بعد ذلك نجد كاتبا يسمى ابن سيرابيون[١] — كتب بعد ابن الحكم بسنوات قليلة — يعين موضع قمة الدلتا عند سردوس أيضا ولكنه يضيف معلومات جديدة الى ما ذكره ابن عبد الحكم وذلك أنه لفت النظر الى أن قمة الدلتا تتقدم نحو الشمال باستمرار وسجل لنا ثلاثة مواقع لهذه القمة الاول عند الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق والثاني عند سردوس أى عند الطرف الشمالى لهذه الجزيرة والثالث عند شطانوف .

ولا يمكن أن يفهم حديث ابن سيرابيون عن القمة الاولى الواقعة عند الطرف الجنوبى لجزيرة الوراق الا على أنه تصوير للحالة التى كانت قائمة قبل عهده في العصر اليوناني الرومانى وذلك لان كتاب العرب السابقين لابن سيرابيون مثل ابن عبد الحكم لا يذكرون الا قمة سردوس . وأما حديث ابن سيرابيون عن قمتي سردوس وشطانوف فيمكن أن يفهم علي أنه تصوير صادق للحالة القائمة فى عهده أى أن كان للدلتا في ذلك العهد قمتان ، قمة رئيسية عند سردوس وقمة ثانويه أو مشروع قمة عند شطانوف (انظر شكل ٤)

---

(١) هو يحي بن سيرابيون — وقيل يوحنا بن سيرافيون — كان طبيبا وجغرافيا توفى بعد المتوكل وقبل البويهيين أى بعد عامي ٢٨٩ ، ٣٣٤ هـ. كتب بالسريانية كتابيه فى الطب الكناش الكبير والكناش الصغير وقد نقلا الى العربية. وأما مخطوطه في الجغرافيه فمحفوظ بالمتحف البريطاني تحت رقم ٢٣٣٧٩ (محفوظات المتحف البريطاني جـ ٢ ص ٦٠٣).

انظر

(a) Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur* 1.227 and 233.

(b) Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur*, Erster Supplementband p. 406. Leiden 1937.

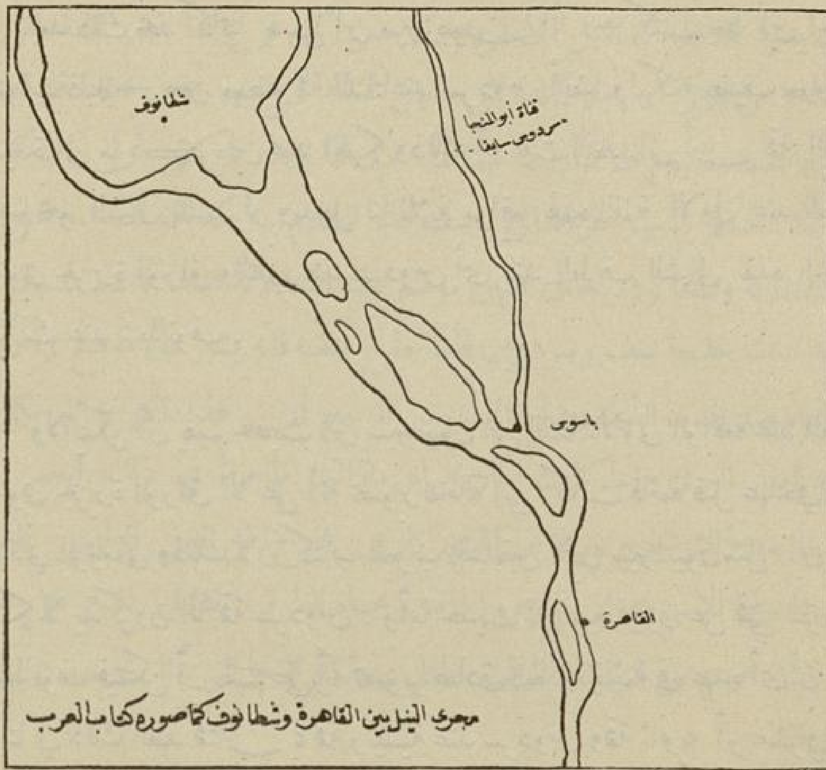
(c) Omar Toussoun, *Mémoire sur l'Histoire du Nil*, t. 1. p. 143.

وانظر ايضا

(ا) الفهرست لابن النديم طبعة أوروبا ص ٢٩٦ وطبعة مصر ص ٤١٢

(ب) طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة جـ ١ ص ١٠٩ طبعة القاهرة سنة ١٨٨٢م

(جـ) كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ص ٢٤٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ



مجرى النيل بين القاهرة وشطانوف كما صوره كتاب العرب

شكل (٦)

وقد كتب ابن حوقل بعد ابن سيرابيون بقرن واحد فلم يذكر لنا الا قمة واحدة هي شطانوف فهل معني هذا أنه فى الفترة الفاصلة بين الكاتبين تضاءل شأن قمة سردوس وأصبحت شطانوف الواقعة فى شمالها هى القمة الرئيسية للدلتا ؟

أما أن قمة سردوس تضاءل شأنها فهذا ثابت من أقوال عدة كتاب فبينما يصف ابن سيرابيون فرع سردوس الخارج أمام هذه القمة بالعظم والضخامة نجد القلقشندى يخبرنا أن فرع سردوس تضاءل شأنه — نتيجة لتراجع الدلتا دون شك — وأن قناة أبو المنجا حفرت لكي تحل محله وفي ذلك يقول القلقشندى أن ابن الاثير قال في كتابه عجائب المخلوقات أن خليج السردوس أو السردوسى كان أحد نزهات الدنيا يسار فيه بين بساتين مشتبكة وأشجار ملتفه وفواكه دانيه فقلت —

القلقشندي — « أما الان فقد ذهب ذلك وبطل الخليج وعوض عنه ببحر أبي المنجا » (١)

وبناء على المعلومات المستمدة من كتاب العرب تكون قمه سردوس قد تضاءل شأنها ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجري (آخر العاشر الميلادي) وتضاءل تبعا لذاك شأن فرع سردوس الذي كان يروي جزءا هاما من شرق الدلتا مما الجأ السكان الى المطالبة بحفر قناة تحل محل هذا الفرع وتسير في مجراه فتم لهم ما طلبوا سنه ٥٠٦ هـ (١١١٣)م (٢)

وأما أن قمه شطانوف أصبحت هى القمه الرئيسيه للدلتا منذ ذلك الوقت فهذا ثابت من قول الادريسى والقلقشندى . فقد حدثنا الادريسي المتوفي سنه ٥٤٨ هـ (١١٥٣م) فقال (٣) « وفي أعلا شنطوف (شطنوف) ينقسم النيل على قسمين فينزلان الى اسفل ويتصلان بالبحر » وكذلك حدثنا القلقشندي عن قمه الدلتا وتفرع النيل فقال (٤) « ثم يأخذ النيل فى الشمال حتي ينتهى الى مدينه الفسطاط ويمتد فى جهه الشمال أيضا حتى يصير بالقرب من قرية تسمى شطنوف (٥) من قرى مصر من عمل منوف(٦) فيفترق بفرقتين فرقه شرقيه وفرقته غربيه ......»

(١) القلقشندي :صبح الأعشي فى صناعة الانشاجزء ٣ ص ٣٠٠طبعة دارالكتب بالقاهرة سنة ١٩٣٨

(٢) القلقشندي : صبح الأعشي فى صناعة الانشا جزء ٣ ص٣٠١ـ٣٠٢طبعةدارالكتب بالقاهرة سنة ١٩٣٨

وانظر ايضا المقريزي خطط جزء ١ ص ١١٣ ـ ١١٥ طبعة مطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٩٢٤ هـ.

(٣) الادريس . نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص ١٤٨ـ١٤٩ طبعة ليدن سنة ١٨٦٤

(٤) القلقشندي . صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٨٧ـ٢٨٨

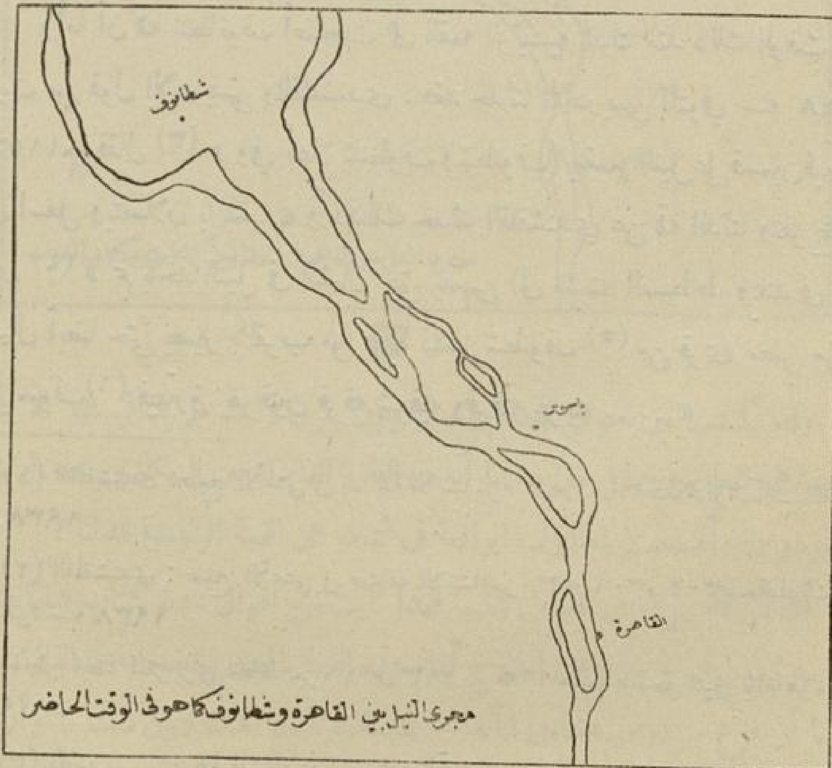
(٥) شطنوف كما ذكر ياقوت وشطنوف كما ذكر صاحب القاموس

(٦) أي في مديرية المنوفية

وهكذا نري كتاب العرب بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين (العاشر والخامس عشر الميلاديين) مجمعين على أن قمه الدلتا كانت عند شطنوف الواقعه شمال القمه الحاليه بحوالى عشرة كيلومترات . ومعنى هذا أنها تراجعت نحو الجنوب بهذا المقدار منذ القرن الخامس عشر الميلادي حتى الوقت الحاضر

التفسير الطبيعى لتراجع قمة الدلتا:

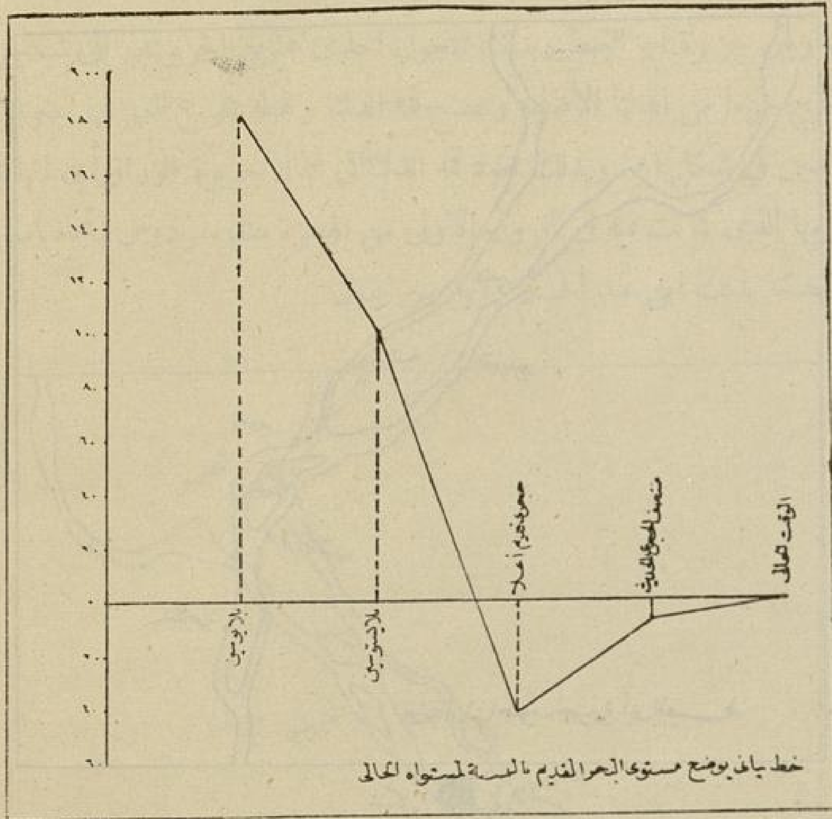
تبين الخريطه الموضحه في شكل (٥) مجرى نهر النيل بين القاهرة وشطنوف كما هو فى الوقت الحاضر وفيها تظهر جزيرة الوراق وجزيرة القيراطيين ثم شبه جزيرة



مجرى النيل بين القاهرة وشطانوف كما هو فى الوقت الحاضر

شكل (٥)

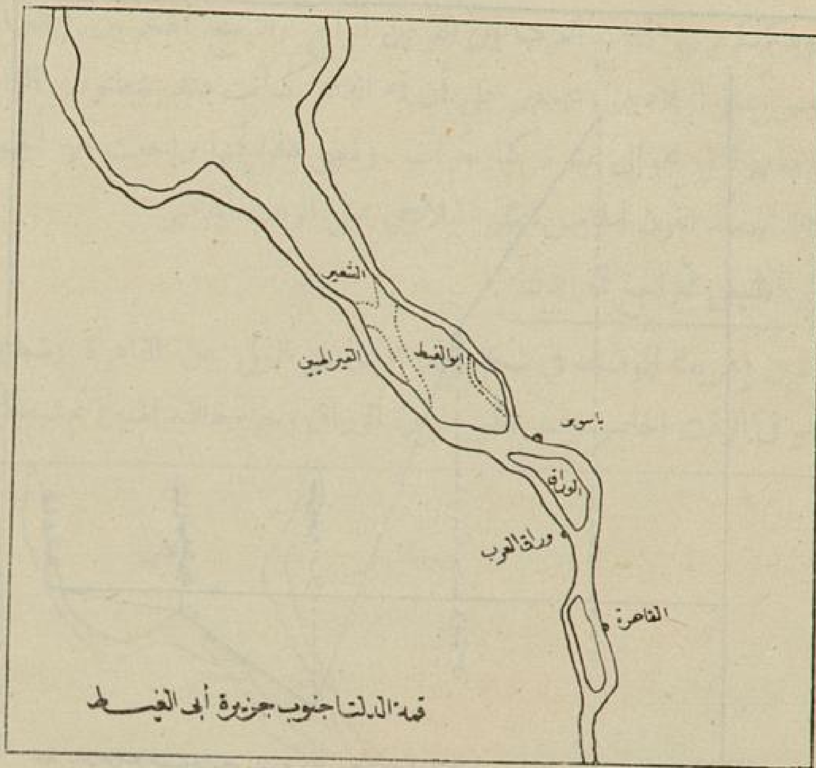
الشعير . كما تبين الخريطه الموضحه فى شكل (٦) هذا الجزء من مجرى النيل كما صوره كتاب العرب وفيه تظهر قمه الدلتا عند شطنوف . وأما الجزء



شكل (٣)

الذى يلي هذه القرية جنوبا فلم يكن فى العصر العربي متصلا بالدلتا كما هو فى الوقت الحاضر وانما كان جزيرة يتفرع النيل عند طرفها الشمالي الي فرعيه الشرقى والغربي علي نحو ما حدثنا الادريس والقلقشندى ثم بسبب ارساب النهر ردم الفاصل المائي بين هذه الجزيرة وبين قمة الدلتا فتحولت الجزيرة الى شبه جزيرة واصبحت جزءاً من الدلتا ونتيجة لهذا تراجعت القمة نحو الجنوب وأصبح تفرع النهر جنوب شبه جزيرة شطنوف وشمال جزيرة الشعير كما هو مبين فى شكل (٧)

ومما يقطع بصحة هذا التفسير تكرر هذه الظاهرة فى السنوات الاخيرة فالمصورات الحديثة التى تخرجها مصلحة المساحة المصرية أصبحت تطلق منذ سنة ١٩٢٥



شكل (٨)

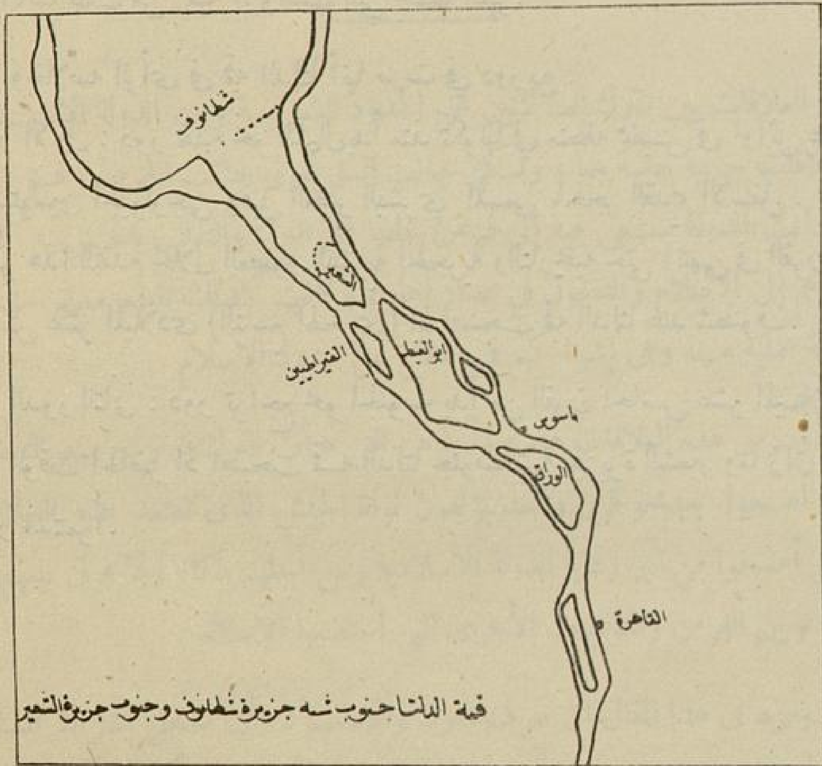
على جزيرة الشعير اسم شبه جزيرة الشعير (١) وذلك لان الفاصل المائى الذى كان بينها وبين شبه جزيرة شطنوف مليء بالرواسب فتراجعت قمة الدلتا ونقطه تفرع النهر الى جنوب هـذه الجزيرة التي تحولت الى شبه جزيرة وأصبحت جزءا متصلا بالدلتا الاصلية .

ونحن ننتظر علي هذا القياس أنه بعد عدد من السنين — لا نستطيع تقديره — سيمتليء الفاصل المائى الذى بين شبه جزيرة الشعير وبين جزيرة القيراطيين والذى

---

(١) انظر اللوحة $\frac{٨٠}{٦٠}$ مقياس $\frac{١}{١٠٠٠٠٠}$ وهي اللوحة المسماة «القاهرة» التى أصدرتها مصلحة المساحة المصرية سنة ١٩٤٠ بناء على عملية مسح الارض سنة ١٩٢٥

بينها وبين جزيرة ابو الغيط وبذلك تتحول احدى هذين الجزيرتين الى شبه جزيرة وتصبح جزءا من الدلتا الاصليه وتصبح قمه الدلتا ونقطه تفرع النهر فى جنوبها كما هو مبين في شكل (٨) وبذلك تعود قمه الدلتا الى شمال جزيرة الوراق أى انها تعود لموضعها الذى كانت فيه فى القرون الاولى من الهجرة عند سردوس (تجاه باسوس) كما حدثنا بذلك ابن عبد الحكم وابن سيرابيون.



شكل (٨) (٧)

بل نتوقع أيضا أن يمتلىء الفاصل المائي بين جزيرة أبو الغيط بعد تحولها الى شبه جزيرة وبين جزيرة الوراق وبذلك تعود قمه الدلتا الى موضعها جنوب جزيرة الوراق وهو الموضع الذى حدثنا عنه هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد.

ولا تسمح طبيعه النهر فى الوقت الحاضر جنوب جزيرة الوراق بتوقع تراجع قمه الدلتا بعد ذلك لان المسافه طويلة بين الطرف الجنوبي لجزيرة الوراق وبين الطرف الشمالي لجزيرة الزمالك ثم ان مجرى النهر فى هـذه المسافه ضيق ومستقيم . وهذان العاملان — ضيق المجرى واستقامته — يجعلان التيار سريعا لا يسمح بالارساب ولا بتكوين الجزر يضاف الى هذا أن الأعمال الصناعيه الحديثه من جسور وقناطر وخزانات قللت من كميه الرواسب التي يحملها النهر.

وخلاصه الرأي فى قمه الدلتا أنها مرت في دورين :

الدور الاول : دور تقدم نحو الشمال بدأ منذ تكونها في منطقه ممفيس فى أوائل عصر البليستوسين الجيولوجى وقبل العصر البشري المسمى بالحجر القديم الاسفل . وقد استمر هذا التقدم خلال العصور البشرية الحجرية والتاريخيه حتى انتهى فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجري) اذ اصبحت قمه الدلتا عند شطنوف.

الدور الثانى : دور تراجع نحو الجنوب بدأ من القرن الخامس عشر الميـلادى حتى الوقت الحاضر اذ اصبحت قمـه الدلتا جنوب شبه جزيرة الشعير وما زال هذا الدور مستمراً.

الممالك الحليفـــة

أو

ممالك ما وراء النهر والدولة الاسلامية إلى أيام المعتصم

للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة

العلاقات بين الترك الساكنين على الحدود الشرقيـة وبين الدولة الاسـلامية عـلاقات حربية سلمية معا ، ولـكن جانب السلم يفوق جانب الحرب ، فـفي حين كانت الدولة تسـعى فيه إلى فرض حلفها على الترك والتغلب بالحـرب كانت تدعوهم إلى الاسلام والدخول فى عداد أهله ، وكانت كذلك تتبـع معهم سياسة خاصة عملية مرنة وهى إشراكهم في الدفاع عن حدود الاسلام .

ودرس هذه العلاقات هام ، لأنها هى التى هيأت الترك فى زمن يسير للتجنيد، حتى أصبحوا بعد نحو قرن واحد يؤلفون نواة الجيش الذى تعتمد عليه الخلافة ، وحتى أصبحوا من خير رعايا الدولة الاسلامية ومن أجلهم مكانا ، لا فرق بينهم فى ذلك وبين الفرس والقوميات الأخرى التى احتضنها الاسلام .

ونريد فى هذا المقال أن نعرف الترك وأقسامهم ، وأن نسجل إشراك المسلمين إياهم في حروب الثغور ، قبل أن يسلموا ، وبعد أن أسلموا ، وأن نبين كيف كانت صلة الدولة بهم أدعى ما تكون للتفاهم ، غير مشابهة فى شىء لصلات العرب بالشعوب الأخرى التى دخلت فى حدود المسلمين . ونريد كذلك أن نسجل تقبل الأتـراك للاسلام ، وسعي الدولة لنشر هذا الدين فيهم ، واستخدامهم فى الجيوش المركزية. فان هذه المسائل كلها هى التي تبين سياسة الحلف الاسلامية نحو الترك .

وليس في عزمنا أن نعرض لفتح ما وراء النهر ، وما اقتضاه هـذا الفتـح من عمليـات حربية — لا تزال في حاجة إلى ترتيب ، ولا ما اقتضـاه تثبيت النفوذ الاسلامي في هذه الثغور من الغزو السنوي. فان ذلك نوع آخر من البحث أساسه تحقيق الوقائع وتوقيتها . وهو بحث لم يخصه أحد من المؤرخين المحدثين بدرس خاص فيما عدا الأستاذ جب ولهذا تجاوزناه إلى درس العلاقات. ولعلنا نعود اليه في مقال آخر. (١)

حدود الاسلام قبل فتح أرض الترك

كان نهر المرغاب آخر أرض الاسلام حين استسلمت إيران . وذلك أن المرغاب كان الحد الشمالي الشرقي لايران الساسانية. أما ما بين المرغاب وجيحون الذي هو حد ما وراء النهر المصطلح عليه في الجغرافيا ، فكان واقعا تحت نفوذ الترك . وكان الفرس فيه موالي للأتراك كما يقول بارتولد في مقالته بدائرة المعارف الاسلامية ، وكما تدل المصادر العربية. وكان يخيل للممعن في تتبع الأخبار أن العرب قد اتخذوا حدودهم عند نهاية العالم الفـارسي شرقا. فانهـم لم يتجاوزا هذه الحدود ولا المنطقة المجاورة لها إلى ما وراء النهر (وهو نهر جيحون) قبل عهد الوليد: الامرات معدودات عبور المستكشف الموهم جاره أنه يقـظ علي حماية أرضه وعلي صيانة هيبته وتفوذه .

ولم يكن بد مع ذلك من أن يستأنف العرب بصورة ما النزاع بـين إيران وطوران ، استجابة لدوافع هذا النزاع الأصيلة المتغلغلة أسبابها في الأحوال الجغرافية والجنسية . وقام العرب في ذلك مقام الفرس بين إعجابهم وتأييـدهم ، ولـكنهم طبعوا مقامهم هذا بطابعهم الخاص .

ولـكن العرب لم يفرغوا لاستئناف هذا النزاع بين إيران وطوران إلا في أيام الوليد . وذلك أن يزدجرد ، آخر الأكاسرة ، لم يقتـل إلا عام ٣٢ هـ . ولم

---

(١) ننوى جمع النصوص الخاصة بفتح ما وراء النهر وبالغزوات بعد ذلك

تلبث الفتنة الأولى أن قامت ، واضطربت طاعة خراسان ، وظلت ملتاثة حتى قتل على [١]. وكانت خلافة معاوية ثم يزيد ، فاستقرت الأمور بعض الشيء ، والتفت المسلمون إلي حماية الحدود الشرقية ، فأنزلوا جندهم فى مرو بعد عام ٤٥هـ [٢]. ثم كان عبور النهر لأول مرة على أرجح الروايات علي يد سعد بن الخليفة عثمان ، فى النصف الأخير من خلافة معاوية [٣]. ثم عبره من بعده سلم بن زياد. [٤] ثم كانت الفتنة الثانية وعام الجماعة الثاني . ولكن الخلافة لم تكد تبرأ بعد ذلك من الاضطراب في المشرق (لثورات الخوارج وفتنة ابن الأشعث) ، فلم تفرغ لهذه الناحية حتي قام الوليد وولى قتيبة وقد اطمأن العراق ، ولا نكاد نسجل غزوا منتظما بين عام الجماعة الثاني وولاية قتيبة (إلا غزو نيزك في بذغشان وغزو أخرون وشومان وغزو كش ونسف وغزو الختل وغزو خوارزم[٥]).

وكانت بعض القبائل العربية المقيمة بخراسان اتصلت بالترك اتصالا لم يكن رسميا ولم يكن كذلك مما يسر ولاة خراسان ولا حكومة العراق والخلافة من ورائهما لأنه نشأ من التجاء بعض القبائل العربية الساخطة إلى الترك وإجارة الترك إياهم . ولاشك أن هذا الاتصال عرف العرب هذه النواحى معرفة صحيحة لم تكن قليلة النفع حين عادت هذه القبائل نفسها وغيرها فيما بعد محاربة فاتحة تحمل لواء الطاعة لا لواء العصيان .

وذلك أن موسى بن عبد الله بن خازم التجأ الى أرض الترك فارا من أرض الاسلام وعرض نفسه على الملوك ، ملوك ما وراء النهر ، فلم يجره إلا صاحب سمرقند.

---

(١) راجع البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٣٢ : ص ٣٩٩

(٢) نفسه ص ٤٠٠

(٣) نفسه ص ٤٠١

(٤) نفسه ص ٤٠٣

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة : ١٩٣٣ : ﺟ ٤ ص ٩٤ عام ٨٤ ، ص ٧٣ عام ٨٠ ، ص ٩٧ عام ٨٥

ثم إن صاحب سمرقند جمع له «نيزك» العبد المتغلب علي جبغوية ملك طخارستان ، والسبل صاحب الختل ، وأهل صغانيان ، وأهل بخارى [١] وكش ونسف [٢] ليمنعوه من ولاة خراسان. فأقام موسى ومن تبعه في نحو ٤٠٠ فارس وقوم من « بنى سليم بما وراء النهر » [٣] . وأخيرا نجد المسلمين في شرقى المرغاب يتبعون لأول مرة أيام الوليد سياسة الفتح نحو الترك الذين استقروا غربي جيحون ، بينه وبين المرغاب فى القرن السادس الميلادى قبل الفتوح الاسلامية . والواقع أن استقرار النظام الحربى فى الشرق قد تأخر

— ١ —

الشعوب التركية في «ما وراء النهر» :

(١) فأول من نعرف من الترك جماعة من «الهياطلة» فى الطبسين بقوهستان [٤] وهم فيما يقول البلاذرى إما ترك وإما فرس غرباء نزحوا من هراة نحو الجنوب » فصاروا مع الأتراك فكانوا معاونين لأهل قوهستان ، وكان اليونان يعدونهم Indo Scythe . والراجح أن الهياطلة انحسروا إلي هذه النواحى الجنوبية وأن أمرهم لذلك لا يعنينا فى دراسة ما وراء النهر ، ويكفي أن نذكر أنهم ظهروا في القرن الخامس الميلادي ، فى منتصفه تقريبا ، قادمين من الشرق ، من أواسط آسيا فاستولوا علي ما وراء النهر من يد طائفة أخرى سنتحدث عنها بعد قليل ، هى طائفة اليوتشى أو الطخارية . ويسمى الهياطلة بالفرنسية Hephtalites وبالانجليزية Ephtalites . ويسمون أيضا بالهون البيض . وليسوا فرسا كما توهم بعض روايات نقلها ابن الأثير ، وإنما هم شعب مغولى الأصل .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٩٩ عام ٨٥
(٢) نفسه ص ١٠٠ عام ٨٥
(٣) نفسه ص ٩٧ عام ٨٥
(٤) البلاذري : فتوح ص ٣٩٤

(٢) وأقدم منهم وأبعد أثرا فى تاريخ ما وراء النهر شعب آخر ، هو الذي يسمى عند الصين يوتشى، (١) ويسمى عند العرب باسم اللهجة المغولية التى كان يتكلمها وهى الطخارية . وهو شعب استقر فى هذه النواحي منذ آخر القرن الثالث الميلادى حتي غلبه الهياطلة فى منتصف القرن الخامس . ثم استرد قوته حين انساح الهياطلة نحو الجنوب وتضاءل أمرهم ، وعظم الطخارية مرة أخري . وكان ملكهم يتلقب بلقب جبغوية . ونستطيع أن نؤكد أن نفوذهم أيام الفتح العربى كان يمتد إلى نهر المرغاب غربا ويصل إلى مرو الروز. (٢) وقد فرضوا حلفهم على دهاقين المدن الفارسية الكبري الواقعة شرق المرغاب . فان كتب التاريخ تذكر هؤلاء الترك الطخارية إلى جانب دهاقين المدن الكبرى الواقعة بين المرغاب وجيحون : وهى الجوزجان والطالقان والفارياب. وقد اصطدم العرب بهذا الحلف حين أرادوا تجاوز نهر المرغاب أولا ، وحين ثارت طخارستان عقب فتوح قتيبة ثانيا .

كانت هذه المملكة أوسع ممالك الترك فى هذه الناحية . ولكن الانقسامات فرقت بين أجزائها .

لقد كانت تشمل كل الحوض الأعلي والأوسط من نهر جيحون وتمتد علي ضفتيه وتضم أرض الختل وبذغشان (٣) والطالقان (٤) وصغانيان وشومان وأخرون ، ولكنا لا نجد مع ذلك دليلا علي أن أرض الختل كانت من طخارستان

---

(١) انظر Lestrange: *Lands of the eastern califate* ص ٣٨ ؛ ه ١ ، ص ٤٣٣ ص ٦ وانظر
Albertini: *L'empire romain;* vol. IV de la collection: Peuples et Civilisation ص ٤٠٩.

(٢) البلاذرى : فتوح ص ٣٩٦

(٣) أقرأ بذغشان بدل باذغيش الموجودة فى ابن الأثير والسبب فى هذه القراءة أن الذي يقال عن باذغيش لا ينطبق الا على باذغشان ما وراء النهر ، فقد اشترط صاحبها على قتيبة « ألا يدخل عليه باذغيش» وهو شرط لا يمكن تصوره بالنسبة لباذغيش القريبة من المرغاب .

(٤) والطالقان هنا غير الطالقان الجوزجانية ، وترسم بالياء أحيانا بدل اللام وهو الرسم الأصح ويرويها رافد من جيحون ، وتقع على مرحلتين شرقي ولوالج (انظر لسترانج ٤٢٨)

وإنما أدمجناها فيها لتداخلها بين أجزائها ولتضامنها معها أحيانا ، أما بذغشان فان مصادرنا تقول إن صاحبها نيزك كان عبدا لجبغوية غلب عليه ، وهو الذي اتصل بالعرب محاربا ثم مصالحا ثم مخادعا ومراوغا ، أما صغانيان (وهى بالعجمية جغانيان حسب صبح الاعشى) فانها كانت حليفة طخارستان ، أما شومان وأخرون فان ابن الأثير يقول «هما من طخارستان [١]» ، وإن كان السياق لا يؤكد ذلك ، وكانت بلخ مدينة طخارستان . فكانت هذه المملكة حسب هذا التحديد تحتل مركزا وسطا بين شرقى إيران وأعالى نهر جيحون أو بين السهول والجبال [٢]

ويذكر صاحب صبح الأعشى أن طخارستان « هى بلدان فى أعلي نهر جيحون قاعدتها ولوالج [٣] وهى مقر مملكة الهياطلة في القديم ولها مدن منها اسكلكند [٤] وروان [٥] وهى مدينة طخارستان » ، ثم يذكر نفس المؤلف إقليم بذخشان (بالخاء وقد رأيناه بالغين) ويجعله في أعلى طخارستان متاخما لبلاد الترك . وواضح أن هذا الوضع لم يكن وضع القرن الذي نتكلم عنه ، ومن الواضح كذلك أن التحديد الذي نجده فى الأخبار الطوال [٦] أوسع من التحديد الذي استخلصناه وأقرب من تحديد القلقشندي ، فانه يقول (ص ٦١ و ٦٩) إن بلاد الهياطلة هي تخارستان (بالتاء) والصغانيان وكابلستان [٧] وزابلستان [٨] والأرضين التى خلف النهر الاعظم مما

---

(١) Lestrange يجعلهما من منطقة قباذيان وهو تحديد لا يتعارض مع دخول هذه المملكة في الحلف الطخاري ، ولكن انظر ابن الأثير : الكامل حـ ٤ ص ١٠٥ ، ١٠٧

(٢) اقرأ البلاذري : فتوح ص ٣٩٧-٣٩٨ تجد الروايات المذكورة توحي بتحديد خاص

(٣) ولوالج ترسم أيضا وروالج (الراء بدل اللام) وورواز (الزاي بدل الجيم) أما رسمها بالنون فى آخرها كما ذكر ياقوت فخطأ ، وتقع ولوالج علي مرحلتين من خلم .

(٤) اسكلكند : لم أهتد اليها .

(٥) ولم اهتد اليها كذلك

(٦) أبو حنيفة الدنيورى : الأخبار الطوال ، بغداد — القاهرة ص ٦١ ، ٦٩

(٧) يعني اقليم كابل وغزنة

(٨) زابلستان حسب Lestrange ص ، ٣٣ ، ٣٤٩ تقع بين أعالي نهر هلمند أو هندمند ونهر خواش الذى يصب فى بحيرة زاره . وفى شمالي زابلستان يقع اقليم الغور (والغور منابع انهار كثيرة تتجه الي الشمال نحو خراسان والى الجنوب نحو زابلستان .

يلى بلخ، ويذكرون من ملوكهم اخشنوار ووزر،وكانت لهم منعه وكثرة تحيف(١) »
وهو تحديد ساقه الدينورى عند كلامه على هرمز(٢) بن يزدجرد

ولكنا نترك تلك التحديدات القديمة و نعتمد علي التحديد الذى استخلصناه، ثم إن طخارستان تقلصت أمام سلطان العرب وفقدت كل نفوذها شرقى المرغاب(٣) وفقدت بلخ وانزوت شرقى بلخ وسمنجان(٤) وضاع نفوذها في صغانيان وشومان، واتخذ الختل موقفا أبلغ في المقاومة من باقى طخارستان نفسها ، وأصبحت مملكة جغوية تقتصر علي حوض جيحون الأعلى .

أما جنس الطخارية فلم تحدده النصوص العربية لأنها تذكرهم مرة علي أنهم أحلاف الهياطلة ولأنهم ينسبون أحيانا أخري إلى الخرلخية أو القرلقية،وهى نسبة لا يؤيدها مصدر آخر ، لأنا لا نسمع عن القرلقية إلا بعد ذلك بنحو قرنين (٥) ولعل تعريفهم بلهجتهم الطخارية أصح ما يقال عنهم .

ثم إننا نرى ممالك طخارستان بعد هذا التضامن منفردة يقوم كل إقليم منها بذاته ، ويكيف حسب استعداده الخاص موقفه من العرب ، ثم إن موقف العرب لم يكن واحدا بالنسبة لهذه الأقاليم جميعا .

(٣) أما مملكة الختل فانها تأخرت بالطاعة زمنا طويلا، وكانت أول الأمر من حلفاء طخارستان علي الأرجح ثم كانت بعد منفردة من أشد أعضاء الحلف الطخارى مقاومة للمسلمين ، ولا مفر من أن نلاحظ أن العرب طاولوا الختل حتي

---

(١) الطبري : تاريخ ح٢ ، ص ٩٩ (ط. القاهرة)

(٢) يدل هذا التحديد أولا على أن مملكة الهياطلة كانت أوسع من طخارستان كما عرفت قبيل فتوح المسلمين (ص٦١)

(٣) انضم الترك أول الامر للمسلمين وصالحوهم ثم انهم خافوا لما يرون من فتوح المسلمين كما يروى ابن الأثير ح٤ (ص ١١٤ سنة ٩٠) كأنهم لم يفطنوا للأمر منذ بدئه فلما فطنوا عمدوا الي العصيان ثم قمعت ثورتهم سنة ٩١

(٤) البلاذري : فتوح ص ٣٩٩

(٥) انظر مقالة بارتولد عن القراق ى دائرة المعارف الاسلامية

استيقنوا من عجزهم وانكسرت حدتهم بانتشار الاسلام بينهم ، وأن العرب تحرزوا من سبق الحوادث ومن التسرع وتجنبوا جرح كبرياء هذا الشعب .

وتقع أرض الختل بين نهر وخشاب وجيحون في أرض مرتفعة يتوسطها وادى نهر أخش ، ويقول لسترانج إن بلاد وخش منها ، وإنها تقع في أعلى الختل حيث ينبع نهر وخشاب

ويرجح لسترانج أن الختل هم الهياطلة وأن الاسمين متقاربان صوتيا ، وهو ترجيح متسرع بعيد لا يبرره إلا قلة ما تمدنا به المصادر من المعلومات عنهم (١)

ونستطيع أن نتقدم برأى في جنس الختل على أساس التجاء ملوكها إلى بلاد خاقان : وهو أن الصلة بينهم وبين ترك آسيا الوسطى صلة قرابة بين الشعبين كما سنرى بعد

(٤) أما الصغانيان من ناحية ، وشومان وأخرون من ناحية أخرى ،فهما البلدان اللتان اختلفتا فتسابقتا إلى العدو ، قتيبة ، وكان لهما بالمرصاد ، مصمما على إخضاع هذه النواحى ، يضع الخطط لذلك . فسارع إلي استغلال خلافهما ، فلم تكن إلا حملة يسيرة حتي خضع الجميع لسلطان الدولة الاسلامية ، أما ملك الصغانيان فانه تقدم بالهدايا ومفاتيح من ذهب ، أما ملك شومان فانه صالح علي فدية، وفي نفس الوقت استسلمت بلخ وهى مدينة طخارستان ومدينة النوبهار الذي كان يسدنه برمك ، جد البرامكة .

وهكذا كان أهل هذه الناحية من أسبق الولايات طاعة ، وكانوا من أكثرها وفاءا وخاصة صغانيان، ولم يلبث صاحب صغانيان، وصاحب شومان وأخرون (٢)

---

(١) Lestrange ص ٣٨ ه ١ .

(٢) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٨٦ ، ١٩٤ عام ١٠٤ ، ١٠٦

أن اشتركوا فى الحرب إلى جانب المسلمين .

وهكذا نجد هذه المنطقة تكاد تؤلف جماعة ذات مصالح مشتركة يتنازعون عليها وميول متقاربة . وهى منطقة يرويها نهران : أحدهما نهر صغانيان الذى يسمى أيضا نهر زامل ،وثانيهما نهر قباذيان، وكلاهما من روافد جيحون اليمني ، و كلاهما ينبع من جبال البتم ويجري عموديا تقريبا إلى جيحون ، وهي منطقة تستدير بظهرها إلى إقليم الصغد ، وليس بينها وبينه إلا طريق واحد مباشر هو طريق الباب الحديد الموصل بين ترمذ وسمرقند عن طريق الباب الحديد وكش . وفى أعالى هذه المنطقة أرض الختل وهى منفصلة عنها لأنها جميعا متوازية واقعة حول أنهار متوازية كافية أهلها عن الخلطة والاجتماع ، وإذا كان حقا أن هذه الأنهار تصب كلها فى جيحون فان جيحون يؤلف حدود هذه الأقاليم من الجنوب ثم إن العمران مقصور على أقاليم الضفة اليمني وحدها لأن الضفة الأخري تحف بالصحراء .

ومدينة هذه الناحية صغانيان والراجح أنها اليوم ساري آسيا(١) وتقع علي المجري الأعلى لنهر زامل .

أما شومان وآخرون (وقد اختلف رسم المدينة الأخيرة فصحفوا فى كتابة الخاء وقرأوها القراءات الممكنة) فانهما مدينتان خاضعتان لسلطان ملك واحد ، أما شومان فالراجح أنها اليوم حصار وتقع علي الحوض الأعلي لنهر قباذيان ، أما أخرون فقد أهمل الجغرافيون ذكرها فلم نستطع إثباتها فى الخريطة .

(٥) أما كش ونسف التي تسمى نخشب أيضا فانهما لا تكادان تتصلان بالعالم الطخارى الصغانياني الذي رأيناه، ولكنهما أقرب إلى بخارى وسمرقند وأكثر صلة بهما، وكان صاحب كش يستنصر بملك سمرقند كما يستنصر الضعيف بالقوى لا التابع بالمتبوع(٢)، وعندهما

---

(١) Lestrange ص ٤٤٠

(٢) ابن الأثير : جـ ٤ ص ٩٨ عام ٨٥

يبدأ الاقليم الذي حرص العرب علي إقرار سلطانهم فيه لأنه طريق من طرق الغزو الذى يستطيع ترك آسيا الوسطى البعيدون أن يتخذوه إلى أرض الاسلام ، لكن كش ونسف منحرفتان بعض الشيء إلى الجنوبى من هذا الطريق الأكبر، لهذا نجد قتيبة لا يتجه إلى هذه الناحية إلا سنة ٨٩ يعنى بعد أن ابتدأ عمليات الفتح بثلاث سنين (١) ثم إنه لا يتجه إليها إلا ليصل منها إلى إقليم سمرقند وبخاري .

(٦) ولننتقل بعد ذلك إلي أكثر الترك أهمية وهم أهل بخاري والسغد ، أهل سمرقند ، الذين حملوا اسم سجديانا القديم . وبلادهم تقع علي طريق آمل وهو أدني من طريق زم (علي جيحون) التي توصل إلى كش ونسف وأدنى كذلك من بلخ وترمذ اللتان تؤديان إلي صغانيان وشومان وآخرون ، وتقع بخارى والصغد فى أخصب بقاع ما وراء النهر ، وعلي أكبر طريق يؤدى من وسط آسيا إلى العالم الاسلامى، ونري لفظي بخارى والسغد متلازمين ، ولكن المراد بهما علي أى حال هو أهل بخاري وما حولها وأهل سمرقند وما حولها ، وكان لكل منهما ملك ، ملك بخارى ويلقب عادة ببخارى خُذَاه ، وملك الصغد ولا تجعل له النصوص لقبا آخر ، ولكنا نراهما دائما علي وفاق تام وعلي تساعد ، ومع هذا فانا نجد الصغد أشد مقاومة للعرب وأكثر تمسكا بالقومية التركية وأجلب للحرب مع العرب، ونجد ملك الصغد أبعد صوتا وأعلي قدرا بين ملوك ما وراء النهر عامة .

كش ونسف وبخاري وسمرقند مدن إقليم يكاد يكون واحدا متصلا . وتتألف وحدة هذه الاقليم من نهرين يقعان بين جيحون وسيحون : أحدهما نهر الصغد المعروف الآن باسم زرفشان وتقع عليه سمرقند ثم بخاري ، وتقع سمرقند علي ١٥٠ ميلا شرقى بخارى (٢) ، وعلي النهر الثانى تقع كش ثم نسف ولكن نهر الصغد كان

---

(١) نفسه حـ ٤ ص ١١٠ عام ٨٩

(٢) Lestrange ص ٤٦٣

أهم لوقوع مدن هامة عليه غير ما ذكرنا مثل بنجيكت وورغسر (أو رأس السد) والدبوسية .

(٧) وفى أدنى نهر جيحون يقيم ترك خوارزم ، فى أقصى الشمال الشرقى من الحدود الاسلامية جنوبى بحيرة آرال ، وملك هذا الاقليم يلقب بخوارزمشاه وعاصمته هزارسب ومدينة الفيل من أحصن مدنه (١).

(٨) ومن وراء جميع الترك الذين ذكرنا ، وعلى ضفاف سيحون نجد الممالك السيحونية وهى فرغانة بأخاشيدها ، وأشروسنة بأفاشينها ، والشاش .

أما فرغانه فتقع فى أعالى سيحون على ضفتيه ، أما الشاس فتقع أدنى منها علي الضفة اليمنى من النهر ، ويقابل الشاش علي الضفة اليسرى أشروسنة ، وقد عنيت روايات الطبرى بفتح فرغانة وأهملت فتوح الاقليمين الآخرين تقريبا ، ولكن هذا الاهمال يسير العاقبة لأن فتح فرغانة يفترض فى نفس الوقت فتح أشروسنة والشاش (٢) ، وتذكر مصادرنا أن العرب غزوا خجنده ثم كاشان عاصمة فرغانة ، ثم فتحوا اخشيكث وهي مدينة فرغانة القديمة (٣) وتذكر نفس المصادر من مدن فرغانة كاشان وأورشت ، وقد غزا العرب في نفس الوقت مدينة الشاش كذلك (٤) ولم يكن العرب أبطال هذه الحروب وحدهم ، فقد شاركهم الغزو أهل خوارزم وكش ونسف وبخاري والسغد وغيرهم من الترك .

ولكن موقف هذه الممالك السيحونية كان كموقف الصغد (بالصاد أو السين علي السواء) من حيث المقاومة الطويلة واحتضان المعارضة .

---

(١) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٢٥ / ١٢٦ عام ٩٣

(٢) الطبري : ج ٨ ص ٩٢/٩ عام ٩٤ ، ابن الأثير : ج ٤ ص ١٣١

(٣) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٠٥ عام ٨٦

(٤) لا يذكر شيء عن اشروسنه ولعلها سالمت دون حرب لأننا لابد أن نفترض ذلك لنسلم بايغال المسلمين الي الشاش

(٩) ومن ورائهم جميعا خاقان وهو لقب الملك الذي يحكم ترك آسيا الوسطى وهم في أقصي الشرق فيما يلي ما وراء النهر بعد نهر سيحون وما علي ضفافه من الممالك التي ذكرنا ، ولا تمدنا مصادرنا بشيء عن جنس هؤلاء الترك .

ولكن مصادرنا تعتبر هذه المنطقة البعيدة منطقة الترك ومنطقة الصين في آن واحد ، فمدينة كاشغر مثلا تعتبر « أدني مدائن الصين (١) » بمعني أن الصين تبدأ من الحدود الشرقية لما وراء النهر، ولهذا يعتبر ملك الترك في هذه النواحي أيضا ملك الصين ، ويتضح ذلك حين نجد إخشيد فرغانة يستمد ملك الصين فيمده بجيش يبلغ طراز فيلقاه هناك جيش إسلامي يهزمه . « فانهزم وهرب الفل إلى الصين (٢) » وإذا قيل أن ملك الختل هرب إلى الصين (٣) فمعنى هذا أنه قصد هذه الناحية .

ونجد خاقان أو ملك الصين يتدخل لنجدة ترك ما وراء النهر وصد العرب عن بلادهم، ولكنه ينيب عن نفسه في أكثر الأحيان فنجد مرة ابن اخته (ابن اخت ملك الصين) كورنغابون أو كور بغابون ، (ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٩ سنة ٨٨ في غزوة نومشكت) أو ابنه (سنة ٩٠ ص ١١٤ في فتح بخارى وسنة ٩٣ ص ١٢٦ مشتركا في الدفاع عن سمرقند مع الصغد وأهل الشاش وسنة ١٠٦ ص ١٩٤ مغيرا علي ما وراء النهر) أو ابن أخيه (سنة ١١١ ص ٢٠٦) أو بعض قواده ، مثل كورصول (وإن كان السرد بعد ذلك يذكر خاقان)، ونجد خاقان كذلك غازيا بنفسه (سنة ١١٢ ص ٢٠٨ / ٩ مهاجما سمرقند وسنة ١١٩)

ونفهم من المصادر أيضا أن ملك خاقان أو ملك الصين هذا كان ملكا موحدا . وكان أقوي من جميع ممالك ماوراء النهر، وتظل هذه الوحدة إلي أن يغدر كورصول فيقتل خاقان

(١) نفسه : ج ٤ ص ١٣٥ عام ٩٦
(٢) نفسه ج ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣
(٣) نفسه ج ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩ .

ويتشعب أمر الترك (١) فنجد كورصول يوصف بعد ذلك بأنه ملك من ملوكهم صاحب أربعة آلاف قبة ، ولا شك أن كورصول المقصود هنا هو نفس كورصول الغادر بخاقان لأن النصوص تقول ذلك صراحة (٢)، والراجح إذن أنه استقل بناحية وجماعة حين ضعف أمر الخاقانية .

أما ملك خاقان فلا نعرف حدوده

أما شعب خاقان فلا يسمى في مصادرنا باسم خاص (٣) ، غير أن هذه المصادر تقيم صلة بين ملوك الختل وبين الخاقانية ، وذلك أنها تروي أن خاقان أرسل إلى والي خراسان فى بعض حروبها رسولا ، فناداه « قد كان لك فيما وراء النهر مغزى، إنك لشديد الحرص، وقد كان عن الختل مندوحة، وهى أرض آبائي وأجدادى (٤) » وهى صلة تتأيد كذلك من ناحية أخرى ، فان بيت الملك في أرض الختل كان يجعل من الصين مأواه ، فان ابن السبل كان هرب الصين فى حياة أبيه لسبب نجهله ولا يهمنا أن نعرفه الآن ، فلما مات أبوه أوصى أن يسترد ملكا على الختل (٥) ولكن إثبات هذه الصلة وإن كان هاما فى ذاته لا يقدم شيئا في تعريف هذا الجنس التركي الواحد المقيم في أرض الختل وفى وسط آسيا .

ومهما يكن من شيء فان ترك الخاقانية أو الصين كما يسمون أحيانا كانوا عنصرا هاما فى تكييف السياسة فيما وراء النهر لأنهم أعانوا ملوكه أكثر من مرة ولم يقتصروا علي ذلك ، فانهم طمعوا في طرد العرب من وراء النهر كله، وفى طردهم

(١) ابن الاثير : حـ ٤ ص ٢٢٨ عام ١١٩
(٢) نفسه : حـ ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١
(٣) يقول بارتولد ان خاقان هذا هو خاقان الترك الغربيين (بالنسبة للصين حسب الاصطلاح الحديث) وهم ترك التركش المعروفون باسم أون أوق أى السهام العشرة نسبة لعدد قبائلهم ، وان عاصمتهم على نهر جو ، ويفترض انها تسمي نواكث
(٤) نفسه : حـ ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩
(٥) نفسه : حـ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩

من خراسان كذلك ، فان بعض سلالة يزدجرد كان فى حاشية خاقان حين هاجم العرب سنة ١١٠ (١) وكان خاقان يدعو العرب فيما وراء النهر أن يدخلوا فى طاعته علي أن يضاعف لهم العطاء ، وكان سليل يزدجرد يقول « يامعشر العرب ، لم تقتلون أنفسكم ، أنا الذي جئت بخاقان ليرد إلي مملكتى ،وأنا آخذلكم الأمان» .

* * *

— ٢ —

سياسة فرض الحلف والاضطلاع بحماية الحلفاء (إنشاء الحاميات)

أول ما يجب أن يقال عن ممالك ما وراء النهر أن فتح المسلمين إياها لم يخضعها لأحكام الاسلام السياسية ، وأنها لم تصبح بمجرد الفتح بمنزلة خراسان والعراق والشام ومصر . وإنما كان مثلها مثل أرمينية فى أن كل طرف من هذه الأطراف اعترف بسلطان الاسلام وظل محتفظا بأربعة أشياء : بجيوشه وإدارته ورؤسائه وحريته الدينية ، واحتفظ لذلك ببعض شخصيته السياسية المستقلة ، ودفعته هذه الشخصية إلى نقض الحلف وخلع سلطان المسلمين أكثر من مرة .

وكان أشد ما تحرص عليه الدولة الاسلامية طاعة هذه الأقاليم وإنشاء الحصون والحاميات لحماية الحلفاء ، لما فى ذلك من حماية فعالة لأرض الاسلام .

ونرى من هذين المثلين أن الاسلام حرص علي إحاطة نفسه بدول صديقة حليفة . وسعى إلى هذه الغاية بالسياسة والسيف معا .

وقد نجحت سياسة الحلف هذه مع الأتراك نجاحا عظيما لم يتهيأ مثله فى أرمينية وأخذت الفروق بين الحليف القوى والحليف الضعيف تزول شيئا فشيئا إلى أن أصبح الترك عنصرا هاما في الدولة وأصبحت بلادهم سدا منيعا في وجه من وراءهم من الأتراك غير المسلمين ، بل أصبحت منطقة وسطى ينزلها الترك فيستحيلون

---

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٠٤ عام ١١٠

فيها إلى رعايا مسلمين . وقد ارتسمت هذه السياسة أيام الأمويين ، ونمت واتسعت أيام العباسيين الأوائل لغلبة الروح الاسلامية على سياستهم . وجنى الاسلام من وراء ذلك ثمارا نظن أنها إذا أخذت جملة كانت خيرا للدولة الاسلامية .

***

لم يكن إقليم ما وراء النهر يخضع إذن لسلطان واحد ، بل كان ممالك عديدة تتضامن في بعض الأحيان وتفترق في كثير من الأحيان ، ولم يكن هذا الحال المفرق مما يحصنهم من العرب .

وقد كان من مرونة السياسة العربية ومن قلة خطئها أن تحاشت في أكثر أمرها العنف الجارح للعزة ، الباعث على التضامن فى المقاومة .

ولم تكن طاعة هذه الممالك للعرب بدرجة واحدة ولا فى وقت واحد . فالى هذه البلاد التي أقر المسلمون فيها حامياتهم وغزوا ما وراءها : كانت توجد بلاد أخري يكتفي العرب فيها باقرار تفوذهم ولا يغزون ما وراءها ، ولا يحرصون إلا علي طاعتها هى ، وسبب هذا التفريق هو أن العرب كانوا يخشون من وراء الطائفة الأولى ولا يخشون من وراء الأخرى ولا يتوقعون منهم الغزو أو التعرض لبلاد الاسلام .

وقد خدعت هذه الأحوال بعض الممالك فقبلت نفوذ العرب ، ولو كان احتلالا ما قبلته فى سهولة ، فلما حول العرب نفوذهم احتلالا ، كانت هذه الممالك قد تأثرت بالاسلام وتهيأت للاحتلال .

بدأ خضوع طخارستان للمسلمين أيام فتوح قتيبة فقط . وقبل جبغوية عنده عاملا عربيا . ولم يكن هذا العامل يعتمد علي جيش عربي مقيم بالناحية ، وإنما كان اعتماده علي هيبة الاسلام وعلى الحلف الذي يربط هذه المملكة بالاسلام، واشترك الطخاريون ونيزك خاصة فى الغزو مع المسلمين (١) ، فلما رأت طخارستان من فتوح

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ١١٤ عام ٩٠

العرب فى ما وراء النهر ما هالها خشيت علي نفسها، وكأنها لم تكن فطنت إلى عواقب الحلف . فثارت أول مرة عام ٩٠ ، أيام قتيبة ، ولكن المسلمين فرضوا عليها حلفهم ، واحتلوا مدينة بلخ ، وقبل الطخاريون الحلف الذى خافوه وثاروا عليه من قبل . فلما كانت غزوة خاقان الكبري عام ١١٩ ، نزل خاقان في بعض حروبه(١) عند جبغويه ، فلما انتهت الغزاة وبعد الخطر الخاقاني عادت طخارستان إلى الطاعة ، ورأينا فيها جاليات عربية ، فقد كان بها عام ١١٩ بطون عربية من تغلب ناصرت الحارث بن سريج(٢) وكانت قائمة يومئذ فى «قلاع طخارستان العليا» ، وكان بها كذلك فى أيام المنصور جند إسلامى أيام ثورة استاذ سيس(٣) ، وهكذا تحول النفوذ احتلالا . ولكننا لا نجد العرب يحاولون غزو مَنْ وراء هذه المملكة .

أما الختل ، وهم الوحيدون الذين بالغوا فى الاعتزاز بقوميتهم فى هذه الناحية، فان العرب ظلوا يغزونهم ويقبلون منهم الطاعة الاسمية أحيانا ، ويبادونهم الحرب أحيانا . ولم يقصروا فى انتهاز الاضطرابات الداخلية . فان والي خراسان احتج علي ملك تولى أمر هذه البلاد بأنه ليس من بيت الملك ولا صاحب حق فى ولاية الأمر . ولعل هذا التحاج هو الذي أعاد علي الختل أحد أبناء بيت الملك (أسد بن عبد الله بن خالد القسرى حاج بذلك بدر طرخان(٤))

فان كان المسلمون غزوا الختل قبل أزمان الفتوح ، فانهم كادوا يهملونها أيام قتيبة، دليل ذلك أن قائدا يسمى عطاءاً لقب بالختلي فى أيام معاوية (وهو تلقيب يدل على غزو الختل في هذا الوقت المبكر وعلى موقفها المنذر بالخطر) . ولا يضع من قيمة هذه الحجة أن لقب الختلي إنما هو قراءة خاصة ، وأن طبعة البلاذري المصرية

(١) نفسه ج ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩
(٢) نفسه ج٤ ص ٢٢٥ عام ١١٨
(٣) نفسه ج ٥ ص ٢٩ عام ١٥٠
(٤) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩

تلقبه بالخشل بالشين المثلثة ، فهو تلقيب غير مفهوم لا معنى له ولا ينطبق علي قائد من القواد ذى بلاء لا ينسب إلي ضعف أوتـطامن ليكون خشّلا كما قرأ القارئون ، ثم إن بعض قناطر قريبة من أرض الختل وبلخ منصوبة على جيحون تنسب إلى عطاء هذا[١] . أما قتيبة فانه حين بدأ فتوحه لم يعرض للختل ولا لأرضهم ، حتى تمت فتوح ما وراء النهر دون أن يلتفت المسلمون إلى هذه النـاحية أو يتعرض لهم الختل ، فلما تم ذلك واستقر المسلمون فى نواحي بخاري وسمرقند أخذوا يغزون الختل ، وكانت مغازيهم بها حـول سنة ١٠٠ وسنة ١٠٨ وسنة ١١٥ ، فكانوا يرجعون بالغنائم والسبي[٢] وكان ملـكها أكثر الملوك محاربة للمسلمين[٣] . ثم كان غزو خاقان فاجتاز نفوذ المسلمين في أرض الترك أزمة خطيرة لم تنته حتى انتهت معها كل مقاومة في جميع ما وراء النهر تقريبـا ، فرجع ملوك الختـل إلى خطة أحكم وأجدى من الناحية العملية وهى خطة المدافعة والخضوع معا ، وهى خطة رسمها لهم ملوكهم، قالوا: «لا تحاربوا العرب وادفعوها عنكم بكل حيلة...وإنكم إن حاربتوهم هلكتم»[٤] . وقد عرف العرب من ملوكهم السبل ثم ابن السايجي ثم بدرطرخان ، وكان رجلا من الباميان بلغ الملك[٥] ثم الحنيش بن السبل[٦] . وكان حنيش متصلا بترك آسيا الوسطى الذين يسمون بالصين أيضا ، لجأ اليهم أيام أبيه لسبب لا نعرفه، ثم لجأ إليهم مرة ثانية حين احتل العرب بلاده .

كانت إذن للعرب سياسة خاصة ولملوك هذه الناحية سياسة خاصة ، وكان من

(١) البلاذري ص ٤٠٠
(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٥٨ عام ١٠٠ ، ص ١٩٨ عام ١٠٨ ، ص ٢٣٠ عام ١١٩ ، ص ٣٤٢ عام ١٣٣
(٣) ج ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩
(٤) نفسه
(٥) نفسه : ج ٤ ص ٢٣٣ عام ١١٩
(٦) نفسه : ج ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣

أدواتها كذلك الجيوش فى وقت واحد ، وقد تأخر لذلك احتلال هـذه البلاد (أرض الختل) إلى أيام أبي مسلم فانه وجه إليهم أبا داود خالد بن ابراهيم فدخلها (قادما من الوخش اليها[١] عام ١٣٣) ، ولم يستطع ملكها حنيش بن السبل إلا أن يتحصن «هو وأناس من الدهاقين» و «شاكريته» . فلما يئس خرج بمن معه إلى فرغانة ثم دخلوا منها «إلى بلد الترك وانتهوا إلى ملك الصين» ، وإنما هرب إلى فرغانة أولا لأن مدداً صينيا (أو قل تركيا) كان بها يعين إخشيدها على ملك الشاش[٢] . وقد كان حنيش هرب إلى الترك من قبل أيام أبيه[٣]. ولم تقم لهؤلاء الختل بعد هرب حنيش قائمة ، ولم تسمع المعارضة عن نفسها شيئا ، ومكن لسلطان المسلمين بالبلاد ، وهكذا اكتفى العرب فى هذه الناحية بالنفوذ البعيد والمطاولة، إلى أن أداهم هذا الطريق إلى إخضاع البلاد إخضاعا تاما واحتلالها .

ولم ينج صغان خداه من غزو العرب واحتلال بلاده إلا لأنه وفد على قتيبة بالطاعة وبمفاتيح من ذهب . فكفى العرب كل حيلة ولم يضطرهم إلى احتلال البلاد ولم يغدر قط في المناسبتين اللتين غدر فيهما كل ملوك ما وراء النهر : حين ثارت طخارستان وتحرك السغد بين ٩٠-٩٢ هـ ، ولا حين أغار خاقان حول ١١٩ هـ على ما وراء النهر وخراسان وابتأس الناس بمكانه ولم يدر جند المسلمين ما يفعلون. فكان أهل صغانيان فى هذا الموقف الأخير الحرج يشدون أزر الوالي ويتقهقرون معه كما تقدموا معه من قبل[٤]

أما ملك شومان فانه اغتر بنفسه وأبى إلا العصيان في المناسبة الأولى . فلما

---

(١) الطبرى : جـ ٩ ص ١٤٨ عام ١٣٣
(٢) ابن الاثير : جـ ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٣
(٣) نفسه : جـ ٤ ص ٢٣٠ عام ١١٩
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ٢٢٦ عام ١١٩

حورب قاتل حتي قتل . واستقادت بلاده للمسلمين من بعده استقادة لم تحوجهم قط إلى العودة(١).

أما عن إقليم كش ونسف وبخارى والسغد ، فاننا ، إذا صرفنا النظر عن العلاقات اليسيرة بين ملوك هذه الناحية والعرب قبل عهد قتيبة ، وجدنا العرب فى عهد هذا القائد يحاولون فتح هذه الناحـية ويقصدون بخارى وهى أقرب المدينتين إليهم ، فتستعصى عليهم استعصاءا شديدا و يُحصرون شهرين . وإنما نشير إلى حملة ٨٧ . ولـكن العرب يعودون إلي منطقة بخارى مرة ثانية وثالثة ولا يبلغون بغيتهم، وهى أخذ بخارى، إلاقى الحملة الرابعة سنة ٩٠ ، ولا يظفرون في هذه المرة أيضا إلا بعد حرب قاسية ، صبروا لها هذا العام خاصة كما صبروا فى الأعوام الأخري(٢) . وعاونهم فيها نيزك صاحب باذغشان عبد جبغويه ، بينما كان الصغد يعاونون بخارى خداه (واسمه وردان) . (ويذكر النص أيضا خاقان : وهو لقب مخصـوص بملك الترك البعيدين ، وليس فى سياق النص ما يبرر تدخله بصفة قاطعة لأن النص يعتبر مضطربا مقتضبا).

فنية الفتح ظاهرة لا شك فيها محدودة بزمان معين ومنصبة على هـذا الاقليم خاصة من أقاليم ما وراء النهر . وقد رأينا العرب يحجمون عن فتـح بعض النواحي الأخرى أو يكتفون في بعضها بالولاء ويقتصرون على إقرار هيبتهم . وقد رأينـاهم قبل عهد الفتح يقومون بالحملات المتباعـدة غير المتلاحقة التى لا يراد منها إلا إثبات اليقظة والحذر وإظهار القوة . وها هم الآن يحرصون على التسلط على الطريق الحربى لمنع من يسلكه من الغزاة من تهديد أمن العرب .

وكان من نتيجة انهزام بخارى أن وقعت هيبة للمسلمين فى قلوب الصغد فطلب

(١) نفسه : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١
(٢) نفسه : ج ٤ ص ١٠٧/٨، ١٠٩٦، ١١٠٦، ١١٣٦ : حملات ٨٧ ، ٨٨، ٨٩٦ ، ٩٠

ملكهم ، وكان يسمى طرخون ، أن يصالح على فدية . فأجيب إلى ذلك (١). واعتبر هذا الصلح تجديدا لما كان قبل من سلام بينه وبين المسلمين (٢)، ولكن دوره كان فى حقيقة الأمر قريبا ، لأن زمن السلام كان من أصول السياسة القديمة السابقة على قتيبة .

ولعل طرخون كان محقا حين سالم . والراجح أنه كان أنفذ من رعيته وأشرافه بصيرة لأنه قدر من قوة الاسلام ومضاء عزمه ما لم يقدروا . ولكن أهل سمرقند أخذتهم العزة واستضعفوه واتهموه بالخنوع والتهيب ، فعزلوه وولوا ابنه غوزك سنة ٩١ (٣) . وكذلك اجترأ فى نفس الوقت أهل شومان وكش ونسف واستشفت البلاد عن حركة معارضة كالحركة الطخارية التى بدأت سنة ٩٠ واستمرت سنة ٩١ . وكان لهذه الحركة أن تستفحل وأن يستطير شررها ، لولا يقظة المسلمين وتطواف جيوشهم مرة واحدة بشومان وكش ونسف ، ولولا غزوهم سمرقند نفسها سنة ٩٣ . فانه لم يغب عنهم أن عزل طرخون كان تحديا .

فعاد المسلمون إلي مدينة الصغد ليردوها إلى الحلف وليجزوها على الغدر ، والواقع أن قتيبة قال لجنده حين عزم على قصد سمرقند فجأة . «إن الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذى بيننا وصنعوا ما بلغكم » وقد عاون المسلمين أهل بخارى وأهل خوارزم ، وحاصر جميعهم سمرقند أشهرا ، ونصبوا عليها المجانيق، حتى أحدثوا فى سورها ثلمة، فصالحهم غوزك ، وكان غوزك يظن أن الجند لا تقيم فى مدينته . ولهذا كان فقهاء الناس يقولون غدر قتيبة بسمرقند .

ولم يغن عن سمرقند استغاثتها بمن وراءها من الترك ، فان الصغد كتبوا إلى ملك الشاش وخاقان وأخشاد فرغانة ، ولا ندرى لم لم يستغيثوا أيضا بأفاشين

(١) نفسه : ح ٤ ص ١١٤ عام ٩٠
(٢) الطبري : ج ٧ ص ٦٩ عام ٩٠
(٣) ابن الاثير : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١

أشروسنة لتتم لهم الاستغاثة بكل من وراءهم. وقالوا «إن العرب إن ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به ، فانظروا لأنفسكم ، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها (١) وتحركت النجدة ولكنها لم تصل إلى سمرقند ، وهزمت دونها شر هزيمة. وهكذا كان السغد على يقين من نوايا العرب يعلمون أنهم يريدون فتح البلاد .

وإنما خضع السغد للقوة ولم تستسلم قلوبهم ، ولهذا ظلوا يبدون من المقاومة ما أقلق العرب ، ولكن السغد سالموا أول الأمر وسالمهم المسلمون ، فدعاهم عمر بن عبد العزيز إلى الاسلام فيمن دعا من ملوك ما وراء النهر (٢) . فأسلم بعضهم ولم تحدد المصادر هذا البعض . ولكن هذه الدعوة فى ذاتها كانت مسالمة باعثة على الاطمئنان والتراخى فى المقاومة . ولعل أهل سمرقند ظنوا كذلك أنهم يجدون من الخليفة عمر سميعا عادلا ، فشكوا إليه احتلال سمرقند غدرا (٣) . ولعلهم لم يجدوا من عدله متسعا يرضونه . ولم تلبث الأمور أن ساءت لأن الاحتلال الجديد جرح اعتزاز السغد بأنفسهم . فأخذ السغد ينتهزون الفرص لتحرير أرضهم . ولم تكن الفرص قليلة . فان الفتوح لم تكد تتم حتي كانت فتنة قتيبة . ثم تلا ذلك فتنة ابن المهلب ثم ولي خراسان وال استضعفه الناس ، « فطمعت الترك ، فجمعهم خاقان ووجههم إلى الصغد ، وعلي الترك كورصول »، فأقبلوا حتي نزلوا حصون المسلمين فيما وراء النهر (٤) ، فاضطر المسلمون أن يتراجعوا عنها إلى سمرقند (٥). وهكذا نقض السغد العهد ، وتعاونوا مع الخاقانية علي المسلمين ، ولجوا في النقض، ولم يترددوا حين توقعوا الهزيمة أن ينزحوا عن ديارهم إلى من وراءهم من الملوك . وظلت الحرب قائمة بينهم هم ومن ساندهم ، وخاصة خاقان ، وبين المسلمين إلى عام ١١٩ لم تكد

---

(١) نفسه : جـ ٤ ص ١٢٦ عام ٩٣
(٢) البلاذرى : ص ٤١٥
(٣) نفسه : ص ٤١١
(٤) ابن الاثير : جـ ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢
(٥) نفسه : جـ ٤ ص ١٧٩ عام ١٠٢

تنقطع إلا بالدعوة للاسلام مرة أخري عام ١١٠ (١) وإلا بسياسة المطاولة وتجنب حرب الابادة من جانب العرب (٢) . ومع ذلك فان المقاومة لم تنقطع انقطاعا تاما رسميا إلا سنة ١٢٣(٣). بعد ابتدائها بعشرين عاما ، وبعد أن لقى المسلمون من شدة لا يصورها إلا ابتهاج الخليفة هشام عندما أتاه البريد بقتل خاقان ،وكان سند السغد الأكبر، أتاه رسول الوالي من خراسان بالنبأ فلم يصدقه ، ثم قدم مبشر آخر « فوقف علي باب هشام وكبر ، فاجابه هشام بالتكبير ، فلما انتهى إليه أخبره بالفتح فسجد شكرا لله تعالى » .

وهكذا نجد الدولة الاسلامية تتبع مع هذه الناحية سياسة واضحة لاشك فيها ، ولا تنكص أمام ما تتطلبه هذه السياسة من جهود وأعمال حربية ، ولا تتورط فى طريق العداوة إلى إبادة أعدائها العصاة وتخريب أرضهم : ولم يكن العرب يكبحون هذا العصيان بالسيف وحده ، ولكنهم كانوا يعرفون الطرائق السلمية السليمة التي تقوم مقام السيف . فانهم إن عدوا عزل السغد صاحبهم غدرا يستوجب عليه السغد العقاب : فانهم حرصوا من ناحية أخري على أن يعزلوا بخارى خداه ليقيموا بخارى خداه آخر حدثا، «وقتلوا من يخاف أن يضاده » ،(٤) ليكون هذا الملك من صنائعهم.

ولم يقتصر العرب على هذه المناورات السلمية أو الشبيهة بالسلمية بتعبير أدق ، فان حامياتهم لم تلبث أن استقرت فى نواحى الصغد وكش ونسف ، علي حين اكتفى العرب باثبات هيبتهم وبالطاعة البعيدة فى النواحى الأخرى ، فانهم حرصوا هنا علي تأييد سلطانهم بالحاميات لأنهم وجدوا من وراء هذه البلاد من يعاونها

---

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٠٢/٢٠٥ عام ١١٠
(٢) نفسه : ج ٤ ص ١٧٩/١٨٠ عام ١٠٢
(٣) نفسه : ج ٤ ص ٢٥٠ عام ١٢٣
(٤) نفسه : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١

وينازع العرب عليها، فاتخذ العرب هنا قصر الباهلي(١) وقصر الريح(٢) وكرجة(٣). ومن وراء هذا الخط الدفاعي الواقع وراء نهر الصغد أقيم خط آخر من الحاميات المتحصنة مؤلف من سمرقند والدبوسية وبخارى، ثم حصن آخر من وراء هذه الحصون كلها هو الباب الحديد(٤) المتحكم فى طريق ترمذ ـ سمرقند ماراً بكش. وكانت حامية الدبوسية(٥) تبلغ عشرة آلاف مقاتل فى سنة ١١٠. ولم تكن حامية سمرقند

(١) قصر الباهلي : هوجم سنة ١٠٢ وكان به حامية عربية ، منهم جماعة من باهلة فى مائة أهل بيت بذراريهم وكانوا ساعة الهجوم ينتظرون المدد من سمرقند ، فلما ارتدوا كان ارتدادهم الى سمرقند ، ولهذا يجب أن يوضع قصر الباهلي فى شرقي سمرقند علي مسافة بعيدة بعض الشيء لا تقل عن اربع فراسخ كما يدل السرد (ابن الاثير ج ٤ ص ٩/١٧٨ عام ١٠٢) ولم يورد لستراتيج في كتابه لهذا الحصن ذكرا.

(٢) قصر الريح علي فرسخين من الدبوسية وقد نزلته بعض الغزوات فى طريقها الي خجنده (ابن الاثير : ج ٤ ص ١٨٤ عام ٢٠٤ البلاذرى ص ٤١٧) ولم يورد لسترانج في كتابه لهذا الحصن ذكرا.

(٣) كمرجه : من أعظم بلاد خراسان كما يقول ابن الاثير وليس المقصود من هذا التعريف أن الحصن يقع فى اقليم خراسان نفسه . وانما هي فيما وراء النهر لأن حاميتها تراجعت الي الدبوسيه وسمرقند ، ولست أدرى أين يجب وضع الحصن بالضبط ، ولكن يكفي في الدلالة علي أهميته أن حاميته ثبتت للحصار ٥٨ يوما . وأنها لم تسق ابلها ٣٥ يوما (ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٠٤ /٥ عام ١١٠) ولا يورد لسترانج لهذا الحصن ذكرا ، وقد نستطيع أن نعترض قياسا علي ما قال لسترانج عن مدينة بكرمان ، أن كمرجه كان حصنا تجاريا على الحدود وأن اسمه جاء من اليونانيه κουμέρκι ولكنه فرض لا يؤيده شيء اطلاقا ، الا التوافق الصوتي بين اللفظتين وهو توافق لا يعتبر حجة حاسمة ما لم نعرف أصله التاريخي .

(٤) الباب الحديد وترسم الكلمة بالحاء المهملة فى الطبري وبالجيم المعجمة فى ابن الاثير وليس في السرد ما يحدد المكان (ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١)، الا أن الوصول اليه من ناحية بلخ ، وهنا يسعفنا بالمدد لسترانج ومصادره الجغرافية، فيقول ان المدينة تسمى بالفارسية دربند آهنين وانها تقع فى وادى عميق منحوته فى أرض مرتفعة فهي ممر ذو أهمية استراتيجية (Lestrange ص ٢/٤٤١) وكان هذا الممر طريق التجارة أيام تيمور ، وقد أظهر نصر حرصه علي أمان هذا الطريق فغزا منه سنة ١٢١ . ومعنى هذا أن هذه الناحية كانت قاعدة للغزو .

(٥) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٠٥ عام ١١٠ .

أقل منها عددا . فان ندبة خرجت من حاميتها فى بعض الحروب بلغت ٤ آلاف[١] وكانت بخاري قاعدة حربية تقيم فيها حامية كبيرة من جند المسلمين . وكان الباب الحديد طريقا حربيا قريبا إلى سمرقند .

ومعنى هذا أن إقليم بخارى والصغد بما فيه كش ونسف إلى الباب الحديد، كان أهم منطقة دفاعية. وتلك حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها ولا إلى إهمالها . أما الممالك التى تجاور هذا الاقليم عن يمين وشمال فهى خوارزم من شمال وصغانيان وشومان والختل وطخارستان من يمين ، وهى أقاليم لزم بعضها الوفاء مثل خوارزم وصغانيان وشومان ، أو أقاليم لم تنل من العرب الاهتمام الأول فلم يسارعوا إلى وضع حاميات فيها ولم ينشطوا للغزو من نواحيها لأن الخطر منها إقليمى يسير ،

وهكذا ترى المسلمين يعاملون ملوك هذه النواحي معاملة مختلفة، ويجعلون لكل ناحية موقفا شرعيا خاصا يتفاوت بتفاوت المصالح التى يريدون تحقيقها فهؤلاء أهل عهد وهؤلاء أهل موادعة ، وأولئك أهل ذمة . ولم يزيدون على ذلك ، إذا كان غرضهم قاصر الحلف وحماية الطريق الاستراتيجى ؟

— ٣ —

سياسة إشراك الترك في حماية الحدود

ولم تتبع الدولة الاسلامية مع هؤلاء الملوك سياسة الحرب التى اتبعتها مع الروم في غير هوادة ، فان مثل هذه السياسة الغالية تفترض أن لا سبيل للتفاهم مع العدو إما لتمسكه بدينه تمسكا لا مطمع فيه ، وإما لثبات دعائم حكومته ثباتا لا يطمع العرب فى تقويضها . وإنما اتبع المسلمون هنا إلى جانب السياسة الحربية سياسة التعاون :

(١) ابن الاثير : جـ ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢

لأنهم أحسوا إحساسا داخليا غامضا أن دين الترك ضعيف أمام الاسلام ، ولأنهم رأوا أن الاستيلاء على دول الترك أمر ممكن . ويظهر هذا التعاون في إشراك الترك في الجهاد إشراكا مستمرا يدل باستمراره علي أنه كان سياسة مرسومة . وقد كان الروم كذلك يشركون جيرانهم المطبوعين على الحرب فى حروبهم : لكيلا يحرموهم من ميل طبيعي جبلوا عليه ، دون نظر إلي دينهم ولا إلي جنسهم ، فان من الشعوب من لا يتنازل عن الحرب فى سهولة ومن يسدد إليك سهامه إن لم توجهها وجهة أخرى : لتكون حربا علي غيرك لا عليك ، والراجح أن هذه الحقيقة لم تغب عن فطنة العرب ، فأشركوا الترك فى غزواتهم ضد الترك ، واستغلوا بهذا سيوفا كانت جديرة بأن ترفع علي رؤوسهم . وتخففوا من بعض الأعباء .

والواقع مع ذلك أن هذا الاشراك كان ضروريا لأن العبء الملقى على الجيش الاسلامى كان فوق ما يحتمل . فان المسلمين لم يكونوا يجرأون علي عبور النهر إلا فى عدد كبير ، فجرت عادة ولاة خراسان أن لا يضعوا أقدامهم على الضفة اليمنى لنهر جيحون إلا في خمسين ألفا من المقاتلة ، وجرت عادتهم كذلك أن لا يمر عام بدون غزاة[1] إلا أن يمنعهم من ذلك مانع جسيم . لا يرون بدا من هذا الغزو المستمر فى العدد الكثير . وهم مع ذلك إنما يردون أرضا صالح أهلها ووقعت هيبة الدولة في نفوسهم وقامت حاميات المسلمين في حصونهم . وذلك أن المسلمين كانوا بازاء عدو حرب لدود لا تنفد حيله ولا تبارى مهارته ، فقد كان قدامى الجند يقولون «إن الترك ليسوا كغيرهم ، لا يلقونك صفا ولا زحفا .. وإنما يظهرون فجأة كأنما نبتوا من الأرض وجاءوا من كل وجه» . ولهذا كان من حسن الرأي أن « صاحب

(١) في سنة ١٠٩ (ابن الأثير ج٤ ص ٢٠٠) الحكم بن عوانة الكلبي أقام صيفية لم يغز ، فعني المؤرخون بتسجيل ذلك . وعير الناس سعيد خذينة بأنه ترك الغزو سنة ١٠٢ (ابن الأثير ج٤ ص ١٧٩) . وكذلك لاموا عاملا لم يغز عام ١١٧ (ابن الأثير : ج ٤ ص ٢٢١).

خراسان لا يعبر النهر — جيحون — في أقل من خمسين ألفا[١]» .

وقد كان من أنفع الأشياء إذن أن يشرك المسلمون الترك . فهم أعرف بالأرض وبحيل الترك ولغاتهم وطبائعهم .

ولكن السبب القوي للاشراك فيما أعتقد : هو أن المسلمين كانوا يؤثرون أن يسالموا هؤلاء الناس وأن يستميلوهم إلى جانبهم وأن يقيموا بين جندهم جميعا أخوة حربية ، ويتوقعون من وراء هذه الوسائل خيراً للاسلام نفسه ، وما دامت الخطة تؤدي إلى عز الاسلام فهي الخطة التي كان يحرص عليها أصحاب السياسة في ذلك الزمن . فقد كان « إعزاز الاسلام » صيغة من الصيغ التي تعبر عن أهداف السياسة في ذلك الوقت . فترددت في كتب المؤرخين وقصائد الشعراء .

فلم يكن العرب يلجأون إلى السيف إلا حين تضيق بهم الحيل ، فاذا استعملوا السيف حرصوا على أن لا يبيدوا العدو .

فقد آثر قتيبة طريقة الحلف : مثل حلفه مع نيزك على ألا يدخل أرضه (إبن الأثير : ج ٤ ، ص ١٠٧ عام ٨٧) وآثر قتيبة اصطناع الملوك (فملك حدثا على بخاري : نفسه : ج ٤ ، ص ١١٨ سنة ٩١) واستغل كذلك الخصومات الداخلية ، فانتفع من الخصومة بين ملك صغانيان وملك شومان ، واستغل الخصومة بين خوارزمشاه ومنافسيه[٢] ، وآثر المفاوضة مع العصاة ليستجلبهم باللين قبل أن يجبهم بالحرب : كما فعل مع ملك شومان حين عصى : فأرسل إليه رسولين فقتل أحدهم ونجا الثاني[٣] فلم يغضب ولم يجمح ، وإنما أرسل أخاه ليستميل الملك ، وهكذا

---

(١) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٠٩ عام ١١٢

(٢) نفسه : ج ٤ ص ١٢٥/١٢٦ عام ٩٣

(٣) نفسه : ج ٤ ص ١١٨ عام ٩١

فعل ولاة الثغر بعد قتيبة ، وقد كان من الجند من يحب هز السيوف وإحكام القتال والنيل من العدو ، ويستضعف هذه السياسة العليا الحكيمة التي يتبعها ولاة خراسان، ومن ذلك أن أحد ولاة خراسان أمر الجند بالابقاء على الصغد وذكرهم بما يكون بين قبائلهم أحيانا وبين الخلافة من حروب لم تصل إلى الابادة . قال : لا تتبعوهم فان السغد بستان أمير المؤمنين ، وقد هزمتموهم ، أتريدون بوارهم ؟ وقد قاتلتم ياأهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم» . أما الجند فكانوا لا يرون إلا أن الثوار «عقيرة الله»(١).

وإنما نشير إلى سعيد خذينة والى خراسان وسياسته اللينة وجلبه على نفسه لذلك سوء الذكر بين الناس . فان الذكر الحسن والصيت البعيد كان من نصيب الوالي المظفر الذى تدر غزواته الثروة على الجند . أما هذا : فانه كان يرد الغنيمة ويعاقب السرية إن بالغت في الحرب . وكذلك آثر بعض الولاة حبا فى السلم أن يقبلوا من شروط الصلح مع الترك ما لم يكن يقبله المسلمون عادة من عدم عقاب المرتد مثلا . وكذلك لم يتمسك الولاة بالسلطان التام فى كل مكان إلا بالقدر الذي يضمن أمان الثغر . وقبلوا كما رأينا أن يتفاوت سلطانهم علي ما وراء النهر فهم قد أدركوا أن ظل السلطان يثقل علي الشعوب . ولهذا كله نعتقد أن المسلمين إنما أشركوا الترك في حربهم إيثارا للمسالمة وطمعا فى إعزاز الاسلام عن هذا الطريق . فلم يتشددوا فى معاملة الترك ولم يكلفوهم مالايطيقون من تطليق طبيعتهم المجبولة علي الحرب ، ولم يأخذوهم بشرائط الجزية الدقيقة ما داموا يستطيعون أن يستعيضوا عنها بماتبذله لهم سيوفهم وببعض إتاواتهم ، ولم يأخذوهم بالاسلام الذى لا يعرف الردة ما دام الترك لا يفرقون بين الاسلام والطاعة : إن ذهب أحدهما تبعه الآخر ، ولعلهم وثقوا بالزمن وانتظروا من المسالمة فوق ما كان لهم أن ينتظروا من السيف .

(١) ابن الأثير : ج ٤ ص ١٧٩ عام ١٠٢

وقد بدأت سياسة إشراك الترك فى الجهاد منذ ابتداء فتوح ما وراء النهر تقريبا . كأنها كانت أمراً مقررا من قبل ، والراجح أنها كانت كذلك : لأننا أشرنا إلى أن العرب عرفوا الترك معرفة دقيقة قبل أن يفتحوا أرضهم .

فان صاحب باذغشان وكان يسمى نيزك اشترك سنة ٨٨ في حصار نومشكت (وهى بخاري القديمة) وأبلى . وهو أول إشراك تسجله المصادر(١). ثم اشترك نيزك فى حرب بخاري سنة ٩٠(٢) ثم خلع مقفله من هذه الغزوة : لأنه رأي من المسلمين ما أفزعه(٣). فلما كان ببلخ نزل علي النوبهار فصلي ، ولا نظن أنه كان مسلما ، والدليل على ذلك أن قتيبة استنزله بأمان بعد عصيانه ثم لم يرع الأمان فكان الناس يرون أنه غدر به(٤) ، ولو كان ارتد لم يكن له أمان .

ثم اشترك مع قتيبة «أهل خوارزم وبخارى» فى حرب الصغد سنة ٩٣ ، وقد روى أن قتيبة اشترط على الصغد أن يمدوه بثلاثين ألف فارس وقيل بمائة(٥) ، ولا نتمسك بالعدد وإنما نتمسك بنوع الشرط ، فلما كانت السنة التالية وجدنا قتيبة يفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل ، ويسير بهم نحو الشاش وفرغانة(٦). وكان ذلك سياسة ثابتة اتبعها قتيبة : فانه كان يستخدم العجم ، ويتضح ذلك من قول ابن الأثير أنه « كان يجعل الطلائع فرسان الناس واشرافهم ومعهم من العجم من يستنصحه» . وقد كان من أشراف العجم من يرعى حق الفروسية ويقدس الحلف ، فان قوما من أبناء ملوك السغد كانوا مع قتيبة

(١) من الجائز ان يكون هذا الاشتراك واشتراك سنة ٩٠ شيئا واحدا ، لان ابن الاثير يضم فتح بخارى في هذه السنة او في سنة ٩٠ (ابن الاثير : ج ٤ ص ١٠٩ عام ٨٨)

(٢) نفسه : ج ٤ ص ١١٤ عام ٩٠

(٣) نفسه

(٤) نفسه : ج ٤ ص ١١٥ عام ٩٠

(٥) ابن الاثير : ج٤ ص ١٢٧ عام ٩٣

(٦) نفسه : ج ٤ ص ١٣١ عام ٩٤

حين خلع سليمان واضطرب عليه الأمر فأنفوا من خذلانه ، ولم يقولوا كما قال غيرهم: إن هذا يوم خذلان قتيبة لسوء بلائه عند العجم(١). ولكن استخدام الأتراك كان فى الحقيقة مقصورا على الغزو ، وليس تأييدهم قتيبة هنا إلا نتيجة لموقف شاذ غلبت فيه روح الفروسية .

ونجد الترك يشتركون فى الغزو بعد ذلك التاريخ ببضع سنين ، فان ترك خاقان ملك قى ، ولعله من ملوك السغد ، عرض معونته حين هاجم الترك والسغد قصر الباهلى سنة ١٠٢ وانضم إلى المسلمين مع ٣٠٠ من مقاتليه(٢). ونلاحظ أن طليعة الاستكشاف كانت مؤلفة من رجلين من العرب ورجل من العجم . ونجد أثر هذا الاشتراك والأخوة الحربية حين نجد عظماء السغد الأسرى ينزلون على الذين يعرفونهم من جند المسلمين(٣). ونجد سنة ١٠٤ خوارزمشاه وصاحب أخرون وشومان يحاربون السغد مع والى خراسان (الحرشى)(٤)، ونجد الصغانيان يخرجون للغزو مع المسلمين(٥).

ومع ذلك فان الترك لم ينالوا ثقة العرب كاملة . ولهذا كان يندر أن يطلب الولاة إليهم الاشتراك في الحرب فى سنوات الاضطراب ، لا نستثنى إلا أهل الصغانيان وصغان خداه ، فقد أعانوا والي خراسان بينما كان خاقان غالبا على سمرقند ونواحيها يهاجم العرب ويطردهم(٦)، وصبروا هم وجماعة من الأعاجم لا نعرف جنسيتهم(٧)، ولعل هؤلاء الأعاجم من سكان المدن الواقعة بين المرغاب

---

(١) البلاذرى : ص ٤١٣
(٢) ابن الاثير : جـ ٤ ص ١٧٨ عام ١٠٢
(٣) نفسه : جـ ٤ ص ١٨٥ عام ١٠٤
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ١٨٦ عام ١٠٤
(٥) نفسه : جـ ٤ ص ١٩٤ عام ١٠٦
(٦) نفسه : جـ ٤ ص ٢٢٦ عام ١١٩
(٧) نفسه : جـ ٤ ص ٢٢٧ عام ١١٩

وجيحون مثل الجوزجان ، فانهم كانوا يؤلفون قسما من ميمنة والى خراسان حين صافّ خاقان(١) دون أن ينسبوا إلى قبيلة بولاء .

فلما مضت الأزمة وولي نصر غزا الشاش ومعه بخارى خداه فى أهل بخارى ، ومعه أهل سمرقند وكش ونسف ، وهم عشرون ألفا . أما هذا الرقم فيذكرنا بالعشرين ألفا الذين فرضهم قتيبة على أهل هذه المدن ما عدا سمرقند . ولا نظن ذلك كان عددا تقليديا ، ولكنه عدد لا نظن المسلمين تجاوزوه حين استعانوا بالترك لتكون الكثرة عربية ، وعلى أساس أن الجيش العربي يقارب عادة خمسين ألفا . أما الذين صحبوا نصرا فهم من الترك لا من أجناد المسلمين، والتعبير القديم يفرق بين الصنفين فيقول : أهل سمرقند مثلا إذا قصد الترك ، ويقول : جند سمرقند إذا قصد الحامية العربية بها(٢). ومن المعقول إذن أن يكون هذا العدد من الترك مسلما غازيا مع العرب طلبا للجهاد وحبا فى إشباع الفروسية ، على حين أن الراجح أن الذين غزوا أيام قتيبة لم يكونوا مسلمين ، ولكن النصوص تلتزم الصمت في الحالتين : وهو صمت نؤوّله نحن حسب الظروف المحيطة، وقد تغيرت الظروف تغيرا شديدا . ويتضح ذلك حين نعلم مثلا أنه كان لبخاري خُداه قصر فى مرو(٣) نظنه كان يقيم فيه أكثر مما كان يقيم فى بخاري ليكون أقرب للولاة وأبعد عن الريبة.

ولكن تُرك ما وراء النهر إن فقدوا استقلالهم فانهم لم يفقدوا شخصيتهم ولا فروسيتهم . وذلك أنهم اتحدوا مع عرب ما وراء النهر من مضر وربيعة واليمن ، وتحالفوا على قتال المسودة(٤). ولا مفر أن نلاحظ أن في هذا الموقف وفاءً للعرب المستقرين فيما وراء النهر خاصة ، واحتفاظا بالعداوة القديمة بين إيران وطوران .

---

(١) نفسه : ج ٤ ص ٢٢٨ عام ١١٩
(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١
(٣) نفسه : ج ٤ ص ٣١٠ عام ١٣٠
(٤) نفسه : ج ٤ ص ٣١٢ عام ١٣٠

ولهذا لم يكن الاتصال بين رجال المسودة فى خراسان وبين ملوك ما وراء النهر اتصالا وديا ، على حين كان التفاهم تاما بينهم وبين رجال الأمويين، فانا نجد أبا داود يغزو الختل ويلجيء ملكهم إلى الهرب ، ويغزو كش ليعتقل ملكها وهو سامع مطيع ، ويقتل أناسا من أهل الصغد وبخارى(١).

ولا يلبث الأمر أن يستتب : فنجد ترك طخارستان مع جند المنصور يحاربون أستاذسيس(٢). فاذا كانت أيام الرشيد وجدنا حامية صغدية تحارب عام ١٨٠ لا في ما وراء النهر غازية مجاهدة ، ولكن مقيمة لاقرار النظام وقمع الفتن فى مدينة زرنج أى فى أرض بعيدة عن الأرض الأصلية وفى أحوال تخالف تمام المخالفة الأحوال الأولى التى أقرها قتيبة ، ولا شك أن هذه الحقيقة تعتبر نقطة تحول كبير فى السياسة العامة . وهى على أي حال أكبر أهمية فى تاريخ ما وراء النهر ، لأنها تدل على أنه أصبح عضوا في جسم الدولة غير خارج عنه(٣).

ولا نستطيع أن نعرف إن كانت هذه الواقعة أول واقعة من نوعها ، لأن سوقها فى كتب التاريخ جاء عفواً دون تمهيد خاص ودون تعليق من المؤرخين ، كأنها شيء لم يجبهم فى ذلك العصر الذى استخدم فيه العجم وأتيحت لهم المكانة الأولى في امبراطورية ذات صفة إسلامية لا عربية ، والراجح أن الواقعة جاءت وقد تهيأ لها الجو فلم ير فيها أحد شذوذا : لأن جند الترك كانوا عجما مسلمين شأنهم شأن الفرس، وكنا نحب أن نؤيد هذه الواقعة بأشباهها غير أن الأشباه نادرة. ولكن الواقعة على أى حال بدت طبيعية يوم وقعت ، ولم يكن شيء يمنع من تكرارها .

---

(١) نفسه : ج ٤ ص ٣٤٢ عام ١٣٤

(٢) نفسه : ج ٥ ص ٢٨/٢٩ عام ١٥٠

(٣) نفسه : ج ٥ ص ١٠٢ عام ١٨٠

ثم كان تحول جديد أيام المأمون في إشراك الترك فى حروب المسلمين ، وهو أن المأمون اتخذ سياسة جديدة : هى الدعوة إلى الاسلام والترغيب فى خدمة الجيش في نفس الوقت ، وقد كانت هذه السياسة معروفة قديما . فان قتيبة حين استخدم الترك كان بطبيعة الحال يتمنى إسلامهم ، غير أن مثل هذا الاسلام يتخذ في أعيننا، ان سلمنا به ، لون الحلف والدخول فى تيار السياسة العربية ، أما الجديد في هذه السياسة المأمونية : فهو أن الترك كانوا يدخلون الجيش ويحاربون فى إقليمهم وغير إقليمهم ، وكان هذا الاسلام الحديث يقربهم إلى المرتزقة أكثر مما يقربهم الى الجند المسلمين الذين قدم بهم العهد فى ظل الاسلام والدولة الاسلامية . وكان يقوم بهذه الدعوة إلي الاسلام والجندية : رسل دعاة فارضون ، يستميلون الناس بالفريضة لهم في الديوان . وقد كانت الدعوة للاسلام قديمة ، ولكنها كانت مستقلة كل الاستقلال عن الجندية . والمرجع فى وصف هذه السياسة أربعة أسطر رواها البلاذري،قال: « وكان المأمون رحمه الله يكتب الى عماله فى خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر ويوجه رسله فيفرضون لمن رغب فى الديوان وأراد الفريضة من أهل تلك النواحى وأبناء ملوكهم ويستميلهم بالرغبة ، فاذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم .» (ص ٤٢٠ بلاذرى) ويثبت هذا النص ثبوتا جازما أن المأمون هو أب هذه السياسة التركية .

والأسير الشائع أن الأفشين التركى إنما علا نجمه أيام المعتصم (كلف بحرب بابك سنة ٢٢١) (١) . ولكننا يجب أن نعلم أن الأفشين « أظهر الاسلام وشخص إلى مدينة السلام » أيام المأمون (٢) ، وانه كان سنة ٢١٧ قائدا بمصر (٣) بعد أن كان قائدا ببرقة سنة ٢١٦ (٤) .

---

(١) ابن الاثير : جـ ٥ ص ٢٣٤ عام ٢٢١
(٢) البلاذري : ص ٤١٩
(٣) ابن الاثير : جـ ٥ ص ٢٢١ عام ٢١٧
(٤) نفسه : جـ ٥ ص ٢٢٠ عام ٢١٦

ولا بد أن نذكر كذلك أن أشناسا التركي كان من قواد المأمون قبل أن يكون من قواد المعتصم ، وأنه كان قائدا من قواده يغزو معه الثغور الرومية (١) .

وإذا أردنا أن نحدد الوقت الذى أوغل فيه المأمون في طريق هذه السياسة : فالراجح أنه إنما اتخذ سبيلها بعد ظفره بنصر بن شبث العقيلي سنة ٢٠٩ وإنزاله قيسا « من ظهور خيولها »(٢) وسوء ظنه بالعرب . وقد كان فى هذا الوقت أيضا محتاجا إلى أن يحتاط للخلافة من الفرس ونزعتهم القومية الجامحة بعد أن رأى في هذه السنة نفسها طاهر بن الحسين يملك من أمر خراسان وتصريف أمورها وتمثيل قوميتها ما يحدثه بأن يستقل بأمرها ، فلم ير المأمون بدا من أن ينهض بالترك ليتنافس الفرس والترك فى إرضائه ، وليشغل الفرس عن الخلافة بأمر ماوراء النهر . وقد كان من طرق الخلافة فى الضغط السياسى علي خراسان قديما أن تضطرهم إلى الحذر من الحدود الشرقية .

أما المعتصم الذى جرى القول بأنه أول من استخدم الاتراك حتي قرن اسمه بهم : فانه لم يكن فى حقيقة الأمر إلا المتبع لسياسة افتتحها غيره فأتت نتائجها على يديه ، وقبل هو هذه النتيجة كما قبل تلك السياسة ، ولهذا يقول البلاذري « ثم استخلف المعتصم بالله فكان علي مثل ذلك (يعني من سياسة المأمون) حتى صار جل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر : من السغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام على من هناك »(٣) وهذا نص يدل علي شيئين : الأول أن شهود عسكره كان جله من الترك ، وشهود العسكر : هم الجند الذين يستخدمون فى العراق بالذات والذين يرسلون بأمر الخليفة إلي حيث يشاء الخليفة . ولكنهم يعتبرون أين كانوا جيش العراق، وهذا النص

---

(١) نفسه : حـ ٥ ص ٢١٩ عام ٢٢٥
(٢) نفسه : جـ ٥ ص ٢٢٧ عام ٢١٨
(٣) البلاذرى : ص ٤٣٠

هام لأنه يدل علي تنبه المؤرخين إلي وقوع شيء جديد وهو استخدام الترك فى قلب العالم الاسلامى . وقد رأينا أن الترك كانوا يستخدمون أولا فى ثغر الترك ثم أصبحوا يستخدمون فى بعض نواحى خراسان ، إلى أن استخدمتهم الخلافة فى العراق ووجهتهم إلى حيث شاءت من الثغور الرومية مثلا ثم إلى جزيرة العرب نفسها ، موئل العروبة الأول ومهد الاسلام . وهو تدرج فى استخدام الترك أسرعت خطاه أيام العباسيين بوجه خاص ، وأيام أن غلب الاسلام علي أهل البلاد المغلوبة. والشيء الهام الثاني الذي يستخلص من النص أن غلبة الدين علي أهل هذه البلاد جاء نتيجة لهذا الاستخدام وثمرة من ثماره ، لأن النص حين ذكر استخدام الترك عطف عليه العبارة التى لا بأس من تكرارها « وحضر ملوكهم ببابه وغلب الاسلام علي من هناك ».

ونحن مع ذلك نستطيع أن نجد القرائن الكثيرة على أن إسلام الجند الترك لم يكن في الحقيقة أول الأمر إلا قشرة سطحية انطبعت فوق التراث التركي القديم . من هذه القرائن اتهام الأفشين بالزندقة ، ومنها احتفاظ الجند بأسمائهم التركية غير المألوفة ، فقد رووا أن الأفشين فى بعض حروبه أراد أن يمتحن الصيادلة الذين يتبعون الجيش ، فأتي بورق وكتب عليه أسماء الجند الأشروسنية ، وبعث به إلى الصيادلة فلم يعترف أكثرهم بجهلهم الأدوية ، وبعثوا ما أرادوا منها (١) . ولا نقف عند القصة وإنما نقف عند هذه الأسماء الأشروسينية التي تمسك بها أصحابها ولم يتركوها بالاسلام كما فعل سائر الناس من قبلهم ومن بعدهم .

والواقع أن القيادة الحربية فى عهد المعتصم كانت إلى الأتراك ، فبرزت أسماء تركية ملأت العالم الاسلامى وعظمت هيبتها مثل الأفشين (٢) وأشناس (٣) ومنجكور

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ ص ٢٤٤
(٢) ابن الاثير : جـ ٥ ص ٢٣٤ ، ٢٣٩ عام ٢٢٠
(٣) نفسه : جـ ٥ ص ٢٤٧ عام ٢٢٣

قرابة الأفشين[١] وبغا الكبير وأواجن الأشروسني[٢] وبشير التركى[٣] وبخاري خداه وكلهم ترك فيهم من الصغد وأهل فرغانة وأشروسنة وغيرهم .

من كل هذا نرى أن السياسة التى افتتحها المأمون وسار عليها المعتصم كانت تجنيد الأتراك وإدخالهم فى الاسلام عن طريق هذا التجنيد ، وليس يعنينا أن نتبين قصد المأمون : أكان حاجته إلى الجند بالذات ، أم كان قصده إلى ما ينشأ عن هذا التجنيد من الدخول في الاسلام ، لأن الأمرين تحققا له ، وكان أولهما طريقا للآخر ، وكان كلاهما عنصرا من عناصر السياسة الاسلامية التقليدية منذ قتيبة ، وسنري فيما بعد كيف نشر الخلفاء الاسلام فيما وراء النهر .

ولكن الترك دخلوا في بلاط الخلفاء قبل أن يدخلوا فى جيوشهم ، ولعل أول من أدخلهم في البلاط الخليفة المنصور ، فانا نجد زهيرا التركى واليا له علي همذان مخلصا للخليفة يقتل بأمره رجلا من دعاة أبي مسلم . ونجد فى حرس هذا الخليفة نفسه شعيب بن واج[٤]. ثم أدخلهم الخليفة الرشيد في بلاطه كذلك ، ونحن نعرف خادمه خاقان الذي خدمه ثم ابتني لنفسه دارا بطرسوس دفن فيها المأمون بعد[٥]. ونسمع عن أخشيد الخادم ، خادم الرشيد[٦]، ونعرف كذلك فرجاً الرّخّجىّ وكان مملوكا لبنت الرشيد ، فولاه الرشيد الأهواز ، ولكن مثل فرج أسر وهو فتى صغير[٧]، وتربي تربية إسلامية حتى رفعه الرشيد «فوق قدره»[٨]

(١) نفسه : جـ ٥ ص ٢٥٧ عام ٢٢٤
(٢) نفسه : جـ ٥ ص ٢٣٧ عام ٢٢١ عن بغا ثم ص ٢٦٠ عام ٢٢٥ عن اواجن
(٣) نفسه : جـ ٥ ص ٢٤٢ عام ٢٢٢
(٤) نفسه : جـ ٤ ص ٣٥٤ عام ١٣٧
(٥) نفسه : جـ ٥ ص ٢٢٧ عام ٢١٨
(٦) الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٦٤/٥
(٧) نفسه : ص ٢٧٠ ، ٢٧١
(٨) نفسه : ص ٢٧١

ليكون صنيعته وآمن عنده . ووجود أمثال فرج كثير معروف قبل عصر الرشيد مثل حماد التركي(١) أيام المنصور ، ولكنهم لم يبلغوا درجة الخدمة عند الخلفاء إلا فى عهد الرشيد . وهى درجة تستمد قوتها من القرب من الخلفاء أكثر مما تستمد قوتها من اختصاص أصحابها . ولنعد الى إشراك الترك فى حروب المسلمين وأنه كان مبدءاً سارت عليه الدولة منذ فتح ما وراء النهر ثم توسعوا فيه شيئاً فشيئاً حتى أصبح الترك جند الدولة ، وهو دور هام فى حياة الدولة الاسلامية فتحه لهم الخلفاء مدة طويلة وحمله الترك أيام المأمون والمعتصم وواصلوا القيام به قرونا طويلة مجيدة بدون انقطاع إذا استثنينا العهد البويهي .

وقد تجاوزت الخلافة فى أثناء هذا الاشراك السنة الفقهية ، فاستخدمتهم أيام قتيبة قبل أن يدخلوا الاسلام على الأرجح أو بعد أن دخلوه دخولا شكليا ، واستخدمتهم أيام المأمون والمعتصم ولما يتأصل إسلامهم أو يقدم . ولا بد لنا حين نسجل هذه الملاحظات أن نفطن إلى أن رجال السياسة كانوا أكثر مرونة من السنة الفقهية ابتغاء المنافع السياسية التى تتحقق بهذه المرونة ، ولم تكن تلك المرونة قاصرة على المشارقة . فان المغاربة لم يكونوا أقل مرونة . فان عامل الأندلس عاهد أهل قرقسونة حين فتحها على شروط : منها أن « يلتزموا باحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمه من سالموه » وكان أهل قرقسونة مسيحيين(٢).

وقد كانت الشعوب البربرية المجاورة للامبراطوريات الكبيرة منذ القدم تستحب الاشتراك فى الحروب حيث يتيسر لها هذا الاشتراك ، وتعتبره رمزا لسيادتها وكانت الامبراطورية الرومانية تتقبلهم وتشركهم في الغزو ، وهكذا فعل الأكاسرة وأباطرة الروم وغيرهم . وهكذا فعل العرب مع الترك وغيرهم مثل الجراجمة

(١) نفسه : ص ١٣٤
(٢) ابن الاثير : ج ٤ ص ١٩٧ عام ١٠٧

فى آسيا الصغرى .

وقد تجاوزت الخلافة العباسية في سبيل هـذا الاشراك أو تخلت راضيـة وكارهة ، أو راضية أولا وكارهة أخيرا ، عن مبدأ العروبة . وجعلت الدولة إسلامية لا عربية ، يقوم بالدفاع عنها من يتهيأ لهم ذلك الدفاع من رعايا المسلمين دون نظر إلى أجناسهم .

* * *

— ٤ —

السياسة الدينية

لايزال التجانس الفكرى يقرب بين الشعوب ، وقد كانت الشعوب المتحضرة تكسر حدة جيرانها البرابرة عن طريقين : طريق السيف ، وطريق إدخال الشعب البربري في الحضارة . وكان الدين الواحد يقرب بين الأجناس المختلفة وكان نشر الدين بين أهل الحدود المهددة بمثابة درع حصين . وجرى الرومان والروم والعرب ودول العصور الوسطى على هذه السياسة .

كانت هذه السياسة ممكنة بالقياس إلى الترك أكثر من إمكانها بالقياس إلى الروم ، لأن دين الترك يختلف عن دين الروم في قدرته على الاحتفاظ بكيانه أمام الاسلام ، كان دين الترك الوثني ضعيفا كباقى الديانات الوثنية التى ابتلعها الاسلام أيام نشأته في جزيرة العرب ، علي حين غص حلقه بقبائل قليلة من اليهود والنصاري ، فدين الترك قليل الحصانة لم يحس الاسـلام منه مقاومة لا تنثني وعداوة لا مندوحة فيهـا من السيف . وكان من صالح العرب أن يختلطوا بالترك ليلتقي الدينان وجهـا لوجه حيث تكون الغلبة لأقدر الدينين علي الدفاع عن نفسه ، وحيث ترهف نفوس المقهورين لصوت دين انتشر فى نصف الأرض تقريبا ، شأن أديان الغالبين . والواقع

أن الديانة التركية ظلت تتراجع أمام الاسلام من ناحية وأمام البوذية من ناحية أخرى ، حتى قال بعض المؤرخين : إن الدين عند الترك لم يكن إلا رمزاً سياسيا ولم يكن تفكيراً عميقا يثير الجدل الشديد .

أما الدين الغالب على الترك فيما وراء النهر : فاننا نرجح أنه كان دين الفرس . فانا نعرف أن المانوية ، حين اضطهدها الأكاسرة منذ ظهورها فى أواخر القرن الثالث ، هاجرت إلى أواسط آسيا وانتشرت هناك(١). ونحن نعلم من المصادر العربية أن بلخ كانت مقر بيت نار كبير يعرف بالنوبهار وأن الفرس كانوا سدنته(٢).

فاذا تتبعنا الدعوات إلى الاسلام ، وجدنا أن مصادرنا العربية لا تذكر دعوة إلى الاسلام استجيبت أيام قتيبة أو قبله إلا ما قيل من أن قتيبة أحرق بيوت الأصنام فى سمرقند فأسلم «منهم خلق»(٣). ولكن الواقع أن الذين أعانوا قتيبة أيام الوليد ثم الذين استظهر بهم حين عصا أول خلافه سليمان(٤) لم يكونوا مسلمين (لأنهم عصوا وأطاعوا مرات ولأنه لم يذكر فى صلحهم إسلام) . فاذا انتقلنا إلى أيام عمر بن عبد العزيز وجدنا تطبيق القاعدة الفقهية القائلة بوضع الجزية عمن أسلم يحدث فى خراسان مسارعة إلى الاسلام إسراعا اتهم أصحابه أنهم إنما رغبوا فى الهرب من الجزية . وإذا كانت ما وراء النهر من خراسان فقد أصاب أهلها من المسارعة إلى الاسلام ما أصاب أهل خراسان (٥)، وأحس الترك من ناحية أخرى بأن إبطال الغزو الذى أمر به عمر فاتحة عهد تفاهم (فان عمر كتب إلى والى خراسان :

---

(١) Albertini ، الكتاب المذكور ص ٢٧٥

(٢) البلاذرى : ص ٤٠٠

(٣) نفسه : ص ٤١١

(٤) نفسه : ص ٤١٢

(٥) الطبرى : جـ ٨ ص ١٣٤ عام ١٠٠ ، ابن الاثير : جـ ٤ ص ١٥٨ عام ١٠٠

«لا تغز بالمسلمين . فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم» (الطبرى: حـ ٨ ص ١٣٩ سيرة عمر) ، وكان من بوادر اقتناعهم بعدل المسلمين أنهم شكوا إلى الخليفة غدر قتيبة فى الاستيلاء علي سمرقند[١]. وكان مما يزيد اقتناعهم : أن عمر كتب إلى والى خراسان « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه» ، وإن كان قال له «لا تحدثن كنيسة ولا بيت نار»[٢]. وكان من شأن هذا التفاهم تهيئة الجو للدعوة إلي الاسلام ، والواقع أن عمر لم يتقدم إليهم بالسيف: فقد أبطل الغزو وإنما تقدم إليهم بالدعوة إلي الاسلام ، فكتب « إلى ملوك ما وراء النهر فأسلم بعضهم»[٣]،وقد لا نستطيع أن نحدد هذا البعض وأن نتحرج من هذا الغموض فنشك فى إسلام هذا البعض. ولكن الحرج لا معنى له لكثرة القرائن على الثقة بسياسة العدل. وهى سياسة طبقت من غير شك علي خراسان وما وراء النهر بالذات . فان عمر كتب إلى صاحب الخراج « وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلى ولا أعظم عندي من ثغر خراسان »[٤] وهى أهمية تفهم من ناحية نشر الاسلام أكثر مما تفهم من الناحية الحربية .

وإذا كان يزيد بن عبد الملك قد سار علي سياسة مالية رجعية عامة بالنسبة لسياسة عمر فانه ، فيما يخص خراسان ، طبق هذه الرجعية تطبيقا لينا بعض الشيء وذلك أن والى يزيد علي خراسان (سعيد خذينة) طالب السغد بالمتأخر من الضرائب . والراجح عندنا أن المتأخر كان من «تخافيف» عمر أو من رفقه على الأقل ، فاختلف هو والسغد واستؤنفت الحرب . وأسف الناس على عهد عمر ، ولكن سعيدا كان لينا : لأنه كان إذا بعث سرية فأصابوا واغتنموا رد السبي

(١) ابن الاثير حـ ٤ ص ١٦٣ عام ١٠١

(٢) الطبرى : حـ ٨ ص ١٤١ عام ١٠١ فى سيرة عمر بن عبد العزيز

(٣) البلاذرى : ص ٤١٥

(٤) الطبري : حـ ٨ ص ١٣٩ : في سيرة عمر بن عبد العزيز عام ١٠١

وعاقب السرية (١)، ولأنه كان لا يريد أن يتفاقم العداء بين المسلمين وأهل ما وراء النهر ، ولأنه كان يعتبر السغد «بستان أمير المؤمنين» فلاينبغى تخريبه ولا إبادة أهله . فيقول للجند «قد هزمتموهم أفتريدون بوارهم» (٢)

ثم تجددت الدعوة للاسلام مرة أخري أيام هشام بن عبد الملك وولاية أشرس علي خراسان : وكان «فاضلا خيرا» وكانوا «يسمونه الكامل لفضله» . فأرسل أشرس إلى أهل سمرقندوما وراء النهر يدعوهم إلى الاسلام علي سنةابن عبد العزيز: أي علي أن توضع عنهم الجزية ، ولم يخرج الدعاة إلا بعد أن اشترطوا الوفاء بالوعد. فدعا الرسل « أهل سمرقند ومن حولها إلى الاسلام علي أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس » وبنوا المساجد . فلما ضج عمال الخراج من نقصان الدخل ، ورفعوا الأمر إلى والى خراسان ، وضع الوالى شرطا لا غبار عليه في الظاهر : وهو أن يفتش عن إسلام من أسلم : فمن « اختتن وأقام الفرائض وحسن إسلامه وقرأ سورة من القرآن » وفوا له بالشرط ورفعوا خراجه ، ولا بد أن تطبيق هذا الشرط كان علي شيء من التعسف شأن التفتيش دائما ، ولم يلبث والى خراسان أن ألغى شرط الدعاة وأعاد الجزية على من أسلم ، فقامت قائمة هؤلاء المسلمين المحدثين وانضم إليهم الدعاة وخرج كثير منهم عن سمرقند واجتمعوا معتزلين .فكانوا سبعة آلاف وانضم إلى الدعاة جماعة من فرسان المسلمين مثل ثابت قطنة ، ولم يكن بدمن الحرب ولكن الحكومة احتالت عليهم وأظهرت الاستجابة إلى مطالبهم : حتي إذا تفرقوا أخذت الرؤساء وتتبعتهم ، فكان من نتيجة هذا الموقف أن كفرت «الصغدوبخارى واستجاشو الترك» وكانت الفتنة عظيمة لتدخل الترك البعيدين . وكانت حرب قاسية لأن الناس ظلوا يذكرون يوما من أيامها يعرف بيوم العطش (٣) . واستولى

(١) ابن الاثير : حـ ٤ ص ١٧٩/١٨٠ عام ١٠٢

(٢) الطبري : جـ ٨ ص ١٦٥/١٦٦ عام ١٠٢

(٣) ابن الاثير : حـ ٤ ص ٢٠٢/٣ عام ١١٠

الصغد وغيرهم على كل ما وراء النهر ، وارتد أهل كردر (١).

وهكذا خرجت الدولة على سياسة الدعوة للاسلام بشرائطها اللينة المريحة فكان ترك اللين سببا فى فتنة كلفت الدولة دماءا وحروبا كثيرة .

ولم تعد الأمور إلى ما كانت عيه إلا بعد أن مل الطرفان الحرب وتغيرت السياسة العربية . وولى نصر بن سيار فعمد نصر إلى سبب هذه الثورة والحرب : وهى الجزية ، فأقر فيها حكم الاسلام ، فلم تمض إلا جمعة حتي أتاه ٣٠ ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤوسهم و٨٠ ألفا من المشركين كانت ألقيت عنهم. فحول ما كان على المسلمين إليهم ووضعه عن المسلمين (٢) . وقد كان حلا موفقا لأنه ضمن للداخلين فى الاسلام أن خزانة الدولة لن تنظر إليهم فيما بعد نظرتها إلى مغتصبين . وهكذا عادت خراسان وما وراء النهر ، سنة ١٢٠ إلى السياسة التقليدية اللينـة .

وأمن الصغد جانب المسلمين ، فلم تمض سنتان حتي صالحوا ، ونالوا شرط الدعاة وشرطا آخر هو ألا يعاقب من كان مسلما فارتد ، وفضل نصر أن يتسع لهم الدين على أن تتسع لحربهم سيوف المسلمين ، وأجاب من أنكر هذا اللين فقال « لو عاينتم شوكتهم في المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم ذلك »، وأرسل ليستشير هشاما الخليفة فأقر رأيه (٣). وكان لهؤلاء الترك أن يعتنقوا الاسلام على الوجه الذى يحبون فى ظل التسامح الدينى ، والذي لا شك فيه أن المسلمين الأتراك عادوا إلي مساجدهم الأولى وبنوا غيرها ، وإن لم تشر إلى ذلك المصادر . وهكذا بدا أن السياسة التى استقر عليها الأميون آخر الأمر هى سياسة عمر بن عبد العزيز .

ولم يكن أهل الصلاح والمثل الطيب الذين يحببون الاسلام الى الترك ، قليلين،

---

(١) نفسه : جـ ٤ ص ٢٠٥ عام ١١٠
(٢) ابن الاثير : جـ ٤ ص ٢٤٣ عام ١٢١
(٣) نفسه : جـ ٢٤ ص ٢٥٠ عام ١٢٣

فان أحد من سكنوا سمرقند أيام قتيبة : الضحاك بن مزاحم هو صاحب التفسير (١). وكذلك كان يعيش ببلخ فى آخر القرن الثاني زاهد مجاهد هو شقيق البلخى الزاهد قتل فى غزاة ، وكان شيخ زاهد آخر معروف هو حاتم الأصم ، وحج شقيق مرة وفي صحبته ٣٠٠ مريد ، وكان شيخ خراسان (٢) . ومن أتقياء هذه الناحية أيضا العلماء : الفضيل بن عياض الزاهد ، وكان مولده بسمرقند وانتقل الى مكة فمات بها (٣).

فلما قامت الدولة العباسية سارت على الأرجح على هذه السياسة المرسومة إلى زمن المأمون ولم تحذف من أصولها شيئا : لأن المصادر لا تذكر ذلك ولا نلاحظ إلا شيئا من الشدة على الناكثين وإلا المثابرة علي الغزو . فاذا ولى المأمون ارتسمت في عهده السياسة النهائية : سياسة الشدة فى الحرب والدعوة للاسلام والترغيب فى الجندية ، وأخذ المأمون بكل طرف من أطراف هذه السياسة معا ، كأنما وفق بين طرائق الدبلوماسية الاسلامية القديمة جميعا ، فانه ألح عليهم «بالحروب والغارات» ثم «كان مع تسريته الخيول إليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الاسلام والطاعة والترغيب فيها» (٤) «وكان يكتب إلى عماله علي خراسان في غزو من لم يكن علي الطاعة والاسلام من أهل ما وراء النهر» وهذا هو العود الى سياسة الفتح مع الأخذ بالترغيب فى الاسلام . «وغلب الاسلام على من هناك» بسياسة الدعوة .

* * *

خاتمة

ولا نستطيع أن نختم المقال بخير مما روي البلاذرى ، فانه فطن إلى ما أدت

(١) البلاذري : ص ٢١١

(٢) ابن الاثير : جـ ٥ ص ١٤٢ عام ١٩٤

(٣) ابن الاثير : جـ ٥ ص ١٢٠ عام ١٨٧

إليه هذه السياسة العربية من توفيق ، وسجل أن أهل هذا الثغر دخلوا الاسلام ، وأصبحوا حماته « يغزون من وراءهم من الترك » فيصلون إلى نواحي بعيدة ، وهو أكبر توفيق تطمع فيه دولة تريد أن تحمى حدودها وأن تنشر حضارتها .

وقد ذكر البلاذرى كذلك حقيقة أخرى - أدى إليها الاشراك الذي ذكرناه - وهى أن «جل شهود عسكر» الخلافة صار من الترك ، وهى واقعة لم تكن لتتهيأ لولا أن هذه السياسة العربية المرنة قد مهدت لها تمهيدا طويلا . فلم يكن استخدامهم كاستخدام المرتزقة ، ولا كان ابتداء سياسة مبتكرة دفعة واحدة فى كل نواحيها.

ولم تكن هذه النتائج ممكنة لو أن العرب غلبوا جانب السيف ولم يدعوا سبيلا إلى التفاهم .

ولكننا لم نرد من وراء هذا البحث عرض هذه النتائج وبيان مقدماتها فحسب، وإنما أردنا فوق ذلك أن نبين ناحية من سياسة العرب في حماية حدودهم : وهى نظام الحلف الذى يفرضونه علي جيرانهم ويؤيدونه بالغزو السنوى استبقاءاً لطاعة الأحلاف واستظهارا بالقوة أمام من وراء الأحلاف من أعداء . ونحن نعلم أن هذا النظام طبق علي أرمينية فلم يأت بمثل هذه النتائج . وأنا أزعم كذلك أنه طبق أيضا في أفريقية أيام عقبة بن نافع فأتى بأكبر مما تهيأ لهذا النظام من نتائج . ولكل حالة من هاتين الحالتين تفسيرها : لولا أن هذا المقال مقتصر علي ترك ما وراء النهر ما؟

م. ع. شعيرة
مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول
بالاسكندرية

موقف المانيا ازاء الاحتلال الانجليزي لمصر *

بقلم الدكتور محمد مصطفى صفوت
الاستاذ المساعد للتاريخ المعاصر بالكلية

لم تكن للدولة الالمانية التى نشأت حديثا مصالح حيوية هامة فى مصر تدعوها جادة إلى أن تبث العراقيل فى وجه انجلترا أو تناهض السياسة التى ارتسمتها الحكومات البريطانية لنفسها في وادى النيل. لقد كانت مسألة مصر أول الأمر مرتبطة في ذهن المستشار الامبراطوري الألمانى بمسألة بقاء الدولة العثمانية ومصيرها. ولم تكن السياسة التي اختطها بزمرك Bismarck في السنوات العشر التي تلت سنة ١٨٧١ — وهى السنة التى تمت فيها الوحدة الألمانية بالدم والحديد — سياسة المحافظة علي كيان الدولة العثمانية أو تحقيق سلامتها ، فلقد صرح فى أحاديث متعددة له ، وذلك حين ثارت المشكلة الشرقية ثورتها العنيفة فى سنة ١٨٧٦ بأن ليس للحكومة الألمانية مصالح مهمة تدعوها للتدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية منها أو الخارجية ، وأنه لا يرثى لمسيحي هذه الدولة أو لمسلميها على السواء ، فمصير هذه الدولة ، كما قال مرة متهكما ولكن جادا لا يدعوه لأن يبذل في سبيله دم جندى بروسي واحد ، وأن كل ما يهمه في هذه الأزمة المستحكمة المعقدة المصاعب هو أن يضع نفوذه العظيم فى خدمة أصدقائه من الدول الأوربية الكبرى وليست الدولة العثمانية واحدا منهم (١)

* انظر المراجع فى آخر البحث

(١) الوثائق الالمانية Grosse Politik .بيلوف Buelow وزير الخارجية الالمانية الي منستر Muenster السفير الالماني فى لندن ٤ يناير سنة ١٨٧٦

وبزمرك هو الذى دعا الانجليز مرارا، سرا وعلانية لأخذ مصر ، وهو الذى عمل علي تثبيت أقدامهم فيها ، وعضد سياسة الاحتلال فى سنة ١٨٨٢ ، فأيد سياسة انجلترا تأييدا لاتشوبه شائبة ، ونصرها نصرا مبينا ، وجعل من مسألة مصر وسيلة قوية لربط انجلترا بدول التحالف الثلاثي ، ذلك التحالف الذى كونه من المانيا والنمسا والمجر وإيطاليا لرعاية الوحدة التى أنشأها فى ميادين القتال : سدوا وسيدان ، وللمحافظة علي مركز المانيا المتفوق في أوروبا .

* * *

لقد اهتمت الحكومة الامبراطورية الألمانية لأول مرة بالمسألة المصرية حين ثارت المشكلة الشرقية فى أوائل الربع الأخير للقرن التاسع عشر . فالمستشار الألمانى يري أن مصر جزء من هذه المسألة لا ينفصل عنها ، وهو لا يهتم بالمسألة المصرية لقيمتها فى ذاتها أو لمصالح ألمانيا فيها ، وإنما هو يهتم بأمر مصر كوسيلة يسترضى بها الحكومة البريطانية التى ما برحت تنظر إلي ما لألمانيا من مركز متفوق فى أوربا بعين تنم عن جانب كبير من الحسد والحقد وتهاب شوكتها ، ولذا فهو من أول فرصة ينعي علي الحكومة الانجليزية عدم إسراعها إلي استغلال هذه الأزمة الشرقية، هذه الفرصة الثمينة فى نظره ، ويرى أنه ينبغى لها أن تفكر جديا من الآن في أخذ نصيبها من الأسلاب التى تراكمت نتيجة لضعف الدولة العثمانية المتزايد وتدهورها ، ويرى أن خير مكان وأنسب بقعة تستطيع أن تذهب إليها انجلترا ويمكنها أن تروى غليلها منها هى وادي النيل .

فهو قد اقتنع تماما بضرورة تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين أصدقائه من الدول الكبري ، ورأى فى هذا التقسيم خير طريق للمحافظة علي السلام فى أوربا وعلي السيطرة الألمانية فيها ، فتأخذ صديقته النمسا والمجر البوسنة والهرسك أى تسيطر علي غربي البلقان تقريبا ، وتهيمن روسيا علي شرقيه وينفذ نفوذها إلى المضايق البوسفور والدردنيل ، وتضم انجلترا مصر بالاتفاق مع فرنسا ، فمصر بموقعها

الجغرافى الممتاز وموارده‍ا التي لا ينضب معينها كافية في نظره لأن تعوض انجلترا عما تقتطعه روسيا من ممتلكات الدولة العثمانية فى البلقان .

وليس صحيحا من الناحية التاريخية ما يزعمه الاستاذ سيتون واطسون Seton Watson. ، استاذ الدراسات الصقلية فى جامعة لندن ، من أن بزمرك أراد من وراء هذه السياسة إصابة عصفورين بحجر واحد : إرضاء انجلترا من ناحية، وإفساد العلاقات الانجليزية الفرنسية من ناحية أخري[1]، فسيظهر من خلال هذا البحث أن بزمرك كان مخلصا فى ذلك الوقت (من سنة ١٨٧٧ إلى ١٨٨١) في العرض الذى قدمه للحكومة الانجليزية ، وأنه فى نفس الوقت كان يعمل على خلق جو من التعاون السياسى بين الدولتين الغربيتين خارج حدود القارة الأوربية .

حرص بزمرك إذن حرصا كبيرا علي أن يوجه انتباه الحكومة البريطانية الى انتهاز هذه الفرصة ، فرصة قيام المسألة الشرقية ، في مذكرات له سطرها بعناية كعادته لوزارة الخارجية الألمانية فى خريف سنة ١٨٧٦ يرى أنه إذا استشير فيما يجب أن تكون عليه سياسة انجلترا الخارجية . فانه يقترح أن تنتهج انجلترا نفس السنن الذى تنتهجه روسيا ، فاذا كانت روسيا تبغى أن تستحوذ علي النقط الحربية والاستراتيجية الضرورية لها وذلك بالسيطرة على المضايق البوسفور والدردنيل والاشراف على الآستانة ، فعلي الحكومة الانجليزية أن تقابل ذلك بالسيطرة علي مصر وقناة السويس ، فهو إذن يري أن يكون موقف انجلترا في وادى النيل مشابها لموقف النمسا علي الأقل بأزاء الولايتين العثمانيتين المتاخمتين لها . البوسنه والهرسك ويري فى ذلك الحل حلا سلميا للمشكلة الشرقية معقولا ومقبولا وينطوى علي شىء كبير من الحكمة وبعد النظر ، وهو حل خير فى نظره من معارضة انجلترا لتوسع روسيا فى البلقان وقيام حرب شعواء بينهما قد تتحول إلى حرب أوربية عامة طاحنة

(١) فى كتابه Disraeli and Gladstone and The Estern Question ص ٣٠٩

تعصف بما لألمانيا من مركز متفوق في أوربا ، فكما يقول « إنه من الخير لبريطانيا العظمى أن تأخذ قناة السويس والاسكندرية ، بدلا من أن تعلن الحرب علي روسيا ، وبهذا وحده تتوثق عري السلم فى أوروبا » (١).

وهو يري أنه إذا خشيت الحكومة الانجليزية من اتباع مثل هـذه السياسة مناوءة فرنسا وعـداءها ، فما عليها إلا أن تبحث مع الفرنسيين أمر تقسيم الشرق الأدنى إلى مناطق نفوذ ، فتوافق فرنسا علي تفوق النفوذ الانجليزى في مصر نظير موافقة الانجليز علي تفوق النفوذ الفرنسى في سوريا ، وبذا ترضى فرنسا . وكان بزمرك يرى أن الغلبة والتفوق فى النهاية سيكون للدولة الممتازة من الناحية البحرية والأكثر مرونة فى الاستعمار (٢).

ولم يقتصر بزمرك على عرض هذه الفكرة على حكومة دزريلى المحافظة بل أرسل إلى سفيره فى روسيا شفينتس Schweinitz يطلب منه أن يعرض على الحكومة القيصرية الروسية فكرة أخذ الانجليز لمصر ليعرف ماذا يكون موقف روسيا ، فهو يعتقد أن من الضرورى أن توافق روسيا علي هـذه الفـكرة إذا أرادت ألا تقاوم انجلترا رغبة الروس فى السيطرة على القسطنطينية والمضايق البوسفور والدردنيل (٣).

وليس من العجيب أن يجد أمرا صوابا وحكيما زيارة نوبار باشا للندن في ربيع سنة ١٨٧٧ لتمهيد الطريق لبسط حماية انجلـيزية على مصر (٤)، ويكرر بزمرك بأنه

(١) الوثائق الالمانية .
(٢) نفس المرجع ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٧٦
(٣) نفس المرجع بيلوف الي شفينتس .
(٤) كما يعلق على رسالة أرسلها له سفيره فى لندن بتاريخ ٤ ابريل سنة ١٨٧٧ وكان نوبار قد قام بهذه المهمة دون أن يكون الخديو علي علم بها وما كان مطلقا ليوافق عليها أو يرضاها ، ولقد لجأ نوبار الى عرض هـذه الفكرة على الحكومة الانجليزية حين توترت العلاقات بينه وبين الخديو — أنظر الوثائق الألمانية .

نصح وما انفك ينصح لبريطانيا العظمى بأخذ مصر ، وأن هـذه الخطوة هى خطوة مباركة في نظره ، هى أجل خدمة تستطيع انجلترا تقديمها للسلام في أوربا ، فالمستشار الألماني يخشي قيام حرب أوربية بين روسيا وانجلترا تجد الدولة الألمانية نفسها مرغمة على الدخول في غمارها .

ولكن الحكومة الانجليزية ، حكومة المحافظين ، ما كانت تقبل بسهولة مثل هذا المقترح ، فرئيسها لورد بيكونزفيلد Beaconsfield ، بالرغم من أنه هو الذى عقد صفقة قناة السويس فاشترى أسهم الخديو فيها ، وبالرغم من تعلقه الكبير بالشرق ، وبالرغم من أنه زار مصر فبهره جمالها وأبهتها وسحرته حضارتها القديمة وفخامة آثارها التى تدل علي مجدها القديم وفتنه جمال نيلها ونخيلها وأذهله كثرة خيراتها [١] — إلا أنه كان فى ذلك الوقت لا يرى فى احتلال الانجليز لمصر وسيلة ناجعة لدرء الخطر الروسى عن الشرق الأدنى فهو يقول . إذا أخذ الروس الآستانة فانه يمكنهم فى أى وقت أن يجوسوا بجيوشهم خلال سوريا ويصلوا الى مصب النيل ، وعندذلك ماذا تكون فائدة أخذ الانجليز لمصر ؟ وحتى قواتنا البحرية لا تستطيع أن تعزز مركزنا فى مثل ذلك الموقف ، وان الناس الذين يتكلمون بهذه الطريقة يجهلون الجغرافيا تماما ، والآستانه لا مصر ولا قناة السويس هى مفتاح الطريق الي الهند [٢]. ولقد أبدى بيكونزفيلد عجبه والشك الذي خالج نفسه من كثرة عروض بزمرك ، وذكر أنه يفضل أن يستولي علي آسيا الصغرى ذاتها [٣].

علي أن الحكومة الانجليزية اذا كانت راغبة عن احتلال مصر في ذلك الوقت

---

(١) انظر Monypenny and Buckle: Life of Disraeli الجزء الاول . الفصل الخاص برحلة ديزريلي الى الشرق ومصر . ولقد تنقل ديزريلى فى أيام شبابه في مصر من رشيد الي الشلال .

(٢) انظر المرجع السابق جزء ٢ ص ٨٤ عن كتاب Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ٩٨

(٣) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ١٠٩ .

الا أنها كانت حريصة علي ألا تمتد اليها يد الحرب التي ثارت ثائرتها فى البلقان ، فلقد انتشرت الاشاعات فى ذلك الوقت التي تقول بأن روسيا تنوى ادخال مصر فى غمرة الحرب ، فهي تنوى محاصرة الشواطىء المصرية باسطول البحر الابيض المتوسط ، أو هى تنوي أخذ أرمينية وأرمينية مفتاح سوريا وسوريا مفتاح مصر !! ، ولذا قدم داربي Derby وزير الخارجية الانجليزية الي شوفالوف Shuvalov سفير روسيا فى لندن بأن مصالح انجلترا سوف تضطرها الى اتخاذ خطة الدفاع اذا مس خطر حرية الملاحة في قناة السويس أو اذا قامت روسيا بهجوم علي مصر (١). واستفسرت الحكومة الانجليزية فوق ذلك من روسيا عما اذا كانت عازمة على محاصرة سواحل مصر أم لا ، وبينت فى نفس الوقت أن أي عمل حربي يهدد سلامة مصر أو قناة السويس ستعتبره انجلترا عملا عدوانيا اعتدائيا موجها نحوها (٢)، ولم يهدأ بال انجلترا ولم تطمئن الا حين علمت أن هذه الأشاعات هى محض اختلاق (٣). وفي أثناء الحرب الروسية التركية أعلنت روسيا عن رغبتها فى إرضاء انجلترا بأنها لن تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، فليست لها المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل (٤).

وفى الواقع أن انجلترا كانت فى ذلك الوقت أي فى سنة ١٨٧٧ تخاف عواقب اتباع السياسة التى يقترحها بزمرك ، وتخشى بصفة عامة عداوة فرنسا ، لاسيما وأن الرأي العام الانجليزي كان يعتقد تماما فى هذه السنة أن المستشار الألماني غير

---

(١) Documents Diplomatiques Français جزء ٢ رقم ١٧١ دكاز Decazes وزير الخارجية الفرنسية الي لفلو Le Flô سفير فرنسا فى بطرسبرج ٢١ مايو سنة ١٨٧٧

(٢) Sumnet: Russia and The Balkans ص ٣١١ .

(٣) (Seton-Watson Disraeli and Gladstone ص ١٧٢ ، و Sumner: Russia and The Balkans صفحات ٣١٠ الي ٣١٢ ، ٦١٨

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٩٣

مخلص في ذلك العرض فدوافعه غير بريئة ، فهو يريد أن يدفع بانجلترا إلى مصر لكي تؤيده في الاستيلاء علي هولنده ، وحتى الملكة فكتوريا نفسها، ملكة انجلترا، كانت مصدقة للأشاعات التي تملأ الجو السياسى فى أوربا عن رغبة ألمانيا فى الاستحواذ علي هولندا ، مما اضطر السفير الألمانى في لندن إلى أن يؤكد للحكومة الانجليزية بأن ما يشاع عن رغبة الألمان فى ضم هولندا محض افتراء لا صدق فيه ولا غناء[١].

علي أن المستشار الألماني لم ييأس ولم يكترث لمثل هذه الأراجيف ، فهو يدون فى مذكرة أنشأها فى كسنجن Kissingen في صيف سنة ١٨٧٧ لوزارة الخارجية الألمانية : « لقد رغبت فى حث الانجليز علي أخذ مصر إذا كانوا لا يزالون يطمعون فيها ، لأنى أعتقد أن من مصلحتنا ولخير مستقبلنا العمل علي تقابل الانجليز والروس فى منتصف الطريق ، فاذا استطاعت انجلترا وروسيا الوصول الى إتفاقية بها تسيطر روسيا على البحر الأسود وانجلترا على مصر كان ذلك خدمة جليلة للسلام فى أوربا» ، ولكن ما العمل اذا كان الانجليز لا يرون فى أخذ مصر حلا كافيا لمشكلة المضايق ، فملكة انجلترا ووزراؤها ليست عندهم ذرة ثقة فى روسيا[٢].

ثم ان لورد داربي وزير الخارجيــة في وزارة المحافظين فى ذلك الوقت لم يكن بطبيعته ميالا الى اتباع سياسـة خارجيـة نشيطة ، فهو لم يتحمس حتي لصفقة قناة السويس ، وكانت تنقصه فعلا الادارة القوية والعزم مما جعل السفير الألمانى في لندن يعتقد « أن الساسة البريطانيين يعيشون من يوم الى يوم ولا يفكرون فى المستقبل » ويرى أن على انجلترا اذا أرادت المحافظة على مركزها فى أوربا : أما المحافظة علي

(١) الوثائق الألمانية مذكره لبزمرك كتبها لوزارة الخارجية الألمانية بتاريخ ١٥ يونيو سنة ١٨٧٧ ، منستر الي بيلوف ٦ يونيو ١٨٧٧

(٢) الوثائق الألمانية روس Reuss السفير الألماني فى فينا الي بزمرك ١٠ يوليو ١٨٧٧

الممتلكات العثمانية بقوة السلاح كما فعلت فى حرب القرم أو تقسيم ممتلكاتها ، ونعى عليها موقفها فى ذلك الوقت ، فهو في نظره موقف الضعف والتردد ، اذ لاهى جندت جنودها للدفاع عن تركيا ، ولاهى أنشبت اظفارها فى مصر كجزء من الغنيمة(١).

فروسيا ما برحت مصرة على السيطرة على البحر الاسود فيجب اذن على الانجليز — كما ترى السياسة الخارجية الالمانية — المحافظة على مصالحهم فى البحر الابيض المتوسط ولن يصلوا الى هذه الغاية الا باحتلال مصر .

وربما كان هناك رأى فى لندن ، ويصح أن يكون بيكونزفيلد نفسه وهو : أن تشترى انجلترا مصر من الباب العالى ، وأن تعوض السلطان عن الجزية التي تقوم مصر بدفعها سنويا . ولقد أبلغ ديزرىلى الملكة فكتوريا يوما بأن ليس لدى الباب العالى مانع من بيع سيادته على مصر و كريت وقبرص(٢). ويظهر ان جلادستون كان على علم بهذه الحركة وانتقدها انتقادا لاذعا ، كما انتقد شراء ديزريلى لاسهم الخديو في قناة السويس من قبل . ولقد انتشرت اشاعات عن هذه الحركة الى درجة أن اضطر رئيس الحكومة الانجليزية الى أن يطمئن فرنسا من هذه الناحية (٣)، واهملت فكرة الشراء اهمالا تاما .

ويعلم الساسة الالمان جد العلم انه اذا احتلت انجلترا وادي النيل فسيكون لذلك بلا ريب أعمق الاثر وآلمه فى فرنسا ، ولذا فالحكومة الفرنسية لن تتنازل عن مطالبها وعمالها من نفوذ فى البحر الابيض المتوسط الا اذا ضمن لها الانجليز زيادة

---

(١) انظر المصدر السابق ، الي بزمرك ٢٨ يونيو ١٨٧٨ .

(٢) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone صفحات ٢٢٥ ، ٣٠٩ .

(٣) كان أول من كشف عن هذه الحركة الاستاذ سيتون واطسون كشفها فى الوثائق الروسية ويذكر ذلك الاستاذ أن اتهامات جلادستون لدزريلى غير صحيحة لان زميله فى حزب الاحرار لورد جرانفل يعلم جيدا أن ديزريلى لم يحاول اجراء صفقة شراء مصر . انظر الكتاب السابق صفحات ٢٢٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠

نفوذها فى بحر الشمال ، وذلك بأن توافق الحكومة البريطانية على ضم بلجيقا لفرنسا وتعويض المانيا بهولندا لحفظ التوازن الدولى فى اوربا،وهذا ما لم تكن حكومة لندن تستطيع أن تقبله بأى حال من الأحوال.

ولقد وجد من رجال الدبلوماسية الانجليزية من يعضد وجهة النظر الألمانية . فالسفير الانجليزي فى برلين لورد أودو رسل Lord Odo Russell كان يحبذ أخذ انجلترا لمصر ، ويري فى ذلك حلا طبيعيا وسلميا مريحا للمسألة الشرقية ، ولا ريب في أن الرأي العام الانجليزي في سنة ١٨٧٨ كان قد تحول الى تعضيد هذا الرأى وأخذ يحن الى اليوم الذي يري فيه العلم الانجليزى يرفرف على قلعة القاهرة، ويود القيام بأية تضحية للوصول الى هذه الغاية ، وكان فريق من أفراد العائلة المالكة الانجليزية يري من بداية الأمر انتهاز هذه الفرصة ، فرصة اشتغال المسألة الشرقية لامتلاك مصر . فقد كتبت الأميرة آل Crown Princess الى الملكة فكتوريا فى ١١ يوليو سنة ١٨٧٧ رسالة تقول فيها « ان كل من يحب انجلترا يرى اغتنام هذه الفرصة ، فرصة وضع أقدامنا فى مصر[١] » . على ان أودو رسل كان يشكو دائما من انه لا يوجد عضو واحد فى الوزارة الانجليزية يأخذ بفكرته او يري قريبا منها ، وذلك خشية عداوة فرنسا .

فلقد كان موقف وادنجتون Waddington وزير الخارجية الفرنسية في ربيع سنة ١٨٧٨ صلبا لا يتغير فى هذه المسألة ، فالحجر الأول في أساس سياسته هو منع الانجليز من احتلال مصر بأى ثمن . ولذا فقد أعلن إعلانا لا يشوبه غموض وذلك عند دخوله الوزارة بأنه لن يقبل أبداً احتلال انجلترا لوادي النيل . وكما يقول السفير الألمانى فى باريس برنس هوهنلوه Hohenlohe ان جانبا كبيرا من الرأى العام الفرنسى كان يعضد وادنجتون فى هذه المسألة بالذات ، ولو ان حملة الأسهم

(١) نفس المصدر السابق

الفرنسيين ربما كانوا يفضلون احتلال الانجليز لمصر لأنهم يجدون في ذلك الاحتلال خير ضمان لحقوقهم (١). ولقد اتبع الوزير الفرنسي بدقة السياسة التى أعلنها ولم ينحرف عنها ، فلم يقبل اشتراك الحكومة الفرنسية فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ إلا إذا اقتصر عمل المؤتمر ومناقشاته علي معالجة الموقف السياسى الذى نشأ عن معاهدة سان ستفانوا بين الباب العالى وروسيا ، وأصر علي ضرورة موافقة الدول العظمى علي ألا تعرض مسألة مصر وتونس وسوريا على بساط البحث في المؤتمر بأي حال، وفعلا وجدت الفكرة موافقة تامة من كل الدول (٢).

ولكن منستر السفير الألمانى فى لندن ظل يردد الفكرة الالمانية على اسماع لورد بيكونزفيلد ووزرائه ، وخاصة علي وزير الخارجية الجديد لورد سولسبري Lord Salisbury ، لأن منستر كان يعلم جد العلم أن الوزير الجديد من أكبر دعاة الامبراطورية فلقد كان وزيرا لشئون الهند له همة ونشاط ليس لسابقة لورد داربى (الذى استقال من الوزارة عقب نزاع شديد ثار بينه وبين رئيس الوزارة) ، له رأيه الخاص في مسألة بقاء الدولة العثمانية ، فهو عديم الثقة بها ميال الى تقسيمها والعمل على انحلالها ، ويرى أن بقائها مهزلة من مهازل السياسة لا ينبغي استمرارها ، ويعتقد أن السياسة البريطانية القديمة فى المحافظة على بقاء الدولة العثمانية وكيانها سياسة عديمة المنفعة لا غناء فيها ولا تتفق والوقت، وهو يحرص علي الاتفاق مع روسيا أكثر مما يميل الى الحرب معها . ولقد كان سولسبرى منذ كان وزيرا للشئون الهندية دائم التفكير فى المحافظة على مصالح انجلترا لا بحماية تركيا من الخطر الروسى ، وانما بالاستيلاء على بعض ممتلكات الدولة العثمانية

(١) الوثائق الألمانية هوهنلره الي بزمرك ١٥ مارس سنة ١٧٧٨

(٢) الوثائق الالمانية بيلوف الي منستر ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، وبيلوف الى هو هنلوه ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، 1ère Série: Documents Diplomatiques Français. الجزء الثاني

التي تضمن لانجلترا سلامة امبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الى الهند ، فهو كما يقول للورد ليتون Lord Lytton «ان سياستنا الخارجية تنقصها الجرأة والخطة المرسومة» وأن المحافظة على الطريق الى الهند لا تكون الا بأخذ مصر وكريت والاشتراك فى القضاء المبرم على تركيا (١).

ولذا فموضوع مصر من المسائل التي يشوق سولسبرى التفكير فيها والمناقشة مع السفير الالماني ، ولكنه حين كان يخلو الى بقية أعضاء الوزارة كان دائماً يجدهم غير ميالين إلى أخذ مصر ، فكما يقول لمنستر إن هناك مسألتين تمنع زملاءه من التفكير جديا في مسألة أخذ مصر أولاها التعقيدات والتضحيات المالية وثانيهما عداوة فرنسا ، ولكن السفير الالماني كان قد تكهن بما يدور في خلد الوزارة الانجليزية ، ولذا فهو يجيب بأن هذه المصاعب مبالغ في تقديرها دون ريب ، فموارد مصر المالية متى أديرت إدارة حسنة تحت رعاية انجلترا وتحت اشراف موظفين انجليز فانها تستطيع القيام بكل التعهدات المالية التي ارتبطت مصر بها ، وأن الدائنين الفرنسيين يهمهم قبل كل شىء أن تسدد ديونهم وتدفع فوائدها ، ولا يأبهون كثيرا لذكريات فرنسا التاريخية أو لما تدعيه من أعمال مجيدة فى مصر ، ثم ما الذى يجعل الانجليز يظنون أن هدف فرنسا هو مصر ؟ فهدف فرنسا الحقيقى هو تونس لكي تستطيع حماية مصالحها في الجزائر . ثم بعد ذلك ما الذى تستطيعه عداوة فرنسا؟ فهل تستطيع فرنسا في الوقت الحاضر اعلان الحرب على انجلترا من أجل مصر ؟

ولما وجد سولسبري عدم اتفاق زملائه فى الوزارة على مسألة احتلال مصر اضطر غير راض الى ترك هذا المشروع ، ثم من ناحية ثانية سولسبرى نفسه كان دائما كبير الاهتمام بصداقة فرنسا ، وخاصة فى الوقت الذى تخلت فيه ايطاليا عن

---

(١) Seton Watson: Disraeli and Gladstone ص ٢١٩

مساعدة انجلترا فى المسألة الشرقية ضد روسيا(١) فسولسبرى يؤمن بضرورة تعاون الدولتين الغربيتين فى كل ما يختص بمسائل البحر الابيض المتوسط . بل لقد أصبح ذلك التعاون أمرا حيويا بالنسبة لانجلترا طالما كانت تبغى ألا تنضم فرنسا الى المعسكر الروسى . ومن الاسباب الاساسية التى جعلت الحكومة الانجليزية لاتأخذ بالعرض الالماني هو تشككها في سياسة بزمرك ، فكانت تخشى دائما أن يكون المستشار الالماني قد عرض مصر على فرنسا لتعويضها عن الالزاس واللورين في نفس الوقت الذى عرضها فيه على انجلترا .

وظل موقف المانيا بالنسبة لانجلترا فى هذه المسألة كما هو ، ظل موقف الصداقة والتأييد ، ولذا حين تعقدت الظروف بعض الشيء بين فرنسا وانجلترا أعلن بزمرك للسفير الانجليزى لورد أودورسل بأنه مستعد لتأييد بريطانيا العظمى «لان من مصلحة المانيا أن يتفوق نفوذ انجلترا على نفوذ فرنسا في مصر» ، وهو مع ذلك ماض فى تأييده للتعاون بين الدولتين (٢) . وحين أرادت الحكومة النمسوية المجرية استغلال صداقة المانيا فطالبت بأن تشترك مع الحكومتين الفرنسيه والانجليزية فى الاشراف على شئون مصر أشار اليها بزمرك بأدب بأن مصالح انجلترا وفرنسا اضعاف مصالح المانيا والنمسا ، وأن هذه المصالح تبرر فى نظره مركزهما المفضل فى مصر ونفوذهما الممتاز ، وأنه يفضل أن يوكل إلى انجلترا وفرنسا أمر حماية مصالح رعاياه في مصر على شرط أن تقوم هاتان الدولتان بحماية مصالح الدول الأخرى على قدم المساواة مع مصالحهما وبنفس الاهتمام(٣).

---

(١) لما استفحل الخطر الروسى فى أوائل سنة ١٨٧٨ فكرت انجلترا فى انشاء عصبة من دول البحر الأبيض المتوسط تكون غايتها منع امتداد النفوذ الروسى الي ذلك البحر، وعرضت الفكرة على ايطاليا فرحبت الحكومة الايطالية فى أول الأمر بالمشروع ثم نكصت على عقبيها

(٢) Winfred Taffs: Ambassador to Bismarck: Lord Odo Russell ص٣٠٦

(٣) الوثائق الالمانية دكتور بوش Busch فى وزارة الخارجية الالمانية الي ولي عهد المانيا ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

ولقد أيد المستشار الألماني انجلترا وفرنسا تأييدا لا يعتريه ضعف في موقفهما ضد الخديو اسماعيل في أوائل سنة ١٨٧٩ حين تحدي أوربا وأراد التخلص من العنصر الاجنبي ، فأرسل إنذارا الى مصر زلزل مركز الخديو، ووافق على فكرة الدولتين الظالمة في طلب عزل الخديو ، بالرغم من أن كلا من روسيا وإيطاليا كان يعترض على حق الدولتين فرنسا وانجلترا في طلب تخلي الخديو عن عرشه ، فهذا تدخل صريح في شئون مصر لا يتفق والعرف الدولي ، ولكن تأييد بزمرك وعدم اكتراثه بما لاسماعيل من حقوق جعل معارضة روسيا وإيطاليا لا قيمة لها ، فغادر اسماعيل مصر حزينا وتولى شئونها توفيق .

وتعقدت المسألة المصرية من الناحية الدولية في أوائل عهد الخديو توفيق ، وأنذرت الثورة العرابية بخطر كبير ، فثبتت ألمانيا على موقفها في أن ليس لها مصالح مهمة في وادي النيل تدعوها للتدخل مباشرة ، وظلت متمسكة برأيها في الاعتراف بمركز انجلترا وفرنسا الممتاز في مصر (١) ، فكما يقول لورد أودورسل عن بزمرك « إنه (أي بزمرك) راغب في منح تأييده لأي سياسة تتفق عليها انجلترا وفرنسا في مصر، لأنه يري في الاتفاق الفرنسي الانجليزي أساسا للسلام والنظام في أوربا، ويري فوق ذلك أن تنضم المانيا إلى جانب ذلك الاتفاق بتأييده وتعضيده» (٢).

وحين لجأت وزارة الأحرار وعلى رأسها جلادستون إلى المانيا لتعرف موقفها إزاء الثورة العرابية كان رد بزمرك بأن انجلترا أعلم بما يجب أن يكون عليه موقفها إزاء ذلك التعقيد الجديد في المسألة المصرية ، ولكنه بين في نفس الوقت أن سياسته كسياسة انجلترا ، فمن مصلحة الدول جميعا كما يعرف هو المحافظة على الموقف السياسي الراهن في مصر وتعضيد سلطة الخديو .

---

(١) نفس المصدر بزمرك الي رادوفيتس Radowitz ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٩

(٢) رسل الي جرانفل ٢٩ ابريل ١٨٨٢

Taffs: An Ambassador to Bismarck عن Foreign Office. 64. 939. No. 120.

فبين جرانفل وزير الخارجية الانجليزية أن الحالة في مصر خطرة، فوفقا لتقارير قنصل انجلترا الجنرال في القاهرة الخديو جد متشائم من سير الأمور الداخلية وأنه يائس جدا من استقامة الأحوال، ولذا فالحكومة الانجليزية مصممة على تقوية مركزه وشد أزره بأن تعلن الدول الكبرى في صراحة وجلاء تام عن رغبتها فى المحافظة على الحالة السياسية الموجودة، ولذا فقد أصدرت الحكومتان الفرنسية والانجليزية إلى قنصليهما الجنرالين في مصر بأن يبينا للخديو عن هذه الرغبة بمذكرة يناير المشهورة. وذكر جرانفل أن فرنسا قد تعاونت مخلصة مع انجلترا فى هذه المسألة، ولما وضح هربرت بزمرك أن المانيا لن تعترض علي ما حدث، ولكنها ترغب في أن يوكل الى الأتراك أصحاب السيادة فى مصر أمر المحافظة علي النظام(١) أجاب جرانفل إجابة قلقة مضطربة تدل علي أحد شيئين: إما أنه يريد اخفاء خطة استنها انجلترا، واما ان الوزارة الانجليزية لا تزال غير متفقة فيما بينها على السياسة التي يجب اتخاذها حيال مسألة مصر. ولذا فهو يردد بأنه ما فتيء يعتقد أن إعادة النظام الى مصر على يد الأتراك هو خير الحلول الممكنة وأنه شر لا بد منه، على أن جرانفل لم ينس أن يذكر لابن بزمرك ومبعوثه في لندن بأن ما صرح به هو رأيه الشخصي، وأنه لا يزال لا يدرى إذا كان اخوانه فى الوزارة يشاطرونه هذا الرأى، ثم أضاف بأن قيام انجلترا بعمل وحدها في وادي النيل هو ضرب من المحال، وان من المغامرة تعاون فرنسا وانجلترا في القيام بعمل وحدهما، وأن ترك

---

(١) وكان الاتراك عقب مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ قد لجأوا الى المانيا ابتغاء النصح والحماية وقابلت برلين ذلك الود بمثله وأجابت بعض طلبات الأتراك الخاصة بارسال بعض الموظفين الألمان الى الاستانة تمادعا الى تخوف السفير الانجليزى فكتب الى جرانفل يقول: It is evident that the exchange of compliments, of presents, of diamonds and of assurances, of mutual respect and admiration has practically led to a state of real intimacy between Germany and Turkey which has never before existed and which gives the Sultan a welcome excuse for leaving his ways umended.» March 22, 1882. F.O. 64. 1005. No. 102 عن Taff: An Ambassador to Bismarck

الأتراك يتدخلون وحدهم لحفظ النظام والأمن في مصر قد يؤدى الى صعوبة التخلص منهم فيما بعد ، ولكن ميزة تدخل الاتراك وحدهم هو عدم وقوع التشاحن بين الدول الأوربية الكبري من جراء مسألة مصر (١).

ولقد لاحظ المبعوث الألماني هربرت بزمرك تضارب أقوال جرانفل مما لا يبشر فى نظره باستقرار الحكومه الانجليزية على رأي فى مسألة مصر ، فهي حانقة غاضبة علي الباب العالي لعدم قيامه بتنفيذ شروط معاهدة برلين كما يجب ، وهى فى حيرة من أمرها فيما يختص بمصر . علي أن ما كان يخشاه جرانفل قبل كل شىء هو أن تصبح مسألة مصر مسألة دولية ، هو تدخل الدول الكبرى فى مسألة مصر ، ولذا فهو يبين لألمانيا أن مثل ذلك التدخل ليس من صالح السلام فى أوروبا .

ولما كانت الحكومة الانجليزية ترى من المهم أن تتعاون فرنسا معها فى مسألة مصر ، هذا قوى من فكرة المستشار الألماني بأن سياسة انجلترا الخارجية لا يزال ينقصها الحكمة وبعد النظر « بدرجة لا يوجد لها مثيل فى تاريخ انجلترا » فانجلترا كما يرى أصبحت مقيدة بسياسة فرنسا الخارجية فهى لا تفكر إلا في التعاون مع فرنسا وإلا فى صداقة فرنسا ، وهاله أن يرى «وزارة جلادستون تندفع من مغامرة لأخرى »، فاذا كانت الحكومة البريطانية قد اتفقت مع الحكومة الفرنسية علي أن تكونا فى عزلة عن بقية دول أوربا بتدخلهما وحدهما في مسألة مصر ، فان علاقات بريطانيا العظمى مع الدول الأوربية الأخرى التى لها مصالح فى الشرق لابد وأن تتأثر تأثرا سيئا » وخاصة إذا حدث «وساءت علاقة انجلترا بفرنسا لتباين مصالحهما»، ولذا في آخر الأمر « فان انجلترا ستجد نفسها وحيدة منفردة فى أوروبا نتيجة لسياستها الحائرة المترددة» (٢)

(١) الوثائق الالمانية هربرت بزمرك الي بزمرك ٧ يناير سنة ١٨٨٢

(٢) نفس المصدر هاتسفلت Hatzfeldt فى برلين الي رويس Reuss السفير الالماني فى فينا ١٥ يناير سنة ١٨٨٢

وما كان بزمرك يثق فى حسن فهم جلادستون لشئون السياسة الخارجية ، وما كان يستطيع أن يقيم وزنا كبيرا لتصريحات جرانفل أو لآرائه الشخصية نظرا لضعفه وتردده وقلة حيلته، كما كان الشك يساوره دائما فى سياسة جمبتا الفرنسية ولذا فهو في سياسته العامة الأوربية معتمد علي الدول الامبراطورية النمسوية المجرية والروسية . أما فى مسألة مصر فهو لم يحد عن سياسته التقليدية التى تنطوي علي عدم إثارة العراقيل في وجه السياسة الانجليزية وإن كان لا يروقه أن يرى الحكومة الانجليزية تتبع ظل الحكومة الفرنسية .

ولكنه كان حريصا وخاصة بعد سقوط وزارة جمبتا الفرنسية فى أول شهر فبراير سنة ١٨٨٢ على أن يؤيد الخطوات التى تقوم بها الدولتان الغربيتان علي شرط أن تحوز هذه الخطوات موافقته ، وإن كان يفضل المحافظة علي الحالة السياسية الراهنة فى مصر ، وكان يعضده فى وجهة النظر هذه الدول الشمالية الروسيا والنمسا ، فهو لذلك ينصح بتدخل السلطان وحده ، ولكنه بين مع ذلك أنه لن يعارض اذا تدخلت الدول الأوربية الكبرى جميعها متعاونة ، وأسر الي الانجليز فى نفس الوقت بأنه سيحاول ارضاءهم بقدر المستطاع علي الرغم من ارتباطه بالدول الشمالية ، ولذا يبعث لورد أودو رسل السفير الانجليزى فى برلين بوثيقة سرية الى حكومته مؤرخة ٢٠ مايو سنة ١٨٨٢ يقول فيها:

Dr. Busch has told me (privately and confidentially) that although Prince Bismarck had not felt at liberty to separate himself officially and depart from the attitude assumed by Count Kalnoky and m. de Giers in regard to sending instructions to their representatives at Constantinople, His Highness has nevertheless instructed him to speak privately to the Turkish Ambassador Sadoullah Pasha in the sense desired by your Lordship and that he had abready done so, and recommended him to advise his Government not to exaggerate the effect of the naval demonstration but

to abstain from interference and confide implicitly in the policy and good intentions of England and France». (1).

ولقد أطلع بزمرك حلفاءه علي وجهة النظر هذه ، وأيد إبحار أسطول الدولتين للمحافظة علي الأمن والنظام وتعضيد سلطة الخديو علي حسب الفرامانات التي اعترفت بها دول أوروبا (٢).

ولم يكن بزمرك مرتاحا الي رغبة الحكومة الانجليزية فى أن تطلب من الباب العالي إرسال جنوده الى مصر لاعادة الهدوء اليها ، فلم يكن يعضد فكرة اصدار الدول أوامرها للحكومة العثمانية ، فهو يرى فى ذلك انتقاصا كبيرا من حقوقها ، وتحديدا لسلطتها لامبرر له ، ولقد أبدي السفير الانجليزي فى برلين أسفه لذلك الموقف من جانب الحكومة الألمانية ، ذلك الموقف الذي ربما سبب كثيرا من المتاعب لما لألمانيا من كلمة مسموعة لدي كثير من الدول الأخرى . ولقد أجاب هاتسفلت على ذلك ، وكان قائما بأمور وزارة الخارجية الألمانية بأن فرنسا لا تؤيد انجلترا فى مطلبها الخاص بأرسال الباب العالى لجنوده الي مصر ، وأسر الى السفير الانجليزي بأن بزمرك لن يقبل الاشتراك مع انجلترا فى الانتقاص من حقوق السلطان أو من سيادته ، ويرى أن الحل الوحيد للصعوبة الحالية هو ترك السلطان يفصل فيها بطريقته الخاصة ، فالأتراك لهم وسائل ناجعة فى تسوية مثل هذه المشاكل:

«The Turks had a way of their own of pacifying their co-religionists; they gave their agents a sword in one hand, and a bag full of decorations in the other, money in every pocket and told

(١) F.O. 64. 1006. No. 169. عن Taffs: Ambassador to Bismark صفحات ٣١٠ ، ٣١ . دكتور بوش من كبار موظفي وزارة الخارجية الالمانية . كونت كالنكى وزير خارجية الامبراطورية النمسوية المجرية ، مسيو دي جرز وزير الخارجية الروسية — المظاهرة البحرية هي المظاهرة التى قامت بها انجلترا وفرنسا في ميناء الاسكندرية

(٢) نفس الكتاب . رسل الي جرانفل ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ . ص F.O. 64 1006. No. 188.

them to make the best of their chances».(1)

ولما سأل رسل السفير الانجليزي عن الوسائل التى يمكن التخلص من الاتراك بعد ذلك أجاب هاتسفلت بأن هذه المسألة متروكة للمستقبل ، وأن قناصل روسيا والمانيا والنمسا وايطاليا قد سجلوا فى تقاريرهم أن هذه الطريقة هى خير الطرق التي يجب الأخذ بها لحل المشكلة المصرية ، لأن التدخل الحربى حتي ولو كان عثمانيا سيؤدى فى آخر الأمر الى كوارث ، وأضاف الى ذلك قائلا: ان كل ما يهم المانيا هو السلام وعدم وقوع حرب من أجل مصر «وان البرنس بزمرك يكون سعيدا لو استطاع نقض يديه من كل المسائل الشرقية ، ولـكنه كعضـو فى التآلف الأوربي مضطر لتأييد الدول التى يهمها ذلك الموضوع في الوقت الذي تجد نفسها متفقة فيه ، فسياسته هي عدم توسيع شقة الخلاف بين الدولتين انجلترا وفرنسا، وإنما هي العمل دائما علي تعاونهما والتوفيق بينهما لأنه يري السلام والمصلحة في ذلك» .

«Prince Bismarck had always agreed that a difference of opinion with regard to Egypt was inevitable and his earnest desire was not to foster such differences when they sprang up, but on the contrary to contribute as far as was is his power towards the continuance of the Anglo-French alliance which he has always welcomed as a guarantee of peace in Europe». (2)

وعلي أي حال قبل بزمرك الاشتراك فى مؤتمر الآستانة الذي انعقد من الدول الـكبرى لمناقشة المسألة المصرية ومعالجتها ، ولو أنه كان لا يؤمن كثيرا باستطاعة المؤتمرات حل المشاكل الدولية ما لم تتفق الدول صاحبة الشأن علي حل هذه المشاكل من قبل . ولذا لم يكن كبير الأمل فى نجاح ذلك المؤتمر . وجدت الحكومة الالمانية أن فرنسا لم تكن بكبيرة الرغبة في نجاح ذلك المؤتمر لأن فكرته الأساسية لم تلق

(١) نفس الـكتاب صفحات ٣١٢ ، ٣١٣ . رسل الي جرانفل ١٧ يونيو ١٨٨٢
F.O. 64. 1006. No. 212.

(٢) نفس الـكتاب السابق صفحات ٣١٢ ، ٣١٣ . رسل الى جرانفل ١٧ يونيو ١٨٨٢
F.O. 64. 1006. No. 212.

ترحيبا فى باريس ، فالحكومة الفرنسية كانت عاقدة العزم علي مناهضة كل مبدأ يقول بتدخل الأتراك الحربى فى مصر خشية ازدياد قوة الاسلام فى شمالى افريقية الأمر الذي يعمل دون شك علي اضعاف مركزها فى الجزائر وفى البحر الأبيض المتوسط . وأيقنت ألمانيا أن المؤتمر سيفشل فى خطواته نهائيا لأنها (أي ألمانيا) لم تكن مستعدة لانتداب الدولتين الغربيتين انجلترا وفرنسا لحل مسألة مصر وانتقاص ما للسلطان من حقوق في هذه البلاد ، وان لم تكن تعارض في قيام الدولتين إذا أرادتا — بأرجاع النظام الي مصر على مسئوليتهما الخاصة ، فألمانيا لم ترد أخذ دور إيجابى في المسألة المصرية ، وكانت ترى أن إرسال الدولتين لأسطوليهما الى مياه الاسكندرية كان سببا فى حدوث المذبحة المشهورة وفى اثارة العسكريين المصريين إلى اقامة التحصينات والى الاستعداد للحرب ، ولكن ألمانيا بالرغم من ذلك لم تقم باثارة عراقيل في وجه الانجليز ، ولم تقتصر على ذلك بل لقد عملت علي الوقوف أمام محاولة روسيا تكوين حلف من بعض دول أوربا للاحتجاج على سلوك انجلترا في مصر ،وذلك بعدضرب الانجليز لمدينة الاسكندرية وهنأت المانيا الحكومة الانجليزية علي نجاح العمليات الحربية ، ولما احتلت انجلترا قناة السويس فأثارت جانبا من الرأي العالمى ضدها كان موقف المانيا الصريح في تأييد انجلترا عاملا على تهدئة الخواطر فى أوربا نحو بريطانيا وخفوت صوت المحتجين . ولما كانت مصالح المانيا فى قناة السويس تجارية قبل كل شيء وليست سياسية لم تعارض السياسة الانجليزية وان كانت لم توافق علي طلب الحكومة الانجليزية بالاشتراك معها في ضمان حرية الملاحة فى القناة. ولم تناصر المانيا الجهود التى قامت بها بعض الدول الكبري لتطلب من انجلترا تفسير أعمالها وتوضيح موقفها ، بل اقتصرت علي إرسال هربرت بزمرك الي لندن ليقف علي سياسة انجلترا الجديدة إزاء المسألة المصرية ، ودعا القيصر الألماني والقيصرة الألمانية السفير الانجليزي لورد أودو رسل الى وليمة فاخرة لتهنئته

على النجاح العظيم الذى صادفته حكومته . ولم يخف السفير الانجليزى من ناحيته سروره ، فبعث بدوره يهنىء حكومته بسياستها «القوية» الوطنية القومية التى نالت تقدير االنيا .

ولما جاء أمر تنظيم انجلترا لشئون مصر أعلن بزمرك للورد جرنفيل ان الحكومة الألمانية لن تثير صعوبات او متاعب أمام انجلترا فى هذه الناحية. ولما ثارت المناقشة بعد ذلك في أمر مصير مصر ساء بزمرك أن يجد الوزراء الانجليز غير متفقين فيما بينهم علي السياسة التي يجب أن تتبع ، مضطربي الأعصاب قلقين كلما ذكرت دولة أجنبية اسم مصر. ولكن المستشار الألمانى ظل علي ولائه لسياسته القديمة التقليدية، ولم يخف أمام الحكومة الانجليزية المترددة أنه علي استعداد لئن يذهب فى تأييدها الى حد ضم مصر الي الممتلكات البريطانية إذا أرادت ذلك ، وان كان ينصح بأن من الخير لهم أي الانجليز لو وطدوا أقدامهم فى مصر تحت سيادة تركيا ، وبذا لا يضعف مركز السلطان فى العالم الاسلامي ولا ينال تركيا الهزال والانحلال ، وبذا لا تجعل انجلترا من السلطان عدوا مبينا لها فتفتح الباب واسعا أمام دسائس الدول الأوربية المعادية لها ، أما اذا اتبعت انجلترا سياستها التقليدية القديمة ، سياسة التحالف مع الباب العالى فانها تعزز مركزها في مصر وتركيا ، وتحكم مصر من القاهرة والآستانة معا ، ويكون انتفاعها أكبر ، بل سيكون هذا عاملا علي تيسير الأمور لبريطانيا فى البحر الأبيض المتوسط . ولعل بزمرك كان يرمي من وراء ذلك عدم اعطاء روسيا فرصة للاتفاق مع فرنسا على محاربة نفوذ انجلترا فى مصر والشرق الأدنى ، كما انه لم يكن يرمي الي تمهيد الطريق أمام الباب العالي للانضمام الى جانب فرنسا .

اقترح المستشار الألمانى إذن ابقاء مصر تحت السيادة العثمانية ، ولكنه اقترح بجانب ذلك أن يجعل الانجليز من وظيفة قنصلهم الجنرال فى مصر وظيفة مشابهة

لوظيفة المقيم العام الفرنسى فى تونس ولعل بزمرك كان يبغي أن يعرف من وراء ذلك الاقتراح مدى رغبة الانجليز فى التسلط على الأمور فى مصر ومـدي محاكاتهم للوسائل الفرنسية فى الحكم الامبراطوري ، ووافق وزير الخارجية الانجليزى جرانفل على الفكرة الاولى بابقاء مصر تحت السيادة العثمانية فالفكرة وجدت هوى فى نفسه لانها صادرة من المانيا ولن تستطيع انجلترا القضاء على السيادة العثمانيـة دون الاستهداف لخطر غضب المانيا وسخط الدول الأخرى ، وكانت تركيا فى ذلك الوقت قد نجحت فى التقرب من المانيا الى حد أن المستشار الالماني قد وافق على ارسال بعثة المانية حربية الى الآستانة لتنظيم الجيش العثماني ، فالقضاء على السيادة العثمانية سيثير لانجلترا فى مصر مشاكل لاعداد لها »

ولـكن جرانفل اعترض علي الفكرة الألمانية الثانية بجعل وظيفة ممثل انجلترا في مصر مماثلة لوظيفة المقيم الفرنسى في تونس وقال « بأن انجلترا لن تذهب الى هذا الحد ولن تستطيع تطبيق وسائل فرنسا فى تونس علي مصر وقناة السـويس » (١) ولم يبين جرانفل أى نظام ستتبع انجلترا في مصر ! ولـكنه ذكر أن انجلترا ستجعل المرور فى قناة السويس حرا لجميع الدول في وقت السلم والحرب وأنها « لن تفرض نظام الحماية على مصر » . ولعل الوزير الانجليزى أراد أن يثبت للالمان حسن نية الحكومة الانجليزية فهي غير مستعدة للامعان فى استعمار مصر فهى لن تعمل على استغلال هذه البلاد لصالحها ولن تعمل علي الاستئثار بالسلطة فيها . ولـكن جرانفل أحب أن يتحسس رأى بزمرك فى أمر مصير مصر فقال المستشار الالماني «إنه ترك أيدى الانجليز حرة في وادى النيل » يفعلون فيه ما شاءوا .

ولما أشار جرانفل الى موقف فرنسا العدائى ومناهضتها لسياسة انجلترا مما قد يكون له خطر علي مركز الانجليز ، كان بزمرك يهون من خطر ذلك الموقف،

(١) الوثائق الالمانية مذكرة سياسية لهربرت بزمرك (فى لندن) ١ اكتوبر سنة ١٨٨٢

ويذكر الحكومة الانجليزية بأنه طالما كانت المانيا قوية ومهيبة الجانب ، وطالما كانت صديقة لانجلترا فلن تستطيع الجمهورية الفرنسية التحرش جديا بانجلترا ، ولن تستطيع الذهاب الي حد إعلان الحرب عليها ، فدستورها وحالتها الحربية لا يسمحان لهما بذلك وخاصة وأن المانيا واقفة بالمرصاد ورقيب جبار عتيد على حركاتها .

ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تتقرب من المانيا في مسألة تقرير حرية المرور فى القناة ، لأن هذا هو كل ما يهم المانيا في نظر انجلترا ، وطلبت كذلك اشتراك المانيا فى ضمان حرية الملاحة فى هذه القناة ، ولكن المستشار الألماني ما كان يريد التورط فى مسألة مصر أو القناة ، فبين لانجلترا أن المانيا كدولة تجارية ترحب بلاشك بحرية المرور فى القناة ، ولكنها غير مستعدة للذهاب الى حد قبول الاشتراك فى ذلك الضمان لأنه ربما اعترضت على هذا المبدأ إحدي الدول البحرية الكبرى ، والمانيا غير مستعدة للدخول فى حرب من أجل مصر أو القناة. (١)

وقدرت انجلترا حق التقدير موقف التأييد العظيم الذي وقفته المانيا في المسألة المصرية أبان أشد أزماتها ، فشكر وزير الخارجية البريطانية الحكومة الالمانية ، وكرر زملاؤه ذلك الشكر أكثر من مرة فلقد أعلن هاركورت Harcourt أحد الوزراء الانجليز « بأنه الى المانيا وحدها يرجع الفصل فى جعل يد انجلترا حرة في مصر ، فلقد كان فى وسع بزمرك أن يقلب العربة بانجلترا ».(٢)

ولقد ظل موقف المانيا فى سنة ١٨٨٣ واحدا لا يتغير ، ولكن الظروف السياسية تغيرت تغيرا تاما واضحا فى سنة ١٨٨٤ . فى هذه السنة تمت الجمعية الاستعمارية الالمانية وتأسست الصحيفة الاستعمارية .Kolonial Zeitung, .

(١) نفس المصدر السابق شتوم Stum قائم بالاعمال فى لندن الى هربرت بزمرك ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٢ ، هربرت بزمرك الي شتوم ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

(٢) نفس المصدر السابق هربرت بزمرك الي بزمرك ١٤ يناير سنة ١٨٨٣.

لم تكن للدولة الألمانية سياسة استعمارية فى السنوات التى سبقت هذه السنة، فلقد كان بزمرك راغبا عن الاستعمار ، ويرى أن الوقت غير مناسب، وأن جهود المانيا السياسية يجب أن توجه الى توطيد دعائم وحدتها السياسية والى بناء مركز متفوق لها فى أوروبا . كان يري أن نشاط المانيا يجب أن يتركز فى اوربا ، وعلي حدودها الغربية بصفة خاصة طالما لم تنس الحكومات الفرنسية الرغبة في الانتقام واسترداد الولايتين المفقودتين الألزاس واللورين ، واطمأن الى مركز المانيا في اوربا بعد توطيد علاقاته مع امبراطورية النمسا والمجر نهائيا فى سنة ١٨٧٩ ، ومع روسيا فى ربيع سنة ١٨٨١، ومع إيطاليا فى ربيع السنة التالية ،فلاخوف إذن علي تفوق الدولة الألمانية فى أوربا.

فظهر حينئذ عامل جديد فى السياسة الألمانية الخارجية ، وخاصة بعد أن نمت الصناعية الألمانية وأخذ الانتاج الكبير يلعب دوره ، وتبع تقدم الصناعة نمو التجارة بسرعة هائلة ، وظهر تجار من برلين وهمبرج على شواطىء افريقية والمحيط الهادى، وانتشرت البعثات الدينية الألمانية في أرجاء العالم ، وزاد الحماس واشتد التمسك بالقومية الالمانية بعد انتصاراتها الباهرة في سادوا وسيدان . وبعد تفوقها السياسى في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، فالاعتزاز بالقومية الألمانية كان من العوامل التي دفعت الالمان الى الاستعمار ، وتفوق المانيا من الناحية السياسية في سنة ١٨٨٢ هو الذي جعل بزمرك يعيد النظر فى موقفه ازاء الامبريالزم ، ووجد التجار الالمان من الشجاعة والمصلحة أن يستقروا فى المحطات التي أنشأوها فى جنوب افريقية والمحيط الهادي، وأصبح المستشار يجد ألا غني لألمانيا عن الاستعمار ، وازداد اهتمامه به حتى اعتبره مسألة حيوية بالنسبة لألمانيا ، ولذا كان علي قدم الاستعداد لأن يجعل من مسألة الاستعمار محكا لعلاقاته بالدول الأوربية الكبري لاسيما الاستعمارية منها ، ولذا فهو مستعد لتضحية علاقاته الودية بانجلترا اذا قاومت مشاريعه الاستعمارية، وهذا يفسر لنا موقفه إزاء انجلترا في مصر فى سنة ١٨٨٤ .

لقد خشى الانجليز أن تفكر المانيا تفكيرا جديا فى الاستعمار ، وهالها تقدم التجار الالمان والبعثات الدينية الألمانية ، وأصبحت ترى فى الألمان منافسا خطيرا قويا ، فأخذت وزارة جلادستون التى لا زالت تتولى الحكم في انجلترا في أوائل هذه السنة فى وضع العراقيل أمام المستعمرين الألمان في غربى إفريقية وفى جزائر فيجى وساموا ، وهاجمت الصحافة الانجليزية بعنف السياسة الالمانية الاستعمارية، فثارت لذلك ثائرة الامبرياليين من الألمان ، بل هاج الرأي العام الالماني،وأخذت الصحافة الالمانية تهاجم فى مقالات قوية السياسة الانجليزية والصحافة الانجليزية ، وغضب بزمرك غضبا شديدا ، واتخذ من مسألة مصر ذريعة يتهدد بها انجلترا .

وبعث الى منستر سفيره فى لندن فى ٤ ابريل سنة ١٨٨٤ يطلب منه أن يذكر الانجليز بموقف المانيا نحوهم فى مسألة مصر فى سنة ١٨٨٢ ، وأن يبين لهم كيف لم تحتج المانيا على ضرب الاسطول الانجليزى لمدينة الاسكندرية ، وكيف لم تقف الحكومة الالمانية حجر عثرة فى سبيل احتلالهم لمصر ، وكيف لم تناقش مركز انجلترا الممتاز فى وادي النيل والشرق الأدني الاسلامي ، وكيف لم تثر صعوبات أمام ما اتخذته الحكومة الانجليزية فى مصر من خطط ، وكيف أن الحكومة الانجليزية شكرت الحكومة الألمانية شكرا جما علي موقف التأييد هذا المنقطع النظير .

ولذا فألمانيا لها الحق الآن فى أن تنتظر رد الجميل ، وفى أن تنتظر من الانجليز ألا يقفوا حائلا أمام حقوق الرعايا الألمان فى فيجى ، ولوح بزمرك بالوعيد والتهديد اذا عرقلت انجلترا تحقيق المطامع الألمانية ، فان الحكومة الألمانية ستدرس موقفها من جديد ازاء وزارة جلادستون وخاصة ازاء السياسة الانجليزية فى مصر. (١)

ولقد ذكر بزمرك الانجليز بمركزهم المتزعزع في اوربا ، وبين لهم ألا خوف علي انجلترا في هذه القارة الا من فرنسا ، وفى آسيا الا من روسيا . ولن يكون

(١) الوثائق الالمانية بزمرك الي منستر ٤ ابريل سنة ١٨٨٤ .

عداء فرنسا ذا قيمة أو خطرا على انجلترا الا اذا ضمنت فرنسا حياد المانيا ، وإن الحكومة الالمانية مستعدة من ناحيتها للثبات على سياستها الودية حيال انجلترا في مصر ، كما أنه ليس من الصعب علي المانيا أن تحسن علاقاتها باعداء انجلترا[١] ، وأن انجلترا يجب أن توقن بانها لن تستطيع الاعتماد على صداقة الحكومة الألمانية أو حيادها أو تأييدها فى حالة اعتداء فرنسا أو روسيا الا اذا أرضت المطامع الألمانية كاملة .

ومضى بزمرك يعلن للانجليز بأنهم اذا ناقشوا حق المانيا فى الاستعمار فان من حق المانيا أن تناقش انجلترا فى حقها فى مصر ، ونعت سياسة انجلترا بأنها سياسة أنانية «naïve egoism» ، وقال اذا استمرت الحكومة الانجليزية سادرة في غلوائها كان ذلك « امتهانا لشعورنا القومى » ، وانتقد تصرفات وزارة جلادستون وعملها علي اثارة المستعمرات الانجليزية في افريقية علي السياسة الألمانية ، وبين أن انجلترا تتمحل الأعذار لكي ترى أن المعارضة لم تأت من جانبها ، ولكن من جانب برلمانات المستعمرات ، وقال ان استقلال المستعمرات فى تدبير شئونها الخارجية مهزلة لا تصدق .

وكانت المسألة فى نظره جد خطيرة ، فلقد كانت الانتخابات القادمة فى المانيا تحتم عليه أن يبين رأى الحكومة صراحة فى الاستعمار اذا كانت تريد تأييد نواب الشعب الألماني لها .

ولما ثارت مسألة مصر من جديد ، وخاصة حين لم تصل المفاوضات الانجليزية الفرنسية بشأن الاصلاح المالى الى نجاح أيدت المانيا بحماس وجهة النظر الفرنسية ، وأكد هربرت بزمرك مبعوث المستشار الألماني في لندن لوزير الخارجية الفرنسية بأن لألمانيا مصالح مالية مهمة في مصر تصل الى مائة مليون مارك ، وحين أبدى جرانفل دهشته من

(١) الوثائق الالمانية بزمرك الي منستر ٥ مايو سنة ١٨٨٤

هذه الملاحظة وقال ان الحكومة الالمانية قد قررت منذ زمن قريب بأن ليس لها مصالح مهمة فى مصر أجاب المبعوث الألمانى بأن الأوقات قد تغيرت ، وأخذت الصحافة الالمانية تنتقد بشدة سياسة انجلترا فى مصر ، وتدحض ماتدعيه انجلترا من حقوق فى هذه البلاد وفى احتلالها ، وكان بزمرك نفسه يمد الصحافة الألمانيه بالمقالات العنيفة ضد انجلترا .(١)

وكان موقف بزمرك فى مسألة مصر داعيا لأن تعيد الحكومة الانجليزية التفكير فى موقفها ازاء الاستعمار الالماني ، وكما يظهر لم يكن كل اعضاء الوزارة الانجليزية يشاركون جرانفل رأيه في عرقلة المشاريع الألمانية . ومن بين هؤلاء شخصية فذة سيكون لها أثر عظيم فى توجيه الاستعمار الانجليزي وجهته المعاصرة . وهي شخصية جوزف تشمبرلن Joseph Chamberlain. نبغ تشمبرلن فى وزارة الأحرار وأصبح له فيها نفوذ كبير بالرغم من أن الوزارة التي كان يتولى شئونها ، وهى وزارة التجارة، لم تكن وزارة كبيرة، لم يكن تشمبرلن فى ذلك الوقت بكبير الحب لفرنسا ، وكان من القائلين بشراء الصداقة الالمانية ، وكان يعضده فى ذلك الرأي لورد هارتنجتن Hartington وسير تشارلز ديلك والبرنس أوف ويلز ولى عهد انجلترا .

على أنه فى هذه الاثناء مات لورد أمتهل Ampthill (لورد أودو رسل) وكان سفيرا لانجلترا فى برلين مدةسنوات عديدة عمل فيهاعلي توثيق الصلات بين المانيا وانجلترا ، فكان لموته أثر سيء على العلاقات الانجليزية الالمانية فلقد، عرضت الحكومة الانجليزية تعيين سير روبرت مورير Sir Robert Morier خلفا له فرفض بزمرك لأنه لم ترقه شخصية هذا الرجل ولا آراؤه السياسية ، فأسرعت الى تعيين سير ادوارد مالت Sir Edward Malet قنصلها الجنرال السابق فى مصر

---

(١) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١٦ يونيو ١٨٨٤

سفيرا لها فى برلين وهو رجل برز في الناحية الدبلوماسية . وفي هذه الاثناء أيضا كان بزمرك قد هدد انجلترا بانه اذا استمرت الحكومة الانجليزية فى موقفها العدائى بأزاء المشاريع الالمانية الاستعمارية فسيقطع نهائيا الصلات الطيبة معها ، وسيعمل علي التقريب ما بين وجهات النظر الالمانية والفرنسية ، وعمل فعلا علي اثارة صعوبات لا يستهان بها أمام انجلترا في مصر وخاصة في صندوق الدين (١) بل وذكر حكومة جلادستون بلهجة حاسمة بضرورة احترام المعاهدات التي عقدتها مصر قبل الاحتلال مع الدول الأوربية وكانت انجلترا قد فكرت فعلا في تغيير بعضها . (٢)

فلاعجب إذن إذا رأت وزارة جلادستون أن تطأطيء الرأس أمام المانيا ، وكان جرانفل وزير الخارجية الانجليزية في نظر الالمان قد كبر سنه وفقد ذاكرته واضمحلت أعصابه ، وكان هو ووزير المستعمرات لورد داربي مصدر قلق كبير لألمانيا « فلورد داربي شخصية لايمكن الاعتماد عليها كثير الشك يرى مصيدة فى كل شيء » (٣)

تراجعت الحكومة البريطانية حين وجدت أن الأمور تحرجت عليها فى مصر نتيجة لموقف المانيا ، وظهر ذلك التراجع فى التصريحات التى أدلى بها سير تشارلز ديلك لهربرت بزمرك المبعوث الألماني في لندن ، فلقد حمل ديلك بعنف على سياسة جرانفل نحو المانيا ، ونعى عليه اضطرابه في سياسته واعوجاجه وقصر نظره فى المسائل الاستعمارية ، وأن من حق الحكومة الالمانية أن تحتج على سلوكه الغبي . وأن الخطأ بلا ريب هو خطأ انجلترا . فقرر هربرت بزمرك أن الصحف الانجليزية أيا كان نوعها الحزبي قد هاجمت المانيا، وحاولت إفساد العلاقات الألمانية الفرنسية،

(١) الوثائق الالمانية الي هربرت بزمرك ٩ يوليو سنة ١٨٨٤
(٢) نفس المصدر مذكرة وليم بزمرك السياسية بتاريخ ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٤
(٣) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١ أكتوبر سنة١٨٨٤

وأن انجلترا يجب أن تعرف أن المنازعات بين المانيا وفرنسا ليست قيدا في أرجل المانيا تستغله الدول الأخري ، وأن لورد جرانفل «قد قدر صداقة المانيا لانجلترا كصداقة الدنمارك أو اليونان» ، وأنه لعله الآن يعرف من التجارب مدي قوة المانيا وقوة صداقتها حين تعقدت أمور مصر .

حينئذ كرر ديلك اعتذاره وقال إن سياسته كانت ولا تزال دائما التعاون التام مع المانيا «فأنكم لن تذهبوا إلى حد إعلان الحرب علينا من أجل مصر، ولكن فرنسا قد تفعل ذلك... وما يجب علينا أن ننظر اليه دائما هو موقف فرنسا نحو الأعمال التي نجد أنفسنا مضطرين إلى انجازها فى مصر...»(١)

كان بزمرك لايرى فى مسألة مصر أمراً حيوياً بالنسبة لألمانيا وأن المسألة الاستعمارية مسألة حيوية بالنسبة لها، لأرضاء المستعمرين الألمان من ناحية ولاستصلاح الرأي العام الألمانى من ناحية أخري، ولاتصال مسألة الاستعمار بموقف الحكومة الداخلي، وكان يعلم أن الموقف الذى وقفه في مسألة مصر كان نتيجة طبيعية لوقوف انجلترا أمام أمانى المانيا الاستعمارية ، فكما يقول «إن أقل ركن في غينيا الجديدة او أفريقيه الغربية حتي ولو لم تكن له قيمة فى ذاته هو أهم في نظرنا وفى سياستنا من كل مصر ومستقبلها»(٢) فالرأى العام الألماني لا يهتم بأمور مصر ، والمستعمرون الألمان قد وجهوا عنايتهم الى مناطق بكر جديدة ولم تكن مصر واحدة منها ، فمصر فى نظرهم مثقلة بالديون قد وقفت مواردها على خدمة أصحاب الديون من الفرنسيين والانجليز.

ولقد اتهم المستشار الألماني انجلترا بالعمل على إيقاع التشاحن بينه وبين فرنسا وروسيا ، فانجلترا كما يقول تعمل علي إثارة الأمور في أوربا ضد المانيا حتي تستطيع أن تنفذ بنجاح تام سياستها الاستعمارية في مصر وفى أفريقيه والشرق . ولذا حين

---

(١) نفس المصدر مذكرة لهربرت بزمرك ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤
(٢) الوثائق الالمانية بزمرك الي منستر ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥

خطب جرانفل فى البرلمان الانجليزى فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٥ وأراد أن يورط المانيا أمام الرأي العام الانجليزي بأن قرر أن المانيا تعطف دائما على مركز انجلترا فى مصر وتؤيدها فى سياستها تاييدا تاما، صحح بزمرك موقف المانيا، وأكد أن تصريحات جرانفل غير دقيقة وغير صحيحة ولا تطابق ما حدث فعلا و «أن بزمرك يعمل علي المحافظة على حقوق السلطان في مصر» و «أن انجلترا تستطيع أن تبسط نفوذها فى مصر بمفاوضات ودية مع السلطان وبتعاون السلطان ، وأن المانيا ليست لها مصالح مباشرة فى مصر تجعلها تثير العقبات فى وجه انجلترا»(١)

لقد كان جو المحادثات بين انجلترا والمانيا عاصفا ، وكان جرانفل كثيرا ما تثور ثائرته ويغضب ، ولكن موقف المانيا بالنسبة لمصر أرغمه على التراجع والتسليم بمطالب الألمان جميعها ، وجاء جلادستون نفسه الى هربرت بزمرك يعلن له أنه يشجع المانيا في سياستها الاستعمارية وأنه مبتهج لآمالها الحضارية . ولعل السبب المهم الذي جعل الانجليز يتراجعون هو احتمال تعاون المانيا وفرنسا البحرى ، فبحرية المانيا وفرنسا مجتمعتين متفوقة في ذلك الوقت علي البحرية الانجليزية ، ولما كان التقارب قويًا بين بزمرك وفري Ferry رئيس الحكومة الفرنسية ، فبزمرك يؤيد مطالب الفرنسيين الاستعمارية وموقفهم فى المسألة المالية المصرية ، وفرى يؤيد المانيا، استطاع التحالف الجديد تحقيق أغراض الطرفين فى مؤتمر برلين . علي أن بزمرك لم يشأ أن يتحدى انجلترا أكثر من هذا ، فهو لا يثق تماما بفرنسا ، وانجلترا من ناحيتها في أشد الحاجة الى صداقة بزمرك ، فالحالة في السودان كانت سيئة للغاية ومنذرة بشر مستطير ، ففى أول سنة ١٨٨٥ سقطت الخرطوم فى يد المهديين وقتل جوردون وضاع ما كان لانجلترا من مركز ومهابة فى الشرق بأكمله واقتحمت الجيوش الروسية حدود الأفغان وهددت الهند ، وتجمعت المتاعب والأزمات على

---

(٢) الوثائق الانجليزية المنشورة فى الكتاب الازرق Blue Book لسنة ١٨٨ فبراير ١٨٨٣ ، صحيفة Nord Deutsche Allgemeine Zeiting ٢ مارس سنة ١٨٨٥

انجلترا فى أفريقيه وآسيا بشكل عديم النظير .

صفا الجو أخيرا بين المانيا وانجلترا بتراجع وزارة الأحرار ، وزاد الجو صفاء سقوط هذه الوزارة ، فلم تعد المانيا تحرك مسألة مصر من جديد إذ كانت سياسة المحافظين التقليدية هى المحافظة علي صداقة المانيا . فعاد الى تأييد سياسة انجلترا فى وادى النيل ، ويظهر هذا حين وجدت الحكومة الانجليز نفسها مضطرة الى المانيا لتعرف رأيها فى أمر مصير مصر . ففى سنة ١٨٨٦ أثار لورد راندولف تشرشل Rundolph Churchill مسألة مصير مصر أمام السفير الألمانى فى لندن ، وأبدى قلقه من أن إحدى الدول الكبرى عازمة على إثارة موضوع جلاء الانجليز عن وادي النيل مرة أخرى ، وطلب معرفة رأى المانيا إزاء هذه الحالة الجديدة المملوءة بالنذر . فرد هاتسفلت السفير الألمانى فى لندن بأن المسألة لن تثور فى الوقت الحاضر نظرا للعلاقات الطيبة بين المانيا وانجلترا ، وعقب بزمرك فى برلين بأن المانيا لن تشترك مع أى دولة أخرى فى أى مطلب يتعلق بموقف الانجليز فى مصر ، أما إذا لم تتعاون انجلتر مع المانيا في المسائل الاستعمارية فالموقف لا بد متغير (١) . وقد بالغ تشرشل في شكر الألمان ، وبين أن التأييد الألمانى سيجعل الحكومة الانجليزية مطمئنة إلى وضع مشاريعها الخاصة باصلاح المالية المصرية فلن تخشى الآن شيئا من فرنسا (٢) .

وكان شك بزمرك المريب في سياسة فرنسا الخارجية هو الذى حمله على أن يمضى فى سياسته القائمة على صداقة انجلترا وتأييد سياستها فى مصر ، فهو يصرح لحكومة سولسبري « نحن لا نستطيع أن نعتمد على الفرنسيين كحلفاء لنا حتى في وقت الدفاع ، فالعداء بيننا وبينهم قديم وسيظل باقيا، وليس أمامنا سوى الانضمام

(١) الوثائق الالمانية هاتسفلت الي بزمرك ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦
وبرقية بزمرك الى هاتسفلت ٢٤ سبتمبر ١٨٨٦

(٢) نفس المصدر هاتسفلت الي بزمرك ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٨٦

الى جانب انجلترا»(١).

زال بزمرك من مسرح السياسة الأوربية فى سنة ١٨٩٠ ، ولم تختلف سياسة القيصر الألمانى فلهلم الثانى Wilhelm II أو المستشار الجديد كابريفى Caprivi عن سياسة بزمرك فيما يختص بمصر وإن اختلفت دوافعهما الى حد ما عن دوافعه ، وكان الباعث لهما علي انتهاج خطة بزمرك هو التقارب الجديد بين فرنسا وروسيا الذى تم بعقد التحالف بين الدولتين ، فكان من الطبيعي إذن أن تتجه المانيا صوب انجلترا وأن تهتم بالمحافظة علي صداقتها وتأييدها ، فأوربا قد انقسمت الي معسكرين المعسكر الألمانى والمعسكر الفرنسى الروسي ، فكان هدف المانيا الطبيعى هو ضم انجلترا الى المعسكر الألمانى . ووجدت المانيا في التحالف الثلاثي بينها وبين النمسا وإيطاليا خير وسيلة لأرضاء الحكومة الانجليزية سواء أكانت حكومة سولسبرى أو جلادستون . فكما يكتب وزير الخارجية الألمانية مارشال Marshall الي سفيره فى لندن هاتسفلت فى سنة ١٨٩٣ « إننا سنستمر فى تأييد انجلترا طالما كانت لها سياسة مستقرة فى مصر والشرق الأدني .... ومن اللحظة التى نعتقد فيها أن انجلترا غير قائمة بذلك أو نالها الوهن أمام روسيا وفرنسا يجب أن نبحث عن وسائل أخري لوقف أى اعتداء من جانب التحالف الفرنسى الروسي »(٢) فالمانيا إذن مستعدة للاخذ بناصر انجلترا طالما وقفت انجلترا حاجزا قويا أمام مطامع فرنسا وروسيا.

فلا غرابة إذن اذا ناصرت الحكومة الالمانية وزارة سولسبرى نصرامؤزرا، واذا أيدت وزارة روزبرى من بعده تأييدا قويا ، فكلاهما الى حد كبير كان ميالا الى الانضمام الى التحالف الثلاثى معضدا اسياسته. وهذا يفسر لناتأييدالمانيالانجلترا

(١) الوثائق الالمانية رقم ٧٠٢ وما بعدها عن
Langer: European Alliances and Alignments.

(٢) الوثائق الالمانية ٩ يوليو ١٨٩٣

فى مشاريعها المتعلقة بالدين والقضاء ومحاولاتها إصلاح الحالة في مصر ، كما يفسر لنا جهود المانيا فى تهدئة روع الباب العالى من ناحية مركز الانجليز في مصر والتقريب ما بين وجهتي النظر العثمانية والانجليزية فيما يختص بمصر ، ومحاربة جهود فرنسا المستمرة فى إثارة الباب العالى للاحتجاج ضد انجلترا أو عرض مسألة مصر من جديد علي الدول الكبري .

ولما جاءت وزارة روزبري الذى تعين فيها لورد كمبرلى Lord Kimberley وزيرا للخارجية ظلت المانيا على موقفها لاتثير صعوبات أمام انجلترا طالما لم تمس المصالح الالمانية بضرر ، وطالما كان لورد كمبرلى مخلصا فى تنفيذ آراء رئيسه روزبري ، ولذا لما اعوج كمبرلى قليلا عن السنن الذى اختطه رئيسه ، وهدد بالعمل علي التقرب من فرنسا ، وذلك حين أبدت القنصلية الالمانية بعض المعارضة للسياسة الانجليزية فى مصر في سنة ١٨٩٤ ، بينت الحكومة الالمانية لوزير الخارجية البريطانية بأنه مخطىء في اتباع مثل هذه السياسة فانه سينجم عنها لانجلترا متاعب لا قبل لها بها ، وأنها (أي الحكومة الالمانية) تعلم أن السفير الفرنسي قد هدد انجلترا بالتقرب من المانيا نهائيا والتفاهم على مسألة الالزاس واللورين ، وأنها (أي الحكومة الالمانية) تستطيع تهديد انجلترا وإثارة مشاكل معقدة لها في مصر بتأييد سياسة فرنسا ، وتستطيع بعد ذلك التفاهم مع الفرنسيين فيما يختص بحدود الرين ، فما كان أمام وزير الخارجية الانجليزية إلا الاسراع فى التراجع ، ولذا فهو يضطر الى تغيير موقفه وتحسين لهجته مع الحكومة الالمانية بل وشكرها علي موقفها العام إزاء انجلترا فى مصر (١) . نتيجة لذلك أصدرت الحكومة الالمانية الى قنصلها العام فى مصر بارون فون هايكنج von Heyking بتعليمات توجه فيها نظره بالا يعارض سياسة انجلترا وألا ينضم الى اعدائها فى المستقبل الا اذا جاءته أوامر من حكومته تفيد ذلك.

(١) الوثائق الالمانية مارشال الي هاتسفلت ٢ مايو سنة ١٨٩٤

وكان يهم المانيا فى ذلك الوقت بقاء مسألة مصر معلقة ومعقدة وموضع نزاع شديد بين انجلترا وفرنسا حتي ترى الحكومات الانجليزية ضرورة المحافظة دائما علي صداقة المانيا ، كما كان يهم المانيا ألا تؤيد سياسة انجلترا علي طول الخط حتي لا تعتبر انجلترا ذلك واجبا يجب أن تؤديه المانيا باستمرار نحوها ، ولكن ينبغى أن تكون سياسة المانيا نحو مصر — كما يرى الساسة الالمان من القيصر الى المستشار كابريفى الى وزير الخارجية مارشال — يجب أن تكون سياسة المانيا بصفة عامة غامضة مبهمة لا تعرف انجلترا حدودها ولا منتهاها ولا مقاصدها ، وأن تقوم بتأييد السياسة الانجليزية فى المناسبات المختلفة على حسب ما تملي المصالح الالمانية ومصالح دول التحالف الثلاثي (١) وأن تتخذ المانيا من مسألة مصر وسيلة لتسوية حسابها مع انجلترا في المسائل الاوربية والمسائل الاخري التي تهمها .

ولذا لم يتورع القيصر الالمانى عن تهديد انجلترا بمعارضة سياستها فى مسألة مصر اذا لم تحل مسألة الكنغو حلا مرضيا لالمانيا ، وتم للقيصر ما أراد . « فمصر ، كما يقول بارون فون روتنهام في وزارة الخارجية الالمانية ، كبلغاريا بالنسبة لنا ، ليست غاية سياسية فى حد ذاتها ، ولكنها وسيلة لتنظيم علاقات المانيا مع الدول الاوربيه (وخاصة انجلترا) بطريق تتفق والمصالح الالمانية» . ولذا لا يهم ألمانيا القيصرية فى ذلك الوقت أن يشتجر الخديو عباس الثانى في نزاع مستعر مع لورد كرومر ، ولا يهمها من يكون المنتصر منهما ، ولا يهمها اذا كان الرأى العام المصري قد نما شعوره بالقومية ، ولا تكترث لأماني المصريين فى الاستقلال اذا تعارض هذا مع المصالح الالمانية ، وانما يهم المانيا قبل كل شيء أن تكون صديقة لانجلترا ، وأن تقوم مشاكل معقدة في مصر لا تستطيع انجلترا حلها وحدها فتضطر الى طلب المعونة من المانيا والانصراف عن الوفاق الثنائى الفرنسى الروسى . (٢)

(١) نفس المصدر روتنهام Rothenham . وزارة الخارجية الالمانيــة الى بارون فــون هايكنج ٥ يوليو سنة ١٨٩٤ .

(٢) الوثائق الالمانية — بارون فون روتنهام الي بارون فون هايكنج.

وحين قررت الحكومتان المصرية والانجليزية استرجاع السودان والقضاء نهائيا علي ثورة المهديين الدراويش انتهز القيصر الالمانى هذه الفرصة لتأييد انجلترا تأييدا تاما ضد فرنسا . هددت فرنسا وثار الرأي العام الفرنسي وانذرت الحكومة الفرنسية بالحرب ، ولكن التأييد الألمانى قوى من مركز انجلترا بدرجة جعلتها تتحدى فرنسا وتقوم بتنفيذ اغراضها وارسال الحملة آمنة مطمئنة . وافق القيصر الألمانى أولا على أن تقوم المالية المصرية بنفقات الحملة الى دنقلة الا أنه رفض رفضا تاما مشروع سولسبري الذي يرمى الى تقسيم الدولة العثمانية وانفراد الانجليز بمصر ، فالقيصر صديق الدولة العثمانية فى ذلك الوقت ولا يبغى انحلالها ، وأيد القيصر وزارة سولسبرى في مسألة استرجاع السودان لأنه كان يعمل علي ازالة الاثر السيء الذى أحدثته برقية كروجر في انجلترا ، هذه البرقية التى أثارت الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى ضد المانيا . ولأنه كان يخشى أنه اذا لم تؤيد الحكومة الالمانية انجلترا في مسألة السودان ربما دعا ذلك الموقف انجلترا الى التفكير فى تغيير سياستها نحو المانيا، وتعضيد الفريق القائل بضرورة إصلاح العلاقات الانجليزية الفرنسية والانضمام الى الوفاق الثنائى الفرنسي الروسى، لا سيما وأنه أى القيصر يعلم جد العلم أن لورد سولسبرى ولو أنه ميال الى مجاملة المانيا والى تأييد سياستها الأوربية والاستعمارية الا أنه غير ميال الى تجديد اتفاقية البحر الابيض مع إيطاليا صديقة المانيا، الاتفاقية التى عقدت في سنة ١٨٨٧ ، هذه الاتفاقية التي كانت ضمانا كبيرا لنفوذ دول التحالف الثلاثي فى البحر الابيض المتوسط ، كما أن القيصر يعلم أن سولسبرى يود لو استطاع تحسين علاقاته بفرنسا والاتفاق علي تسوية المسائل المختلف عليها بينهما .

وكان تأييد المانيا لانجلترا فى نظر القيصر ضروريا جدا من ناحية أخرى ، وذلك لخدمة أصدقائه الايطاليين الذين انهزموا هزيمة منكرة أمام الاحباش في موقعة عدوه

فلقد كان القيصر دائم الاتصال بانجلترا يحاول اقناعها بضرورة اغاثة الايطاليين حلفائه ، ولذا حاولت وزارة سولسبري تبرير الحملة الي السودان أمام دول التحالف الثلاثي، المانيا والنمسا وايطاليا، برغبة انجلترا في نصرة الايطاليين المدحورين قبل أن يؤخذوا أخذا وبيلا .

وبالرغم من الاتفاق الودي الذي تم بين انجلترا وفرنسا في سنة ١٩٠٤ بشأن مصر ومراكش ، ذلك الاتفاق الذى أطلق يد الانجليز حرة في مصر ، واعترفت فيه فرنسا بالاحتلال الانجليزى ، ولم تعد انجلترا في كبير حاجة الى تأييد المانيا السياسى — بالرغم من ذلك فقد ظلت العلاقات الانجليزية الالمانية بالنسبة لمصر بصفة عامة جيدة ، فلم تعمل المانيا من جانبها علي احراج مركز الانجليز في مصر، وذلك خشية زيادة توثق العلاقات الفرنسيه الانجليزية، فلقد كانت السياسه الالمانيه الخارجيه ترمى الى الفصل بين الدولتين بكل الطرق الممكنه . كذلك لم تبد المانيا حماسا كبيرا لمشاريع الانجليز ، ومن ناحيه ثالثه كان اهتمام المانيا فى ذلك الوقت منصرفا عن مسألة مصر موجها الى السياسه العالميه Weltpolitik الى المسائل التى تهم المانيا مباشرة مسائل آسيا الصغري والعراق حيث كانت المانيا تعمل علي مد نفوذها الى الخليج الفارسى ، مسائل الشرق الاقصى وخاصه بعد الحرب الروسيه اليابانيه، هذه الحرب التي اندحرت فيها روسيا والتي أخذت بعدها اليابان تتزعم شرقى آسيا، ثم هناك مسائل البلقان التى أخذت تنذر باصطدام خطير بين دوله الناشئه، وبتنازع بين حليفه المانيا النمسا وبين روسيا

وظل موقف المانيا واحدا لا يتغير حتى قامت الحرب الاوربية الاولى وأعانت انجلترا زوال سيادة تركيا وبسطت حمايتها على مصر فكان من الطبيعى ألا تعترف المانيا بذلك التغيير فى مركز مصر ولا في مركز الانجليز في مصر ، ذلك التغيير الذي لا يبرره عرف دولي ولا قانون سياسي أخلاقى ، ظلت المانيا على رأيها في أن

مصر جــزء من الدولة العثمانية وأيدت الأتراك في محاولاتهم اليائسة غزو مصر من الشرق وطرد الانجليز منها . إلا أن انهزام الألمان في الحرب واضطرارهم إلى قبول معاهدة فرساى أرغمهم على الاعتراف بالحماية الانجليزية على مصر ، ولمـا أعلنت انجلترا انتهاء الحماية وتصريح ٢٨ فبراير سنه ١٩٢٢ كانت المانيـا من الدول التى اعترفت بالمركز الجديد لمصر كدولة مستقلة وتبادلت التمثيل السياسى معها .

محمـد مصطفى صفوت
الاستاذ المساعد للتاريخ المعاصر

المراجـع

لا توجد فى ذلك الموضوع بالذات فى ثنايا الدراسات التاريخيه للمسألة المصرية فى الربع الاخير للقرن التاسع عشر الا اشارات لا تغني كثيرا .

هذا البحث قائم علي دراسه مركزه للوثائق السياسيه التي أصدرتها الحكومه الالمانيه عقب الحرب الكبري الاولى والمسماة
Grosse Politik der Europaïschen Kabinette
وهى تمتد خلال المدة من سنة ١٨٧٠ الي سنه ١٩١٤ . وعلي هذه الوثائق يعتمد البحث الي حد كبير وأشرت اليها خلاله «بالوثائق الالمانيه» فحسب .

وتكمل هذه الوثائق مجموعه الوثائق السياسيه التى نشرتها الحكومه الفرنسيه بعدالحرب الكبرى الاولي والمسماة : Documents Diplomatiques Français
وهى تشمل نفس المدة التي تشملها الوثائق الالمانيه

ويلي هاتين المجموعتين فى الاهميه الوثائق التى نشرتها الحكومه الانجليزية في الكتب الزرق Blue Books فى خلال المدة ما بين حرب السبعين سنه ١٨٧٠، وسنة ١٩١٤، هذه الكتب الخاصه بالمسائل المصرية . وهى لا تشتمل علي عدد كبير من الوثائق الخاصه بموقف المانيا ازاء الاحتلال. اهم هذه الكتاب الازرق الكتاب لسنه ١٨٨٢ ، ثم هناك وثائق نشرتها وزارة الخارجيه الفرنسيه فى الكتب الصفر Livres Jaunes وخاصه الكتاب الاصفر للسنين ما بين ١٨٨٣ — ١٨٩٣ فهو يبين موقف فرنسا ازاء المسألة المصرية وتشير بعض وثائقه الى موقف المانيا

ولا ريب في أن وثائق وزارة الخارجيه الانجليزية في لندن تلى في الاهميه الوثائق الالمانيه فيما يختص بهذا الموضوع لاسيما الوثائق الخاصه بتركيا F. O. 78 وفرنسا F. O. 27 والمانيا F. O. 64 ، ولقد أطلعت علي كثير من هذه

الوثائق أثناء وجودى فى انجلترا . ولعل أهم هذه الوثائق الرسائل التي أرسل بها السفير الانجليزي فى برلين Lord Odo Russell الى حكومته ، ولقد أشار الي بعض هذه الرسائل ونشر بعضها Winifred Tuffs في رسالته للدكتوراه من جامعه لندن An Ambassador to Bismarck: Lord Odo Russell. Muller, London, 1938. ولقد فصل مؤلف هذا البحث بعض اجزاء ذلك الموضوع في كتاب يعده للطبع عنوانه موقف الدول العظمى ازاء الاحتلال الانجليزى لمصر .

وهناك بعض الكتب التى كتبت عن حياة سياسيي ذلك العصر أهمها فيما يختص بهذا البحث

Bismarck: Some Secret Pages of his History. A diary by Dr. Moritz Busch. 3 vols. (Translation, Macmillan London 1898.

Bismarck: The Man and Statesman. Reflections and Reminiscenes of Otto Prince von Bismarck. Trans by A.J Butler 2 vols. Smith. London, 1898.

Disraeli, Life of, by Buckle Murray. London 1929.

Gladstone, Life of, by J. Morley. 2 vols.

Granville, Life of, by Edmond Fitz maurice (4th impression) Longmans, London 1905.

ومن الكتب والدراسات التي لها قيمه في هذا البحث والتي درست العلاقات الدوليه بالنسبه لمسائل البحر الابيض المتوسط

Knaplund, P.: Gladstone and Britain's Imperial Policy, Allen and Uniwin London 1927.

Langer, W.: Alliances and Alignments. New York 1931.

Mitchell P B.: The Bismarckian Policy of Conciliation with France. University of Pennsylvania Press, Philadelphia 1935.

Penson L.: The Principles and Methods of Lord Sabsbury's Foreign Policy, Cambridge Historical Journal 1935.

Penson and Temperley: A Century of Diplomatic Blue Books, Cambridge University Press, Cambridge, 1938.

Safwat M M.: Tunis and the Great Powers. Baganis Alexandria 1943.

Schuman F L.: International Politics. 2nd Edition Mc Graw Hill, New York 1937.

Seton-Watson R.W.: Disraeli and Gladstone and The Eastern Question Macmillan. London. 1935.

Sumner, B.H.: Russia and The Balkans. Clarendon Oxford. 1937.

محمد مصطفى صفوت

الاسكندرية فى عصر البطالمة

بعض مظاهر الحضارة بها (١)

تأليف زكى على

انفردت الاسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد بنظمها الخاصة وساعدها على ذلك ظروف تأسيسها على أن تكون مدينة هيلينيـة حقة متمتعة بجميع الخصائص والميزات التي تتوفر في المدينة (polis) أينما تنشأ، وكان اتخاذها عاصمة للبلاد المصرية وهى نائية واقعة على تخوم هذه البلاد وليست في صميمها وقلبها حتى حدا ذلك بالرومان فأسموها بالاسكندرية الواقعة على تخـوم مصر (Alexandria ad Aegyptum)- مدعاة لكثير من التناقض في نظمهـا ومظاهر الحضارة فيها وسببا فى كثير من التعقيد فى تسيير دفة الأمور بها وتعطيل هيئاتها التي أصبحت ، فى ظل سلطان ملوك البطالمة الذين كانوا يقيمون بين ظهراني السكندريين ، غير قادرة على أن تعصي لهم أمرا .

القوانين المرعيه بالاسكندرية

وكان للاسكندرية محاكمها الخاصـة وقوانينها التى تطبق على السكندريين وحـدهم ، والتى عرفت في مجموعهـا بقانون المدينة (Politikos nomos) ، وكانت هذه القوانين معترفا بها حتي فى المحاكم القضائية العادية التابعة للملك من خريماتستاى (Chrematistae) وهى التى تنظر فى قضـايا اليونانيين ، أو كوينوديكيون

---

(١) تناولت في مقالى السابق الظروف التي احاطت بتأسيس الاسكندرية والعـوامل التى حدت بالاسكندر فجملته يختار هذا الموقع بالذات وعرجت على طبوغرافية المدينة ووصف بعض معالمها فى ضوء ما جاء في سترابون وها انذا أتناول نواحي اخرى .

(Koinodikion) وهى المحاكم المختلطة التى كانت تنظر فى القضايا بين اليونانيين وغيرهم من الأجانب ، او محاكم وطنية ـ لاوكريتاي (Laocritae) · وهى التى كانت تنظر فى قضايا الوطنيين من المصريين ، وكان الأساس في قانون مدينة الاسكندرية لحد كبير مستمداً من القانون الأثيني ، وهو السائد فى أتيكا ببلاد اليونان مضافا اليه بعض تغييرات وتعديلات مشتقة فى بعض الأحيان من غير نظم أتيكا وفي بعض اخرى روعى فيها ظروف مدينة الاسكندرية الخاصة، وكانت تلك القوانين تكمل من وقت لآخر بما يصدره الأحرار فى المدينة من قرارات فى مجالسهم وتسمى هذه القرارات (psephismata) ، علي ان السكان المقيمين فى نطاق هذه المدينة الحرة كانوا يخضعون مع ذلك لما يصدره الملك من قرارات وأوامر.

وانه لمن حسن الحظ ان حفظت لنا الأيام بعض هذه القوانين التى توفرت على نشرها احدى الجامعات (١) واصبحت تعرف ببرديه هالنسيس (Papyrus Halensis). وتحتوى هذه الوثيقة الهامة على مجموعة من المقتطفات من هذه القوانين المدنية واللوائح التى كانت تطبق علي أحرار المدينة ومن يلوذ بهم من اتباع وعبيد ، ولكن لا يوجد أى دليل قاطع فى أمر الجهة التي أصدرت هذه القوانين، وهل هي من عمل مجلس الأحرار في المدينة أم انها جاءت نتيجة فرض الملك لارادته علي هذا المجلس. ونظرا إلى أنها تلقى ضوءا على حياة السكان فى مدينة الاسكندرية وتنظم العلاقات بينهم فتأخذ البعض بالشدة بينما تترفق مع البعض الآخر ، فانا نؤثر ان نقتبس منها بعض أحكامها على الوجه الآتي :

---

(١) جامعة هالى (Halle) بالمانيا التى نشرت هذه الوثائق القانونية عام ١٩١٣ تحت عنوان (Dikaiomata) ومعناها القوانين والالتزامات

الحقوق القانونيه لبعض طبقات السكان فى الاسكندرية (١)

«لا يجوز لأحد ان يقيم الدعوي علي أحد آخر ممن أنفذهم الملك فى خدمته ، لا علي اشخاصهم ولا علي ضامنيهم ، كما لا يحق لمن يوكل اليه أمر التنفيذ ولا لأحد من أعوانه أن يلقي القبض على هؤلاء .

«وكذلك الحال إذا أقام بعض النـاس الدعوي ضد ذرية هؤلاء الغـائبين وآلهم أو ضد ضامنيهم فيما يتعلق بأمور كانت موضوع شكوي وقعت عندما كان أولئك الذين رحلوا عن ديارهم لا يزالون مقيمين بين ظهرانيهم ، فلايجوز [حينئذ] ان ترفع هذه الدعاوي أمام ساحة القضاء ما لم يكن قد حدث ان هؤلاء بوصف كونهم من الآل والأتباع قد حصلوا لأنفسهم علي حقوق [مكتسبة] بالتقاضى مع آخرين بشأن أمور كانت موضوع النزاع في الوقت المذكور . فاذا كانت الدعوى ضد أمثال هؤلاء فلتقدم للقضاء .

«وإذا ادعى البعض انتماءهم لطبقة الآل والاتباع فعلي القضاة الفصل فى هذا الموضوع ، فاذا تبين أنهم ينتمون لهذه الطبقة وإذا ثبت أن الامور موضوع النزاع قد وقعت وقتما كان أولئك الذين رحلوا عنهم لا يزالون يقيمون بين ظهرانيهم ولم يكونوا قد حصلوا بعد علي الاقتصاص منهم بالقانون كما هو مذكور أعلاه ، فليكن مصير هذه الدعاوي إلى التأجيل حتى يعود أولئك الذين فارقـوهم . أما رسـوم الدعوي وقدرها العشر أو جزء من خمسة عشر فيستردها دافعوها(٢) .

---

(١) من برديه هالنسيس I ، ١٣٤ — ١٦٥ ترجمة النص المنشور فى «البردي المختار» (Select Papyri) لـكل من هنت وادجار (Hunt & Edgar)

(٢) هذه الرسوم هي نسبة مئوية مقررة بحسب المبلغ موضوع النزاع وتدفع تأمينا من قبل طرفي النزاع قبل اجراء المحاكمة لتغطية النفقات اللازمة للمحكمة ، على أن يسترد المحكـوم لصالحه مبلغه من المحكوم عليه

«وكل الدعاوي التي يرفعها آخرون ضد الاتباع بعد رحيل اصحاب الولاية عليهم وتركهم من بعدهم أو الدعاوى التي يرفعها الاتباع ضد آخرين ، مدعين عليهم بأنهم قد الحقوا بهم اضرارا بعد ترك أوليائهم لهم — كل هذه الدعاوى يكون مصيرها النظر أمام محكمة الاختصاص للفصل فيها ، واذا حدث ان كان الملك قد انفذ بعض الاشخاص فى مهمة بعد اقامتهم الدعوى ولم تكن المحكمة قد نظرتها بعد فان لهم حق الاختيار فى استرداد رسوم التأمين من العشر أو الجزء من الخمسة عشر ، علي أن تؤجل قضاياهم حتى يعودوا، علي الا يُقَدَّموا الي المحكمة قبل أن يودع من جديد اولئك الذين رفعوا الدعوي رسوم العشر او الجزء من الخمسة عشر التى كانوا قد استردوها من قبل .

«فاذا كان اصحاب الدعوي ممن يقيمون في الريف[١] (Chora) ثم انفذهم الملك فى مهمة قبل أن تقدم هذه الدعاوي الى المحكمة فانها تؤجل بنفس الطريقة الى أن يعودا ، وكل اولئك الذين منحوا رعوية مدينة الاسكندرية وكانوا قد انضووا في لواء الجيش فأمرهم يجرى علي النحو الاتي : من يتقدم منهم بالشكوى بصدد مرتباتهم ورواتبهم العينية من غلال وما يكون قد آل اليهم من الاموال والغلال التى اضيفت لحسابهم — وكان خصومهم في خدمة الجيش كذلك ممن منحوا رعوية مدينة الاسكندرية، فان المقاصة تجرى أمام المحاكم المخصصة للاجانب فيأخذون مالهم ويدفعون ما عليهم ، علي ان يتم تنفيذ الاحكام وفق الامر الملكي[٢] »

(١) الريف هنا بمعناه الواسع ويشمل اي جزء من البلاد المصرية فيما عدا الاسكندرية التى كانت تعتبر المدينة ، وما عداها فهو ريف لها يمدها بما يلزمها من حاجيات واقوات لضمان كفايتها الاقتصادية واستقلالها السياسى وذلك طبقا لما جري عليه العرف عند اليونان .

(٢) كانت هناك اوامر ملكية تسمى (Prostagmata), (Diagrammata) وتتناول شتى المسائل من اقتصادية وقضائية وتنظم مناحي الحياة في مصر البطلميه وهذا الامر الملكي الذي تشير اليه هذه البرديه كان شاملا للتعليمات الواجب اتباعها فيما يختص بالاجراءات القانونية.

عقوبات التعدى فى قانون الاسكندرية(١)

«التهديد بالحديد: اذا هدد رجل حر زميلا له بآلة من حديد أونحاس اوبقطعة من الحجر أو الخشب فعقابه دفع مائة دراخمة اذا خسر دعواه. بيد انه اذاارتكب عبد من ذكر او انثي أو أمة شيئا من ذلك ضد حر أو حرة فعقابه ضرب السياط، ولا يقل ذلك عن مائة سوط، والا فعلى ولى المذنب اذا ما خسر دعواه ان يدفع لمن لحق به الضرر ضعف الغرامة المقررة علي الحر .

«إضرار السكير بالغير: اذا تعدي سكيرعلى آخر فاصابه بضرر فى موضع من جسده سواء أكان ذلك فى سكون الليل ام في حرم مقدس ام فى السوق العامة فجزاؤه دفع ضعف الغرامة المقررة .

«اعتداء العبد علي الحر: اذا اعتدي عبد أو أمة بالضرب على حر أو حرة فجزاء المعتدى ان يُضرب مائة سوط على الاقل ، اما اذا اعترف سيد العبد بالواقعة فعليه هو ان يدفع بدلا من العبد التابع له ضعف العقوبة المقررة علي الحر ، أما اذا دفع بعدم صحة الواقعة ، فللشاكي ان يرفع الامر للقضاء ويطلب تعويضا قدره مائة دراخمة عن كل لكزة او لكمة اصابته ، واذا أدين سيد العبد فعقابه ان يدفع ثلاثة امثال هذا المبلغ دون مراعاة لتقدير المحكمة . اما في حالة تعددالكمات فللشاكي الحق فى أن يقدر قيمة التعويض المطلوب ، عند رفع القضية ، وعلي سيد العبد أن يدفع ثلاثة امثال ما قد تقرره المحكمة من تعويض .

«العراك بين الاحرار: اذا تحرش حر او حرة فتعدى بالضرب على حر اوحرة فعقاب البادى بالعدوان ، اذا ما أدين ، مائة دراخمة دون مراعاة لتقدير المحكمة.

«واذا تعدي الضرب لأكثر من لكمة ، فللشاكي عند رفع دعواه للقضاء أن

---

(١) مقتبس من برديه هالنسيس I ، ١٨٦ — ٢١٣ فى «البردى المختار»

يقدر هو نفسه مبلغ الضرر الناجم عن الضرب ، وعلى المتهم ان يدفع ضعف ما قد تقرره المحكمة من تعويض .

«واذا اعتدى احد على موظف عمومى من موظفي المدينة في اثناء قيامه بمهام منصبه الادارى فجزاؤه اذا ما حكم بادانته دفع ثلاثة امثال الغرامة المقررة .

«جزاء القِحة: اذا تعدى أحد على آخر بالسب غير المنصوص عنه فى القانون فللطرف المعتدي عليه ، عند رفع دعواه ، أن يقدر ما اصابه من ضرر ، وعليه فوق ذلك ان يبين بالذات كيف استهدف للسب وتاريخ حدوث ذلك ، واذا أدين المتهم فجزاؤه دفع ضعف ما قد تقرره المحكمة من غرامة ».

تلك بعض أمثلة من القوانين المرعية في مدينة الاسكندرية في عصر البطالمة ، وهى تنظم ناحية من حياة السكان بها . وكان هؤلاء ، ولا ريب ، يمثلون اخلاطا وانواعا جنسية عديدة، وفدوا علي المدينة من شتى الاقطار والارجاء. ويكفى للتدليل علي ذلك أن نذكر الحوار الذي رواه ثيوكريتوس (Theocritus) شاعر بلاط بطلميوس فيلادلفوس في القصيدة الراعوية الخامسة عشر التى تصف أجنبيا ضاق بحديث امرأة ثرثارة من سيراكيوز بصقلية وكانت تسمى پراكسينوا (Praxinoa) وصديقتها جورجو (Gorgo) فصاح فيهما قائلا «أيتها المرأتان ! ألا تنتهيان عن هذه الثرثرة حتي لكأنكما زوج من الحمام ! إن سماع هذه اللهجة الدورية ذات اللكنة ثقيل على أذني ومضن لي حتى لينفد صبري قبل نهايته » فأجابته پراكسينوا: «ياللعجب ! من أي أرض جاءنا هذا الشخص ؟ وما شأنك بنا ؟ وماذا يعنيك من ثرثرتنا ؟ عليك أن تشترى عبيدك أولا قبل أن تأمر وتنهى فيهم — اعلم أن من تتحدث لهن وتصدر إليهن الأوامر هن من أهل سيراكيوز ، وأحب أن تعلم كذلك أننا من أصل كورنثى فنحن ، كما تعلم، نتكلم اللغة البليبونيزية أسوة بأبناء

ملك كورنثه ، وأظن انه يحق للدوريين أن يتحدثوا باللهجة الدورية ! » .

ولا بد أنه كان بالاسكندرية لهجات أخري كثيرة كانت تسمع رطانتها في الشوارع والاسواق وعلي رصيف الميناء وفى الندوات الثقافية وحلبات السباق وساحات الالعاب الرياضية ثم اضمحلت هذه اللهجات المختلفة وحلت محلها لهجة واحدة مؤتلفة من هذه الرطانات، كانت تعرف باللهجة المشتركة - كويني - (Koinê) وهى اللغة التي تميز بها ذلك العصر الهيليني الثانى من عصر ما قبل الاسكندر ، وكان أساسها اللهجة الآتيكية مضافا اليها عناصر من اللهجات الاخرى. وكان فى التقاء هذه الاجناس والشعوب بالطبع فى هذه البوتقة امتزاج كبير للثقافات وللأفكار الدينية ، وقد انتشرت فى الاسكندرية عبادة ايزيس وسيرابيس وعمت كل ارجاء العالم اليونانى - الرومانى ، وفى الاسكندرية تمت الترجمة السبعينية للتوراة ، وانه لمن حديث الخرافة أن يقال ان هذه الترجمة للعهد القديم كانت بأمر بطاميوس الثاني ، والحق انها صدرت تدريجيا كما ينتفع بها يهود الاسكندرية الذين اصطبغوا بطابع هيليني وكانو أعرف باللغة الاغريقية منهم بلغتهم الاصلية . وفى هذه الترجمة قرأت الكنيسة اليونانية الكتب المقدسة مدة قرون ومنها ترجمت الى القبطية والسوريانية والارمنية واللغات الاخرى — وكانت الاسكندرية احد المراكز الرئيسية فى امتزاج الديانات واتحاد الفرق والنحل والمذاهب المختلفه وادماج عبادات مختلفة فى بعضها حتى صار منها مجموعة واحدة تمثل ديانة وثنية واحدة هيأت عصب النزاع الاخير بين الوثنية والمسيحية .

وما انتصف القرن الثالث حتي صارت الاسكندرية اعظم مدينة في الشرق واصبحت مركزا تجاريا هاما فى العالم الاغريقى يؤمها العلماء والشعراء والمشتغلون بالعلوم الرياضية والتجار والجند والمشتغلون بالزراعة والهندسة ثم السياح الذين قصدوا رؤية معالمها وآثارها — كل اولئك قصدوا اليها من كل حدب وصوب إما للاستقرار

فيها وإما لمتابعة سيرهم الى مصر الوسطى وبخاصة اقليم الفيوم الذى أحبه اليونان ورحبوا بالسكني فيه واستغلال أراضيه بطرق علمية مستحدثة حتى أصبح من مفاخر البطالمة . وفريق من اولئك الاجانب رحل الى صعيد مصر واقاصى جنوبها ووصل بعضهم الى جزيرة الِفَنتين وتركوا من بعدهم فى سجل اوراق برديه تعرف « بردى إلِفَنتين» اثرا يبين حياة اولئك الاقوام وطرائق معيشتهم وعقود زواجهم ومدى اختلاطهم (١)— وهكذا كانت البلاد المصرية بفضل الاصلاحات اليونانية والسياسة المستنيرة التى نهجها ملوك البطالمه قد تحول كثير من اراضيها البائرة الى مزارع مثمرة وتضاعفت غلات الارض وثمراتها فى كل مكان ، وكانت المنتجات الواردة من مختلف انحاء العالم والحاصلات المصرية ترى علي أرصفة ميناء الاسكندرية أو تتجمع فى مستودعاتها الملكية (Thesauroi) فالعاج وخشب الابنوس والذهب والتوابل كانت ترد من افريقية ، ولم تنقطع عن المدينة حاصلات الهند وكان يباع الحرير الوارد من الصين فى الاسكندرية فى عصر متأخر ، وكان يرد من بلاد الاغريق الزيت والنبيذ والعسل والتين واللحوم الباردة والسمك المجفف والاسفنج وكانت الفواكه علي مختلف انواعها ترد من آسيا الصغرى وجزر بحر الارخبيل وكان القمح والشعير وما اليهما من غلات مصر تحمل فى النيل فى مراكب الي سوق الغلال العظيمة في الاسكندرية . وفوق ذلك فان المدينة نفسها كانت تقوم بصناعة مواد كثيرة من عطور وزجاج وكتان وبردى كانت تقوم مصانعه المختلفة فى شتي ارجائها (٢)

---

(١) البردي المختار ، جزء اول ، ويحتوي علي نبذ من هذه الوثائق توضح عقود الزواج والالتزامات التى تربط اطراف هذه العقود

(٢) وتلقي وثائق بردى زينون التى يجرى نشرها تباعا منذ ١٩٢٠ ، ضوءا علي ما حظيت به المدينة من تقدم اقتصادى وتذكر الواردات اليها من مختلف اجزاء البحر المتوسط والضرائب التى كانت تجبي عليها

اهم معالم المدينه

ولما أصبحت الاسكندرية قاعدة لمصر ونقل اليها جثمان الاسكندر واتجه ملوك البطالمه الأولين الى ناحية في السياسه ، لاهى بالمصرية الصميمة ولا باليونانية الفجة، ركزوا جهودهم فى اظهار مدينة الاسكندرية فى ثوب من الحسن والبهاء يبهرون به ابصار العالم الاغريقى، فنمت المدينة بسرعة فائقة وقامت مبانيها بمتدمن القصور الملكية علي رأس لوخياس (Lochias) فى قطاع كان يسمى براخيوم (Bruchium) في الجانب الشرقى من الميناء الشرقي ، وبدت علي جزيرة فاروس المنارة المشهورة للغادى والرائح فى أبهى حلة ، وكانت اول الابنية العامة التي اقيمت من هذا النوع حتى عدت احدي عجائب الدنيا ، وضع تصميمها مهندس كنيدى مشهور يسمى «سستراتوس» (Sostratus) واحتفل بافتتاحها فى أول عهد بطلميوس الثاني وبوركت باسم الالهين المخلصين (Theoi Soteres) وهما بطلميوس الاول وزوجته، وكانت تتكون من ثلاث طبقات وبلغ ارتفاعها نحو مائة وعشرين مترا وكان يشع منها ضوء قوى يرى علي مسافة ثلاثين ميلا فى البحر ، ويظهر انها كانت تحتوى بالاضافة الى ذلك على شيء أشبه بمنظار مكبر لعله كان يدار بواسطة مرايا كاسرة للاشعة — وكان من معالم مدينة الاسكندرية ضريح الاسكندر الذي عرف باسم سما (Sema) وهى تحريف من كلمه سوما (Soma) الاغريقية بمعنى جسد، والى جواره ، بلا ريب كانت تقوم مقابر ملوك البطالمة المتعاقبين من الآلهين المخلصين وهما بطلميوس الأول وزوجته ثم الآلهين الاخوين (Theoi Adelphoi) اى بطلميوس الثانى وزوجته ارسينوي الثانية وهى أخته ، والآلهين المحسنين (Euergetai) وهما بطلميوس الثالث وزوجته، والآلهين المحبين لابيهما (Philopatores) اي بطلميوس الرابع وزوجته وهكذا . ثم كان هناك السرابيوم المشهور في غرب المدينة على مقربة من الحي الوطني ، وتقوم فيه عبادة الاله الجديد سيرابيس الذي اصطنعه

البطالمة الأولون كي يكون وسيلة يوحدون بها الشعب ويوثقون بها الصلات[١].

الاسكندرية مركز للثقافه

ولم ينس البطالمة حرصهم علي مظاهر العظمة المادية لعاصمة ملكهم جانب الحياة المعنوية والفكرية فيها، فقد اشتهرت قبل كل شيء بدار الحكمة او الأكاديميه ودار الكتب، ويظهر أن الأولى كانت في بادئ أمرها معبدا للتاسوع الالهي من أرباب العلوم والفنون (Muses)، له رئيس هو سادن لهذه الآلهة ثم ما لبثت أن أصبحت جامعة كبري أو على الأقل محفلا جامعيا أشبه باحدي كليات جامعتي أكسفورد او كمبردج فى نظمها وتكوينها[٢]، فكان العلماء والأدباء من مختلف الأجناس والأقطار يلتقون فيها وتغدق عليهم الحكومة البطلمية المستنيرة من خيراتها ما يشجعهم على الانتاج العلمى والفكري، بل وتمنحهم مرتبات من خزانتها الملكية فى سخاء، وبفضل هذه المرتبات وما كان يتوافر لدى هذه الجامعة من الموارد المعتادة استطاع علماؤها ان يتوفروا علي أعمال البحث والتنقيب، لان التعليم والتدريس لم يكن عملا إجباريا فيها، ولقد وجدوا فى المكتبة الملحقة بهم موردا عظيما من الكتب والمراجع فى متناول أيديهم يعتمدون عليه فى متابعة أبحاثهم.

ولقد عنى بطلميوس الأول منذ أول الامر بادخال الأدب الاغريقي إلي الاسكندرية، وكان هو نفسه رجلا من رجال الأدب إذ كتب وصفا لحملات الاسكندر وأحاط نفسه بحاشية من الشعراء والفلاسفة وأسبغ عليهم من الحظوة والمودة ما حبب اليهم الاقامة في الاسكندرية فقرب اليه علماء النحو أمثال زينودوتوس

(١) بيير جوجيه — «السيطرة والأستعمار المقدوني» ص ٢٧٨ — ٢٨١
P. Jouguet Macedonian Imperialism pp. 278 - 281
وقد عدد فى هذه الصفحات معالم المدينة وتقسيمها الي احياء خمس سميت باحرف الهجاء الاولى.

(٢) انظر مقال ربل (H. I. Bell) فى مجلة الآثار المصرية
(Journal of Egyptian Archaeology) vol. XIII, p. 176.

(Zenodotus) ، والشعراء أمثال فيليتاس (Philetas) ، وعلماء الرياضة أمثال أقليديس (Euclid) ، وكان سخيا نحو هذه الشخصيات الفذة الممتازة بقدر ما كان لين العريكة ، وكان يختص ستراتون (Strato) بقدر من عنايته حتى أنه قدم اليه هدية قدرها ثمانون تالنتات[1] (نحو ١٨٫٠٠٠ جنيها) فكان يعرف تماما كيف يجزل العطاء لذوي المواهب فى سخاء ملوكى — ولكن ليس بكاف أن يستهوى العلماء ويجذبهم بكرمه وسخائه إلى الاسكندرية، فلا بد من الاحتفاظ بهم فيها حتي يتركوا أثراً باقيًا دالا على إقامتهم فى مصر ، فعمل علي تهيئة الضمان الكافى بأن يحصل هؤلاء العلماء فى الاسكندرية لا علي رفقائهم وزملائهم فحسب وإنما الكتب والفرص وفسحة من الوقت كذلك لمتابعة دراساتهم ، هذا فضلا عن عطف ملك مستنير ، وحندئذ رحل كل أولئك العلماء تدريجيا الى تلك الكعبة التى كانت تنتظر وفادتهم ، وكانت الاسكندرية فى تلك الأزمنة المضطربة ملاذاً يأوي اليه رجال الفكر ومستقرا للعمل المثمر وأخذ الناس يرحلون عن بلاد الاغريق التي عمها الفقر وأصابها الوهن وأنهكتها الحروب وكذلك رحلوا عن آسيا التي لم تكن الحياة مستقرة فيها الي « أثينا الجديدة » علي شاطىء مصر الشمالى وقد اتخذت مقرا للعلوم وأصبحت عظمتها إرثا مشتركا للجميع ، وكان ملك مصر غيوراً علي تأييد هذه النهضة الأدبية وتعضيد القائمين بها خشية أن يسبقه فى هذا المضمار ملوك آسيا من السلوقين او غيرهم فسارع بانشاء دار للحكمة ودار الكتب وقد بذ تا زميلاتهما فى آسيا.

وهنا قد يعرض لنا سؤال وهو : من يستحق الفخر بأن ننسب اليه إنشاء هاتين المؤسستين ، أكان بطلميوس سوتر أم بطلميوس فيلادلفوس ؟ وانه لمن المستحيل علينا أن نجيب عن هذا السؤال بصفة قاطعة لأن النصوص القديمة متضاربة

(1) Diogenes Laertius, V, 3. 58.

في أقوالها(١)، ومع ذلك فيمكن أن نستخلص من هذه النصوص القديمة ما يؤيد القول بأنه كان بطلميوس الثاني — لقد أوضحنا المشاعر التي دفعت ببطلميوس سوتر إلى التفكير فى انشاء دار للحكمة ومكتبة ملحقة بها ، ولكن هذا العمل لم يكن من الأمور التى تتم في يوم وليلة ، ويبدو أنه فى أثناء الجزء الأول من حكمه كان مشغولا بتأمين مملكته ضد عدوان منافسيه والانتقال من معركة لأخري فتارة هو فى برقة وأخرى هو فى رودس او قبرص او آسيا الصغرى فلم يتح له من الفراغ او يجد من المال ما كان يتطلبه القيام بمثل هذا المشروع السلمى اما في الشق الثانى من حياته فقد كان اكثر هدوءا ، قضاه في استقرار ، وبعد أن أقام ملكه على اسس ثابتة ودعائم قوية كان فى استطاعته أن يكرس جهوده في كثير من السخاء الى المنشآت السلمية وصادف فى ذلك الوقت (٢٩٩ ق. م.) ان طلب اليه ديمتريوس الفاليرى (Demetrius Phalerius) ان يأويه بعد أن نفي من أثينا وكان ديمتريوس هذا ذا عقل راجح وفكر خصب عرف بالنشاط واشتهر بالعلم فكتب وصنف فى كل موضوع يمكن تصوره من تاريخ ونحو وسياسة وخطابة واخلاق (٢) ولقد اكرم سوتر وفادته وانتفع بعلمه بأن وكل اليه الاشراف علي دار الكتب ولا يمكن ان يكون معنى ذلك تولية وظيفة رسمية شبيهة بتلك التي تولاها مديرو المكتبة وامناؤها الذين خلفوه لأنه لم يكن لدار الكتب وجود حتي ذلك الوقت وكانت الحاجة ماسة الى شخص يقوم بتنظيمها وكان ديمتريوس أقدر واصلح شخص للقيام بهذه المهمة الشاقة ، وبناءا على مشورته اشتري بطلميوس كتبا كثيرة كان من بينها كل ما كتب عن فن الحكم «والكتب» علي حد قول ديمتريوس « اكثر شجاعة من رجال القصر على قول الحق للملوك » (٣). تلك هى الظروف التي نشأت

(1) Plutarch, Apophthegmata 189 d; Clement, Strom. I, 351.
(2) Diogenes Laertius V, 5, 80.
(3) Plutarch, Apophthegm. 189 d.

فيها المكتبة التى اصبحت محتوياتها لا تقل في نهاية حكم بطلميوس سوتر عن مائتي الف مجلد ، ولماتولى فيلادلفوس نفى ديمتريوس هذا لأنه كان يشك في اخلاصه وبذل الملك مجهودات جبارة في جمع الكتب من كل انحاء العالم الاغريقى وفى السنين الأولى من حكمه نقلت الكتب الي دار الحكمة وفى الحقيقة بدأ منذ ذلك الوقت وجود المكتبة الفعلى وينطبق هذا القول علي دار الحكمة ايضا ، والمتفق عليه أن بطلميوس الثاني يعتبر المؤسس للمكتبة ودار الحكمة (١) ومن الممكن ان التصميمات الاولى لتلك المؤسسة قد وضعت فى عهد سوتر الذي استمد الفكرة من اولئك العلماء الذين احاطوا به ولكن فيلادلفوس هو الذي نفذ المشروع فجنى فخر نسبته اليه و كرس جهوده منذ تولى العرش «لمتابعة التقاليد الموروثة عن والده» (٢) وعلي ذلك يمكن أن نقول بحق ان بطلميوس سوتر هو صاحب الفكرة في انشاء المكتبة ودار الحكمة وابنه فيلادلفوس هو الذى اسسها واخرجها الى حيز التنفيذ .

وقيل أن بطلميوس الثالث اصدر أمرا يقضي بأن يؤخذ من جميع السياح الذين يرسون علي شواطىء الاسكندريه ما قد يكون معهم من الكتب وان يبعث بها الى دار الكتب ويتسلم اصحابها بدلا عنها نسخا رسمية (٣) ولم تكن محتويات هذه الدار من الكتب مقصورة على الآداب اليونانية وانما كانت تشتمل على مترجمات لمؤلفات من اللغات الاخرى واصبحت محتوياتها فى العصر الروماني تعد بمئات الالوف من المجلدات .

وكانت دار الحكمة بالاسكندرية تقوم فى الغالب علي اسس مقتبسة من انموذج اغريقى وكان يلتقى العلماء فى ساحاتها وابهائها لتأدية اعمالهم وللمناقشة فى

(1) Couat, Alexandrian Poetry pp. 11-12.
(2) Callimachus, Hymn, IV, 170.
(3) Galen ed. Kuhn, XVII, 1, 606.

الامور الهامة من درس وبحث واذا استطعنا ان نتصور ذلك المبنى الرئيسى الذى وصفه سترابون والابنية الشاسعة فى خارجه وقد الحقت بالبناء الرئيسى ودارالكتب، وما كان بهذه المباني من أروقة فخمة وأعمدة رشيقة، أمكننا ان ندرك ما توفرت عليه الحياة الداخلية فيها من وسائل الراحة ، ففي ظل الهواء الدفء فى أفنيتها وفى كنف البهو غير المسقوف (Exedra) كان ينزل أولئك العلماء ضيوفا يأكلون وينامون في تلك الدار ويعقدون اجتماعاتهم لمناقشة بحوثهم بعيداً عن ضوضاء المدينة وجلبتها ويعكفون علي كتابة مؤلفاتهم التى ذاع صيتها وطبق الآفاق .

كان أدباء الاسكندرية يحاكون أدباء اليونان القدماء، ولكن ألوان الادب التي تميزت بها الاسكندرية لا يمكن ان تقارن بما أخرجه اليونانيون من الادب فى العصور الزاهرة الكلاسيكية (القديمة) ، ومع ذلك فكانت آداب الاسكندرية ذات طابع خاص له قيمته، ومن المسلم به ،ان طابع الادب الاسكندرى كان يوصف بالتكلف والتصنع ، فقد أظهر كتاب مدرسة الاسكندرية من العلم والمعرفة مالم يستطع قراؤهم استساغته ، وهناك بقية من قصيدة للشاعر كاليماكوس(١) تسمى «الاسباب» تلقي لنا بعض الضوء على طريقته فى صناعة الشعر فتظهره جالساعلى مائدة يجمع بشغف واشتياق من عابر سبيل الغريب من المعلومات والنوادر كما يصوغها فى قصيدته وهذه طريقة طريفة تدل على روح العصر ، وكان السكندريون قد طغت عليهم الى حد بعيد آداب العصر الزاهر اليونانى فيما يختص بأساليب الشعر وقوافيه وليتحقق الانسجام والتوازن وجهوا وجههم شطر التجديد في الموضوع وطريقة المعالجة لما يعن لهم من موضوعات طريفة فكانوا باستمرار كمن يصب النبيذ الجديد فى زجاجات قديمة ، وفى بعض الاحايين لم يكن عملهم فى ذلك موفقا ، وتحتوى مقطوعة حكمية (epigram) من شعر كاليماكوس الذى كان يضرب الامثال

(1) Callimachus, Aitia, (P. Oxyr. XI, 1362).

فيه للناس على خلاصة روح الحركة الفكرية فى الاسكندرية : « إنى امقت الملاحم ولا أوثر المطولات التي يتشعب فيها القول كما يفعل الكثيرون وأكره الغزل التقليدى فى الشعر ولا انهل من ينبوع ينهل منه الآخرون ، واكره كل ما يتعلق بجمهرة الناس وكثرتهم الغفيرة » وكان من آثار هذه النزعة فى هذا الشاعر ان جاء بالشعر النفيس العالى القيمة والذي لم يبرأ من التصنع ، ولم يخل أدب السكندريين عامة من هذا العيب ، ومع ذلك فان اناشيد كاليماكوس وملحمة ابولونيوس الرودي تحتوي على مزايا حقيقية اذا قدرنا ما فيها ولم نبحث عن صفات لم تجل بخواطر مؤلفيها — وان تجارب السكندريين كانت ذات قيمة باقية الاثر فقدموا لنا فى الاناشيد الراعوية (Idylls) للشاعر ثيوكريتوس نوعا جديدا واسلوبا فذا في المعالجة لم يجاره فيه احد فيما بعد ، وان موضوع الحب الخيالى ، الذي عرفه كتاب الاسكندرية ولكنهم لم يستغلوه بقدر كاف في ذلك العصر ، كان مما أثر فى مجرى الادب الاوربى وتوجيهه .

ولكن خدمات السكندريين للادب لم تقتصر علي انتاجهم الخاص منه فان علماء دار الحكمة او «المحفل الجامعى » ان صح هذا التعبير وفقوا لاختراع فن النقد الادبى ، وان عملهم فى هذا المضمار لم يخل من شوائب ومع ذلك فاننا مدينون لهم فيه بدين عظيم، واذا كان من الثابت كما يؤخذ من اوراق البردى ان نصوص بضعة نفر من المؤلفين القدامي قد أصبحت فى القرن الثالث قبل الميلاد محرفة مما اصابها من المسخ والتشويه، فالى علماء الاسكندرية وادبائها يرجع أكبر الفضل فى اعمال التنقيح والتصحيح والمراجعة لكثير مما بقى لدينا من مادة النصوص التى نقرأها اليوم ومن يدرى فكم من نصوص الادب الاغريقى الذي تستمتع بقراءته اليوم كانت تعبث به ايدي البلي والدثور وتعدو عليه عوادى الزمن لولا ماقام به علماء الاسكندرية ونقادها من غيرة وجهد فى البحث عن اصول ونصوص كتب ذلك الأدب الاغريقي الخالد ؟ ؟

ولعل الاسكندرية قد برزت فى العلوم الطبيعية فاشتهرت مدرستها الطبية وخاصة فى علمي التشريح والجراحة وبزت نظائرها من المدارس الاخري بمراحل كثيرة، اما فى علم الأحياء فلم يكن حظها من الشهرة مثله في العلوم الاخري ، على أن دراسة علم الاحياء تقدمت فيها بلا شك بفضل حديقة الحيوان التي اسسها بطلميوس فيلادلفوس، وكان اكبر نصر احرزته فى ميدان الرياضيات وعلم الميكانيكا . وفي الاسكندرية سبق أرستارخوس (Aristarchus) العالم كوبرنيكوس (Copernicus) بأن وفق لمعرفة ان الارض تدور حول الشمس وقاس اراتستينيس (Eratosthenes) قطر الارض ووصل فى بحثه الى رقم لا يختلف عن طوله الحقيقى الا بمقدار خمسين ميلا وكتب اقليديس (Euclid) كتابه المسمي «العناصر» وكان اريشيمديس (Archimedes) من بين الذين درسوا هناك. ولكن الجمود العجيب والخمول الذى اعترى الذكاء اليوناني قبل العصر المسيحي بقليل حال دون ان يوفق اليونان الى معرفة كثير من عجائب العلم الحديث بل أن هذا الجمود أدي بهم الى اهمال العلوم التي كشفوها من قبل .

حال المدينه فى أواخر عهد البطالمه

ولقد كانت الاسكندرية ميدانا لكثير من الاحداث الهامة فى مدي القرون الثلاث التي حكم فيها البطالمه مصر، في القرن الثالث قبل الميلاد اذ كانت قوة اسرة البطالمه على أشدها شاهدت الاسكندرية كثيرا من مظاهر النشاط السياسى والاحداث الهامة فكانت الاحتفالات والمواكب وزيارات السفراء الاجانب ابرز هذه المظاهر في ذلك العصر ، وهناك وثيقة بردية كشفت حديثا (١) تحتوى خطابا من وزير المالية ابولونيوس فى عهد فيلادلفوس الي وكيله زينون في فيلادلفيا ينبئه فيه بوصول رسل معتمدين من ارجوس وسفراء من قبل الملك بيريساديس (Paerisades) ملك البسفور كما يشاهدوا مناظر الفيوم وآثارها وهناك بعثة سياسية ثبت أنها

(1) Symbolae Osloenses, 1927, "Greek Sightseers in Fayum" by Bell.

اتت من روما واخرى من قرطاجه وثالثة من الهند، فقد أرسل الامبراطور البوذي المسمي أسوكا (Asoka) رسله إلى بطلميوس الثانى لينصحوه ويبشروه بأن ساعة الخلاص من ربقة الدنيا قد حانت ، فهل استجاب لنصحهم ، وهل وجدوا في قلب هذا الملك المفتون بالنساء وإيثار المسرات وحب الترف والعظمة سامعا او مجيباً ؟ وعقب موت بطليموس الرابع (فيلوباتور) الذى انهمك فى الملاذ والمجون والفحشاء بدأ الحال يتغير وحدثت اضطرابات فى الاسكندرية عندما ظهرت امام الشعب حظية الملك الخبيثة وأخوها — بعد قتلها الملكة المحبوبة — يحملان رفات الملك والملكة ويتكلفان ذرف الدمع الهتون ، فثار عليهما سفلة الناس وعامتهم ، ولكن ثورتهم لم تنجح[1] ، وتاريخ القرن الثانى هو فى الغالب سجل لما كان يحدث من شقاق ونزاع داخلي بين أفراد الأسرة المالكة وحروب أهليه كانت روما تتدخل من وقت لآخر لحسم النزاع فيها ، والسكندريون — ولا ريب — قد ألفوا مظاهر هـذا النزاع بين أفراد الأسرة المالكة وما كان بينهم من تناحر ، وفى عهد بطلميوس الثامن الذي اشتهر رسميا باسم يورجيتيس الثاني والذي سماه المعجبون به من رعيته فِسكون (Physkon) أي السمين نشبت الاضطرابات وقتل الملك فيها عدداً كبيراً من الوطنيين فنشأ عن ذلك تغيير كبير في أخلاق الشعب السكندرى، ولقد وصف الاسكندرية المؤرخ بوليبيوس الذي زار مصر فى هذا العصر فقال «كان بالمدينة ثلاثة عناصر من السكان : العنصر الوطنى وهم المصريون وهو نشيط لبيب متحضر ، والجنود المرتزقة وهم كثيرون متمردون تعلوهم سمة من الكبرياء والصلف (لأن الملوك تعودوا من أمد طويل ان يحتفظوا بالجند المرتزقة المدججين بالسلاح الذين تعلموا مما وجدوه من عدم أهلية الملوك المتعاقبين وقلة كفايتهم ان يحكموا لا أن يطيعوا) ، ثم ثالثهم العنصر السكندري وهؤلاء لم يكونوا متحضرين لنفس

(١) قد ذكر المؤرخ بوليبيوس تفاصيل هذه الحقبه باسهاب ، كصور ما كان يجري في البلاط الملكي من منافسات وما كان يقوم به شعب الاسكندرية من اضطرابات .

الأسباب ولو أنهم كانوا أفضل من العنصرين الأولين لأنهم مع كونهم أمشاجا من بلاد مختلفة كانوا يونانيي الأصل فلم ينسوا المميزات المشتركة لليونانيين(١)» ، ويقول پوليبيوس بأن هذا الفريق من السكان قد تلاشى ، وفى هذا بلا شك مبالغة ظاهرة ـ وهكذا لا يذكر المؤرخون الأقدمون السكندرين في العصر المتأخر من حكم البطالمة بشيء من الاعجاب ، فكانوا في نظرهم متقلبين سريعي التأثر عنيدين متمردين يحبون العمل ويميلون مع ذلك الى اللهو ، وهم ثرثارون فيهم طلاقه اللسان ولذعه ، قليلو الاحترام للأديان ومع ذلك كانوا يظهرون تعصبا دينيا شديدا في بعض الأحيان ، وكانوا دائما معرضين لأن تنتابهم حالات يفرطون فيها في الهياج والشغب علي الحكام فكانوا مدة قرن شوكة في جانب السلطات التي كانت مسئولة عن حفظ النظام .

وما وافى القرن الاول قبل الميلاد حتى كان استقلال مصر قد أشرف على الضياع وأصبحت حالها لا تفضل كثيرا حال البلاد الخاضعه لحماية الرومان ، وعندما ثار شعب الاسكندرية فى وجه الملك بطلميوس أوليتيس (Auletes) أو الزمار ، وكان ماجنا مبذرا ، أغرم بالزمر وأهمل شئون البلاد طرده شعب الاسكندرية الي المنفى ، ولكنه ذهب الى روما باحثا عن معين يُعيده الى عرشه المسلوب ، وأخيرا وجد فى شخص جابينيوس (Gabinius) قائد جند الرومان وحاكم الشام ضالته المنشودة ، فرشاه بالمال الوفير وفي نظير ذلك ساعده علي العودة الى بلاده بل واحتل جند الرومان مدينة الاسكندرية لتأييد عرش الملك سنة ٥٥ ق.م. ، وفيما بعد ذلك بقليل أتي يوليوس قيصر الى مصر مقتفيا أثر پمپي المنهزم الفار بعد موقعه فرساليا عام ٤٨ ق.م. ، ولكن القائد المظفر وقع أسير حب كليوباتره السابعة إبنة بطلميوس أوليتيس السابق الذكر ، فَتنته بذكائها وروحها وأساليبها التى أسهب المؤرخ

(1) Polybius, Book XXXIV, 14 De Alexandria, Aegypti Urbe.

بلوتارك في تعدادها والاشادة بها(١)، ولكن العلاقات بين قيصر وكليوباتره لم تمض دون أن يكدر صفوها شعب الاسكندريه وقواتها المحاربة ، فقد شق عليهم وجود قيصر بين ظهرانيهم وتدخله فى أمورهم ووقوفه من كليوباتره وأخيها الصغير وهو زوجها موقف الحكم ، ثم تطورت الأحوال وحوصر قيصر في القصر الملكي وشدد عليه الخناق اتباع أخيها ،وقد ساءت الظروف المحيطه بقيصر فترة من الزمان ،كان فيها يعاني مرارة الحصار وقلة الماء للاستسقاء وضعف القوات ، ولكن أنقذته قوات حليفة أتت من الشام يقودها متريداتيس ، وفي أثناء القتال الشديد الذي نشب بينه وبين الثوار عقب ذلك أصيبت أجزاء من المدينة باضرار جسيمة ، وخاصه الأجزاء القريبة من القصر الملكي وفيها أغني الأبنية وأعظمها وقد عمد بعض الكتاب الي القول بأن أجزاء من المكتبة قد تهدمت وأحرقت كنوزها فى هذه الظروف ، ولعل الأمر قد اختلط عليهم فظنوا أن الكتب التى كانت على مقربة من رصيف الميناء أومكدسة في مخازن في هذا المحيط والتى اشتعلت فيها النيران هى بعينها الكتب الموجودة في دار الكتب الكبري وليست بديلا أو فائضا كان قيصر ينوي أن يبعث به الى روما ، وعلي أي حال فلا يزال القول بحريق مكتبة الاسكندرية مفتقرا الى التأييد بعيدا عن الصواب .

توارى يوليوس قيصر عن الابصار فى مارس سنة ٤٤ ق. م. نتيجة تآمر عصبة من الجمهوريين المشفقين على الروح الجمهورية الحقة من نوايا قيصر في إعادة الملكية الى روما في أثواب فضفاضة ، وكان يتلمس السبيل ويتحين الفرص ويجس نبض الشعب الرومانى ليتعرف على مبلغ تقبله لذلك التغيير الذي لا نعرف مداه إذ حمل هذا السر العظيم إلى قبره بعد أن خر صريعا فى مجلس الشيوخ الروماني أثر طعنة من بروتس (Brutus) ، وقد آل الأمر الى اكتافيوس وأنطونيوس، فتوفرا

(1) Plutarch, The Life of Antony.

علي تنظيم إرث قيصر وتنفيـذ مشروعاته ، ثم بدت بوادر الخلاف بين الزعيمين وكانا قد اقتسما العالم الروماني فاختص انطونيوس بالشرق بما فيـه مصر وانفرد اكتافيوس بالغرب وأصبح ناصره والمدافع عنه ضد الشرق وقد اتصل أنطونيوس بكليوباتره وأغرم بها ثم تزوجها ، فلم يرق ذلك في نظر روما التي أخذت تنظر اليه علي أنه مفتون وعبد لكليوباتره يريد أن يُغلّبها علي روما ويجعل من الاسكندرية عاصمة للعالم كله ، لها السبق على روما ، فقام العالم الغربي يشن حربا على كليوباتره ونصيرها أنطونيوس ومن ورائهما جل قوى الشرق ووقعت الموقعـة الهائلة فى اكتيوم سنة ٣١ ق.م. فانتصرت قوات روما وباء أنطونيوس بالخذلان وعاد هو وكليوباتره الى الاسكندرية ومعهما أسطول مصر البالغ ستين مركبا ، وكان قد انتهى من قبل ذلك عهد استقلال مصر بالحكم المشترك بين أنطونيوس وكليوباتره، ولما قُضي الأمر بانتحار المحبين كليهما عقب هزيمتهما في الاسكندرية وفشلهما فى الاعتصام بها ضم أكتافيوس مصر الي الدولة الرومانية وسجل ذلك فى الوثيقة المشهورة بأثر أنقره (Monumentum Ancyranum) بقوله وهو يشيد بأعماله « أضفت مصر لسلطان الشعب الروماني »(١) ، وقد أصلح اكتافيوس أغسطس شئون الاسكندرية واصدر عفوا عاما وأقر امتيازات المدينه ويقول المؤرخ ديو كاسيوس (Dio Cassius) إنه « أمر السكندريين بألا يعولوا في تسيير شئونهم السياسية على مجلس الشورى (Boulê) نظرا لشكوكه فى أخلاق السكندريين المتقلبة » .

وهكذا شهدت الاسكندرية طوال القرون الثلاثة من حكم البطالمة أحداثا عظيمة تركزت فيها آمال البطالمة الذين اختصوها بجل عنايتهم فكان حظها من النجاح وافرا وتقدمها سريعا ، وإنا لنرجو أن تكشف اعمال الحفر والتنقيب بها عن آثار تزهو بها على غيرها من مدن مصر القديمة، ونرجو لها ان تستعيد سيرتها الأولى.

(1) Monumentum Ancyranum, Chapter 27 "Aegyptum imperio populi Romani adieci".

الفلسفة بين مصر والغرب

قد وافقت ادارة مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول علي نشر هذه التعليقات الوجيزة علي ما صدر حديثا فى مصر وأوروبا من مؤلفات فلسفية ، وما نشر من نصوص عربية أو غربية هامة ، بغية اطلاع قارئى هذه المجلة من أساتذة وطلاب وجمهور مثقف ، علي الحركات العقلية القائمة فى العالم وعلي مدي اتصال هذه الحركات فيما بينها . وسنستمر باذن الله ، في المستقبل علي نشر مثل هذه التعليقات، متتبعين على التدريج ، تقدم الفلسفه في بلادنا وفى البلاد الغربية .

١) **فصوص الحكم** للشيخ الاكبر محيي الدين بن عربى
والتعليقات عليه بقلم ابى العلا عفيفى

(دار احياء الكتب العربية — بالقاهرة ١٩٤٦)

ليس من شك في أن الخوض فى مسائل هذا الكتاب من شئون دارسى الفلسفة الاسلامية ، وناحيتها التصوفية بنوع خاص . ولكن ليس هناك شيء ادعى الى الاغتباط من التنويه بما لكتاب كهذا من قيمة ، ومن الاشارة بما في نشره من خطر ، لا لدارسى الفلسفة وحدهم ، بل لجميع المعنيين بالمسائل الثقافية في الوقت الحاضر .

نعلم ما امضاه حضرة الشارح من اوقات في دراسة ابن عربي والتصوف الاسلامي بوجه عام ، وما بلغ اليه من معرفة عميقة بمذهب من اصعب المذاهب الفلسفية ، مذهب وحدة الوجود ، وما لحضرته من خبرة لا تضارع بنصوص ابن

عربي ، ما نشر منها وما لم ينشر ، وما وضع على هذه النصوص من شروح مختلفة .
وهاهو ذا اليوم يعطينا نشرة محققة لكتاب «الفصوص» لابن عربى ، بعد مقارنة دقيقة بين مخطوطات ثلاثة ، اثنان منها موجودان بالمكتبة الملكية بالقاهرة ، والثالث ملك المرحوم الاستاذ نيكولسون المستشرق الشهير :

يوضح لنا حضرة الشارح فى مقدمته ، ما لكتاب «الفصوص» من أهمية ، من بين جميع مؤلفات ابن عربى. فالكتاب يعبر فى حيز محدود وأسلوب مركز ، عن تفكير ابن عربى فى ناحيتيه الاساسيتين ، الفلسفية والتصوفية ، رابطا بينهما ربطا وثيقا ، جاعلا منهما وحدة كاملة متينة ومذهبا بالمعنى الدقيق ، هو مذهب وحدة الوجود. والمذهب كما يظهر عند ابن عربى ، لا يمكن تفسيره باي تأثير صادر مما طالعه ابن عربى من الكتب أو سمع به ، بل يرجع له وحده ، ولفهمه للعالم ، ولتقديره الخاص للقيم الروحية. — نجد أنفسنا بالفعل ، بعد مطالعة المقدمة ومحاولة تفهم نصوص ابن عربى ، أمام وحدة روحية لا نلقى لها مثيلا فى العالمين الشرقى والغربى (الا اذا استثنينا أفلوطين)، حتي العصر الذى جاء فيه أسبينوزا وأعطى مذهب وحدة الوجود صبغته الغربية الأخيرة.

ويعطينا حضرة الشارح مفتاح هذا المذهب الصوفى الفلسفى لا فى المقدمة وحدها ، بل في تعليقاته أيضا على متن الكتاب ، تعليقات يصح أن نقارنها ، في عمقها وانطباقها على جميع ما يعرض لنا في النص من مسائل ، بأحدث ما عمل من تعليقات على افلاطون وأرسطو ، كتعليق تيلر على طيماوس ، أو تعليق روس على كتب أرسطو « في ما وراء الطبيعة » —. يمتاز تعليق الدكتور عفيفي بأنه ليس تفسيرا عاما للمعني أو المعانى التي يشير اليها المؤلف في عبارات تكاد تكون فى ذاتها ألغازا ، انما هو تتبع لنص المؤلف فى حرفيته ، بغية استخلاص المعانى التي يحملها في طياته ، بل التوغل أيضا فى التحليل ، حتي يجعل القارىء يلمس روح ابن عربى لمسا . وليس أدل على قيمة هذا التعليق ، من أنه يُعين من لم تكن له دراية خاصة بنصوص ابن

عربى على فهمها خير الفهم، وعلي ربط معناها بمذهب الرجل في جملته. واذا كان ابن عربى ، علي حد قول الدكتور عفيفي ، يرمي فى «الفصوص» ، الي عرض مذهب خطير عن طريق مناظرة رجال الظاهر واساليبهم، فحضرته يوفق فى عرض معانى ابن عربى العميقة عن طريق دراسة أسلوبه المعقد الرمزى . وليس كل هذا في نظرنا بالامر الهين.

وان كان لا يصح لغير المتخصص ، الخوض فى ما يدرسه هذا الكتاب من مسائل ، فانه يمكن على الاقل الاشادة ببعض ما يسترعي اهتمام القاريء المتعود كتب الغربيين واساليبهم ، من مسائل خاض فيها ابن عربي ، ووصل بصددها الي نتائج لا تبعد كثيرا عما وصل اليه بعض الغربيين من الفلاسفة .

(ا) بالرغم من أن ابن عربى لا يقيم صحة قضاياه على أدلة عقلية كما هو الأمر مثلا عند أسبينوزا ، إلا أنه، أثناء عرضه الغامض لمذهب وحدة الوجود ، يثير ما يثيره أصحاب هذا المذهب بين الغربيين ، من المسائل الفلسفية أو الدينية . فنجد ابن عربى يقرر أمهات الأفكار التي أدركها بعض القدماء من الفلاسفة كالرواقيين وأفلوطين ، أو المحدثين كاسبينوزا وهيجل وأتباعه . فنجد أولا أن علاقة الحق (أو الذات الالهية) بمجاليه أو صوره، تكاد تكون ذات العلاقة القائمة عند اسبينوزا بين الجوهر الوحيد الواحد وبين أحواله المختلفة ، كما أن صلة الحق بالاسماء والصفات تثير عند ابن عربى نفس المشاكل التي تثيرها صلة الجوهر الوحيد والماهيات الأبدية بالوجود الزمنى المحدود عند اسبينوزا أيضا . ونجد ثانيا تشابها عظيما بين الاطلاق والتقييد عند ابن عربي ، وبين وصف أفلوطين للواحد أو وصف هيجل وبرادلى للمطلق وتمييزها له عن الظواهر . ونجد ثالثا التشبيه والتنزيه عند ابن عربى كالمفارقة (Transcendance) والحلول (Immanence) عند الهيجليين المعاصرين . ونلاحظ أخيرا ما يعمله ابن عربى من تمييز بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، وما وصل اليه قبلُ ابن رشد من تمييز

بين الجمهور والعلماء الراسخين .

ومن القضايا التي يقررها ابن عربى ويربطها ربطا وثيقا بمذهبه قوله أن التجلى خلق جديد ، قاصدا بذلك ، أن العالم مجموعة مجالى الله أو الحق ، كل منها متمايز عن الأخرى لا يتكرر مرة بعد حلوله . ويُظهر حضرة المعلق ما بين هذه النظرية وبين بعض نظريات الأشاعرة من تشابه . ويصح من ناحيتنا أن نذكر بهذه المناسبة نظرية ديكارت للخلق المستمر . ثم نذكر بوجه خاص نظرية باركلى اللامادية : الوجود عند هذا الأخير عبارة عن آثار مستمرة للخالق يحدثها فى نفس الانسان — . وقداسترعى نظرنا نص رائع فى « الفص الأول » عن منزلة الانسان من الوجود العالمي ، يُذكرنا من ناحية بباركلي هذا ، ومن ناحية أخرى بنص لابن خلدون في فصله فى علم التصوف . يقول ابن عربى « فلا يزال العالم محفوظا ما دام فيه هذا الانسان الكامل . ألا تراه إذا زال وفُكّ من خزانة الدنيا لم يبق فيها ما اختزنه الحق فيها وخرج ما كان فيها والتحق بعضه ببعض » ؟ يرى باركلى ضرورة إرجاع الدنيا إلى الكائن المدرك ، ويذهب فى نهاية حياته ، فى كتاب « السيريس » (Siris) ، إلى القول بأن روح الانسان تَنفصل ما كان مركزا فى عقل الله تعالى .

إلا أن لمذهب ابن عربى طابعا خاصا يميزه عن غيره من فلسفات وحدة الوجود. فبينما كانت هذه ، عندما تعالج مشكلة الطبيعة الالهية ، منكرة فى الأغلب منزهة ، كانت فلسفة ابن عربي منزهة مشبهة معا ، مقررة نافية فى الوقت ذاته. وبينما كانت مذاهب وحدة الوجود ومن بينها مذهب أسبينوزا لا تقرر إلا في عناء قيام الأضداد السابقة ، نقصد الواحد والكثير ، المطلق والمتعين ، الحق والظاهر ، وتلقى فى تقريرها أعظم الاشكالات ، نجد ابن عربى لا يشعر بشىء من هذا . فالوجود عنده واحد ، سواء نظرنا إلى الحق أو إلى الخلق ، سواء أطلقنا أو قيدنا .

(ب) من أهم ما يعالجه حضرة الشارح ، علاقة مذهب وحـدة الوجود بنزعة ابن عربى الصوفية . وقد نجح نجاحا مشكورا فى تمييز تصوف ابن عربى من تصوف الحلاج . فالحلاج حلولى يزعم أنه يصل الى حال لا تضيع فيها شخصيته فحسب ، بل تنقلب طبيعته وتتحول الي الطبيعة الالهيـة . بينما كان ابن عربى ، إذ يرى فى الوجود مجموعة لمجالى الله ، يعمل على تعدى هـذه المجالى وذاته من بينها ، كي يتحد بأصلها ومنبعها .

وإذا كان لابد من أن نميز مع حضرة المعلق بين «وحدة الوجود» و «وحدة الشهود» التى ادعى لها الحلاج ، فربما ظهر شيء من الصعوبة بعد ذلك في تفهم النزعة التصوفية عند ابن عربى ذاته . وغنى عن البيان أن اسبينوزا يُرجع الوجود العالمي كابن عربى الى الله ، معتبرا العالم مجموعة أحوال أو صور لله ، ولـكن كان اسبينوزا أبعد الناس عن النزعة التصوفية . ويلمس حضرة المعلق هذا التعـارض القـائم بين مذهب وحدة الوجود والنزعة الصوفية عندما يقول ، شارحا موقف ابن عربي من الصلاة، اننا نجد في الصلاة مثالا رائعا «لاظهار العاطفة الدينية التى لم تتمكن وحـدة الوجود من إطفاء جذوتها فى قلب ذلك الرجل، ولـكيفية فهمه العبادة فهما صوفيا» (راجع ص ٣٤١) .

(ج) غير أن مذهب ابن عربى الذي يظهره لنـا حضرة المعلق فى تفاصيله ، إن كان يبدو معارضا للنزعة الصوفية الأصيلة ، فهو يعد صاحبه على الاقل الى اتخاذ موقف يفهم منـه اختلاف الأديان ووحدتها . فمن ناحية يُظهر كلُ دين عقليةَ صاحبه : « لون الماء ، لون إنائه »، يقول الجنيد . ومن ناحية أخري تظهر الأديان لصاحب مذهب وحدة الوجود كجمله مجهودات تتجه بها الانسانية إلى مجالى الله .

عقد الخلائق فى الاله عقائداً وأنا شهدت جميع ما عقدوه

يؤدي مذهب وحدة الوجود الى القول بأن كل انسان يعبد الله وحده ، مهما كانت مرتبة الانسان فى العبادة، ومهما كان المعبود الذى يتصوره ، وأن العاطفة الدينيةمهما اتخذت من الصور ، لتحمل فى ذاتها ما يجعلها عاطفة خالصة لوجه الله . وان اختلاف الأديان لا يُظهر تعارض الناس بل اتحادهم العميق واتجاههم كل حسب نوره ، الى كائن يتعدى فى وجوده تصورنا وأفهامنا ، الى إله مطلق « لا يسعه شيء لأنه عين الأشياء وعين نفسه : والشيء لا يقال فيه أنه يسع نفسه ولا لا يسعها» كما يقول ابن عربى فى الفص السادس والعشرين .

٢ — يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط

(دار الكاتب المصرى ، القاهرة ١٩٤٦).

يعرض حضرة الاستاذ للفلسفة الأوربية في العصر الوسيط عرضا مركزا دقيقا ، في أقل من مائتين وخمسين صفحة لا يدع فيها للفكر مجالا للاختلاط والتشتت حتى لحظة واحدة . فالكتاب غني بالمعلومات مليء بالمعاني لا يدرسه القارىء إلا أفاد منه خير إفادة .

يبدأ الأستاذ بتعيين نطاق بحثه وحدوده . فهو يدرس الفلاسفة الأوربيين فى العصر الوسيط تاركا لغيره من المتخصصين البحث في الفلسفة الشرقية وكبار ممثليها. — ولتوضيح دراسته هذه يجد لزاما عليه أن يرد بايجاز عما قيل ضد الفلسفة المدرسية . فيبدأ بتقرير كيانها كفلسفة ، وما لها من استقلال عن الدين والسلطة السياسية ، واعتمادها علي تفكير عقلى خالص دقيق . ثم يشرح بعد ذلك علاقة هذه الفلسفة بالدين ، ومعنى ما سمي «فلسفة مسيحية» ، مميزا بهذه المناسبة بين عقليتين : الأولى يمثلها أوغسطين ، تميل الى الأخذ بمعانى الوحي بغية تعقلها ، والثانية يمثلها توما الأكوينى ، تتجه الى الفصل بين العقل والوحى . يعمل توما الأكوينى ،

ومدرسته من بعده ، على تشييد مذهب مرتبط بالمسيحية ارتباطا وثيقا في ناحيتين على الاقل : تعطى الفلسفة علم اللاهوت اداة دقيقة يعمل هو على استخدامها لشرح حقائق الوحى واستخلاص مايجب استخلاصه منها غاية تفهم الحقائق المذكورة ، ويستمد الفيلسوف من الوحى بعض حقائق لم يقطع بها العقل من قبل ، وان كان يستطيع البرهنة عليها بعد أن كشفت له ، كخلق العالم وخلود النفس .

يطبق حضرة الاستاذ فى دراسته منهجا تاريخيا وفلسفيا : فمن ناحية ، يدرس المفكرين في الوسط الذى عاشوا فيه، وفى مؤلفاتهم وما احدثوه من آثار في هذا الوسط أثناء حياتهم وبعد وفاتهم . ويعمل حضرته علي تعيين ما قام بينهم من علاقة وطيدة ، مبينا اثرهم أيضا فى الحضارة الأوربية ، معنياً بوجه خاص بانتقال التراث الفكرى اليونانى الى الامم الغربية، سواء كان ذلك عن طريق آباء الكنيسة قبل ابتداء العصر الوسيط ذاته ، أو عن طريق العرب واليهود واتصالهم بالحضارة الاغريقية — . ثم نجد الاستاذ يقرن منهجه التحليلى هذا بوجهة نظر تركيبية ، تبدو منها الفلسفة في العصر الوسيط ، كما يبدو لنا الكائن الحى : فلدينا أولا بذور هذه الفلسفة كما عمل علي نشرها آباء الكنيسة ، ثم ميلاد الفلسفة فى القرن العاشر ، ثم نشأتها وترعرعها حتى تبلغ ذروتها في القرن الثالث عشر ، ثم انحلالها وانتهاؤها فى نهاية القرن الرابع عشر .

ومن ناحية أخرى ، يتحد هذا المنهج التاريخى التركيبى عند حضرة الاستاذ بمنهج فلسفى ، تُعتبر على ضوئه نظريات العصر الوسيط لا كحوادث عقلية روحية فى الماضى البعيد، بل كمحاولات خطيرة عنيفة للبحث عن الحقيقة ولتكشف معني العلم. ولا تظهر آثار الموقف المذكور فيما يخصصه الأستاذ من صفحات للقديس توما الاكوينى فحسب ، بل نجدها أيضا فى فصوله عن الفلاسفة السابقين لهذا الفيلسوف او اللاحقين له ، هؤلاء الذين حادوا عن جادة الحق واتبعوا طرقا لا

يقرها العقل ، سواء من أسرف منهم في ادخال حقائق الوحى فى ميدان التفكير الفلسفي ، او عمل على فصل الوحى عن العقل فصلا أدى الى حرمان الفلسفة غذاءً روحيًا عظيمًا ، كما أعد تمرد العقل على الدين والسلطات السياسية .

واذا كان القارىء يكسب بمطالعته الفصل الطويل الذى خصه حضرة الأستاذ لتوما الأكوينى ثروة عقلية عظيمة ، فستنمى فيه مطالعته للفصول الأخرى ملكة الانتقـاد الدقيق ، وتعـده أحسن الأعـداد لاختيار الموقف الفلسفى الجدير بالعقل حقا .

وأظن أن فصول الأستاذ فى وليام أوكام وفي انتشار الاسمية من أجل فصول الكتاب. فهو اذيوضح موقف مفكرين ضربوا بالقيم العقلية عرض الحائط ، يعنى فى الوقت ذاته باظهار العوامل التي انتقلت بالفلسفة من العصر المدرسى الى العصر الحديث ، وخاصة تلك التي أعدت مواقف التجريبيين أمثال هوبز ولوك وهيوم .

كتاب الاستاذ اذن واف بجميع ما يتوخاه من أغراض ، جدير بأجمل الثناء. وأن كنا نشكو فى بعض الاحيان ايجازه المفرط ، مما يجعله عسير الفهم على القاريء المتسرع على الأقـل ، فواضح من ناحيـة أخرى أن الفلسفة المدرسية تعرض لمسائل لا تناسب عقلية القارىء المتسرع — . ثم أن كنا نفضل، بصدد فيلسوف كتـوما الأكـوينى، على عـرض شـامل لجميع المسائل الفلسفية كالذى اتبعه الاسـتاذ ، دراسـة لمسـألة واحـدة ، قل لمسألة « المماثلة » تظهر بصـددها شخصية الفيلسوف ، ويعطينا حلها مفتاح سائر المسائل ، إلا أننا نُقَدِّر ما للعرض الشامل من قيمة ، لا سيما وأن الفيلسوف المذكور كان يعمل في دراسته لجميع المشكلات ، علي احترام العقل واستخدام حججه ، ولأن فلسفته لم تكن مذهبا من بين المذاهب ، بل كانت نظاما عقليا رائعا ، وتعبيرا هو أدق ما وصل إليه الفكر الغربى المسيحى في الميدان النظرى والعملى .

٣) يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام

(دار المعارف سنة ١٩٤٨)

يجب علينا أن نبدأ بتهنئة حضرة المؤلف والثناء عليه ، فهو يعطى الجمهور العربى المثقف ، كتابا يفى بجميع الأغراض التي تتوخاها كتب علم النفس الغربية . ويعرض فيه لبعض مسائل علم النفس الهامة ، كالانفعال والسلوك والشخصية ، عرضا جديدا مبتكرا ، ويعبر عن مواقف النفس العميقة المعقدة خير وأدق تعبير .

وسنكتفى هنا بالاشارة الى الاتجاهات الرئيسية التى يتخذها المؤلف فى كتابه ويوفق الى الربط والتوحيد بينها .

للكتاب أولا مزية علمية تجريبية تجعله فى مستوى الكتب الغربية فى علم النفس: فسواء عرض المؤلف لظواهر هذا العلم ، أو عمل على استخلاص مايجب استخلاصه من نتائج بصدد اكتشافاته ، أو قام بالتدليل على صحة موقفه في تفسير ظاهرة من الظواهر ، أودحض موقفا يعارض موقفه ، فحضرته لا يقف عند وصف أو تحليل لبعض ظواهر معروفة شائعة تتناولها عامة كتب علم النفس ، بل هو يعمل على استقصاء ظواهر جديدة لا يتاح للانسان العادى معرفتها ، راجعا فى دراستها الى الطرق التجريبية التي يلجأ اليها علماء النفس الغربيون ، مبينا طبيعة هذه الطرق ومزاياها . ثم ، علاوة على ماتظهره له ملاحظة ذاتية دقيقة لأحوال النفس ، وعلاوة على ما تقف عنده منها ملاحظة موضوعية صادقة ، يعرض المؤلف الى النتائج التى وصل اليها كل من علم وظائف الأعضاء والتشريح ، بصدد أعضاء ووظائف الجسم المرتبطة أوثق الارتباط بأحوال النفس ، مشيرا فى مناسبات مختلفة الى ماظهر كنتيجة لهذا الارتباط ، من علوم جديدة متفرعة من علم النفس لم يسمع بها علم النفس القديم : كعلم النفس المقارن ، والتحليل السيكولوجى ، وعلم النفس الفردي ، والطب

النفسى الجسمى الذى خصص له صديقنا مصطفى زيور فصولا جديدة قيمة .

وللكتاب ثانيا ناحية عملية تطبيقية تجعله لازما لمن يعنى بتربية الأطفال ، ويتتبع تطورهم الانفعالى والعقلى . ويجد المعلم فيه عونا كبيرا له بصدد ما قد يلقاه عند تلامذته من مشكلات نفسية وخلقية . بل يستطيع اطباء الجسم والنفس ايضا أن يطالعوا فيه فصولا رائعة ، بعضها مخصص لدراسة الانفعال، والبعض الآخر لدراسة الذاكرة،والبعض الأخير للشخصية . أما ما كتبه المؤلف فى علم النفس الجنائى (راجع ١١٤ و ١١٧) ، وفى وصف تجربة لارسون لمقياس الضغط الدموى عند بعض المجرمين، ومايذكره عن علاقة الافراز العرقى بانفعال الفرد ، فهو جديد لم نعهده فى كتب علم النفس التي كنا نطالعها حتى سنة ١٩٣٩ .

وللكتاب ثالثا اتجاه يصح أن نسميه منهجيا «ابستمولوجيا» . ويمكننا أن نشبهه لذلك بكتب اميل ميرسون فى العلوم الفيزيقية او كتاب لالاند فى نظرية التطور ، أو كتب كورنو فى المعرفة العلمية والتاريخية . فهو يرجع مرات لمسألة المنهج ، موضحا الموقف اللازم اتخاذه لدراسة أحوال النفس ، مميزا اياه من المواقف المتبعة في العلوم الفيزيقية وغيرها . ويستفيد حضرة المؤلف بهذه المناسبة من فكرة ظهرت فى الفلسفة العلمية الفرنسية فى أواخر القرن التاسع عشر ، مضمونها أن ظواهر العلم ليس لها خصائص ثابتة ، وقوانينه ليست قوانين عامة، بل الظواهر متغيرات، والقوانين نتائج احصاءات (راجع ص ١٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥١) . وليس أبلغ على مزية هذا الاتجاه ، من عدم اكتفاء الاستاذ بالتمييز بين العوامل الثابتة فى السلوك النفسى وبين العوامل المكتسبة ، وعزمه على دراسة حقيقة التغير النفسانى فى ذاته . ونجد مثالا طيبا على قيمة هذا الاتجاه ، عندما يتكلم حضرته عن الوظيفة الدائرية اللولبية للتفكير الانسانى: فالتفكير يتقدم ولكنه يرجع ادراجه، والطفل اذ يتكلم يصغى لصوته ، كما أن حكم الاحساس ينعكس علي ذاته فيظهر الادراك الحسى، كما ينعكس

الشعور على نفسه فتظهر الشخصية بتمامها . « ولا داعي للقول أن الخط الذى يقفل الدائرة يبتعد عنها لتكوين دائرة جديدة . أما اذا اقتصرت الحركة على مجرد الدور بدون التقدم الى الامام ، وقع الشخص فيما يعرف بالحركات الآلية النمطية ، أو بأحلام اليقظة أو بالتفكير الخيالى » (٢٥٦).

ثم نقول أخيرا أنه اذا كان حضرة المؤلف لا يخل لحظة بقاعدة من قواعد البحث العلمي التجريبي ، فهو لا ينسى ما لاعتبارات خارجة عن العلم من منزلة وخطر في دراسة الظواهر النفسية .

فمن ناحية نجده ، يقرر عدا الجانب التطبيقى لعلم النفس ، ما للأفكار كالغاية والقيمة والمعيار من أهمية : لا لأن الأفكار المذكورة فروض عملية تسهل دراستنا لهذه الظواهر ، بل لأن حقيقتها متغلغلة في حياة النفس ، في تصور الانسان لسلوكه المستقبل ، وفى نضوح تفكيره وتكامل شخصيته — . نجد من أبرع ما طالعناه فى الكتاب السطور المركزة التى كتبها المؤلف فى طبيعة الانفعال ووظيفته (ص ١١١) ، ما للانفعال من تأثير ذاتى في الجسم ، وما له من دلالة من حيث هو أداة للتعبير الخارجى ، تنتهى بتحرير الانسان من الانفعال ذاته . وعندما يوضح المؤلف مظاهر الانفعال المختلفة ، يشرح كيف أن الانفعال سلوك انساني غير موفق ، أى لا يصل بالانسان الى تحقيق غايته فى الحياة . - ويقرر حضرته انه لا يمكن فهم السلوك الا بالنسبة لغاية السلوك ، كما أنه لا يمكن وضع مشكلة الارادة وتحليل هذه الوظيفة السامية ، الا اذا اعتبرنا غاية الفعل الارادى ، غاية يتصورها الانسان قبل وأثناء القيام بالفعل ، وإلا إذا اعتبرنا قيمة هذا الفعل الخلقيه والاجتماعية ، وقدرنا على اعلاء معنى القيمة على الحوافز الحسيه البيولوجية . غير أن أهم ما يسترعى النظر بهذا الصدد ، هو نجاح المؤلف أتم النجاح فى تطبيق المنهج التكاملى : نعلم أن المؤلف لا يعتبر الظاهرة النفسية « كمملكة فى مملكة » على حد قول اسبينوزا . انما الانسان كل

يجمع في وحدة تامة ظواهر مصدرها الجسم والنفس الشاعرة والمفكرة، والمجتمع أيضا. وان كان المنهج التكاملى يعطى أطيب ثمراته فى الفصول الأخيرة من الكتاب ، عند ما يدرس المؤلف الذكاء والارادة والشخصية ، فانه يوجه نظر المؤلف توجيها مفيدا فى نواح أخرى . نجده يقول مثلا بصدد ضرورة الاعــلاء (sublimation) لعلاج الأمراض النفسانية ، أن هذه العملية «لا تنجح في صرف الطاقات المكبوتة بطريقة ملائمة، الا اذا أعيد تنظيم الشخصية بأكملها على أساس جديد» (١٥٣) .

ومن ناحية أخرى ، فالمؤلف لا يبحث فى ظواهر النفس كما لو كانت موضع دراسة علمية فحسب ، بل هو فوق كل شيء فيلسوف درس الفلسفة وعرف منزلتها من مختلف الدراسات العلمية ، مما يدعوه فى بعض الاحيان أن يتعدى دراسة علم النفس ، مشيرا لما حدث للعلوم الوضعية ذاتها من رجوع أخير مفاجىء للموقف الفلسفى. نجد المؤلف يعمل بصدد كثير من المسائل ، على وضعها بطريقة فلسفية : فعندما يدرس الاحساس يشير الى منزلة الحكم منه ، وما للاحساس من قوة مميزة تحوله فيما بعد الى ادراك . وكذلك عند ما يشرح طبيعة الفكر الرمزية ، يشير الى المسائل الخطيرة التى اثيرت بمناسبة المعانى وقيمتها الموضوعية — .ولا أشك على كل حال فى أن اختيار المنهج التكاملى كالمنهج اللازم لعلم النفس، له دلالته الفلسفية البعيدة .

لينهىء المؤلف اذن على ما وصل اليه من نتائج وعلى ما جمع بيـنه فى كتابه من مختلف الاتجاهات لدراسة علم النفس.

٤) J. O. Wisdom: The *Metamorphosis of Philosophy* (El-Maaref Press, Cairo 1947).

قد تبدو الفصول الأولى من هذا الـكتاب عسيرة على من لم يتعود لغة المنطقيين المعاصرين وأساليبهم فى البحث والمناقشة ، وقد تمر على القارىء صفحات لا يدرى

مرمى المؤلف منها ولا موضـــوع دراسته بالضبط. إلا أنه حالما يدرك الموضع الذى تظهر فيه أغراض المؤلف واضحة ، فلن يطالع الكتاب إلا ويمضى فى مطالعته، ولن يمضى فيها إلا لينتهى منها وقد أخذته معانى الكتاب وملأته إعجابا بالمؤلف، لا لدقة تفكيره وجدة نظرياته وحدها ، بل للطف عبارته ورشاقتها أيضا . وإن كان كاتب هذه السطور لا يسعه الاتفاق مع حضرة المؤلف فى أمور كثيرة ورد ذكرها فى الكتاب ، فانه موقن بأن كل من يحب الفلسفة فى مصر سيطالع الكتاب وسيعجب بمؤلفه .

الكتاب ، وعنوانه ، على وجه التقريب : « انقلاب الفلسفة » ، يقع فى جزئين ، يعالج المؤلف فى أولهما المنطقيين المعاصرين ،من تلامذة راسل (Bertrand Russell) ومور (G. E. Moore) والحجج التى فندوا بها نظريات الفلاسفة، وبالأخص خصوم المذهب التجريبي كأفلاطون وديكارت وكنت وهيجل ومن على شاكلتهم . ويخصص المؤلف الجزء الثانى من الكتاب لشرح موقفه الشخصى من الفلسفة النظرية وأصحابها المشار اليهم . وإن كان الجزء الأول يبدو أطول مما يجب من الجزء الثانى، فلأن المؤلف لا ينكر قيمة هجمات المنطقيين المعاصرين على الفلسفة ، ولأنه ربما كان أيضا متأثرا بموقف هؤلاء المهاجمين .

ان نظرنا إلى ما وجهه المنطقيون ـ ويسميهم المؤلف المحللين المنطقيين ـ (لأنهم يحللون الفكر ويرجعونه إلى أصوله)ـ من الانتقادات إلى الفلسفة النظرية ، وجدنا صيغتها جديدة وفحواها قديما . ويعترف حضرة المؤلف بذلك عندما يقرب بين موقف هؤلاء ، وبين مواقف باركلى وهيوم فى القرن الثامن عشر والوضعيين كماخ وبيرسون وغيرهما فى القرن التاسع عشر (راجع ٤٦—٤٩) . يرى المحلل المنطقى أن كل كلمة يستخدمها العالم أو المفكر — سواء ابتكرها أو استعارها من لغة الناس المعتادة — لابد من إرجاعها الى المعنى الذى تؤديه فى حديث الناس وتفكيرهم

المعتاد . أما هذا المعنى ، فمن المسلم به أنه أمر أو جملة أمور محسوسة نتعلمها بالتجربة. يجب بعد ذلك تطبيق نفس الشرط على القضايا : فحدودها وما بين حدودها من علاقات يجب تعيين معناها ، ومعناها راجع إلى وقائع ملموسة فى التجربة . نصل أخيرا إلى قضايا لها أكثر من غيرها صفة العموم ، لأنها لا ترجع فى مكوناتها إلى التجربة ، بل تملى على التجربة قوانينها . نقصد التكلم عن الفروض الطبيعية. يشترط المحلل المنطقى بصددها إما أن يكون من الممكن تحقيقها مباشرة فى التجربة ، أو إرجاعها إلى مكونات يصح تحقيقها، أو أخيرا — وهو ما يحدث أغلب الأمر فى العلوم الطبيعية — ، أن تسمح لنا الفروض بتقرير نتائج نستطيع تحقيقها .

ان نظرنا إلى الفلاسفة المشار اليهم ، لاحظنا أنهم لا يراعون واحدا من الشروط السابقة : فالمعانى التى ينسبونها لألفاظهم ، لا أصل لها فى الاستعمال المعتاد ، ولا مرجع مباشر أو غير مباشر فى التجربة الحسية . ثم القضايا ، كحدودها والعلاقات بين الحدود، خالية من أى معنى، لعدم رجوعها إلى الاستعمال الشائع وإلى التجربة الحسية. وأخيرا ، نظريات الفلاسفة يمكن ردها إلى ما سبق : فيها إدعاء للتفكير والنظر ، ولكنها عديمة المعنى ، لا مبرر عقلى لها على الاطلاق —. وقد نكون متساهلين مع الفلاسفة ، إذا اعتبرنا نظرياتهم فروض كاذبة . الحقيقة أن الفرض العلمى الكاذب، كفرض الأثير ، له قيمة عملية أو سلبية على الأقل: أى لو كان صحيحا لصدرت عنه نتائج يمكن الاستدلال بها على صحة الفرض . أما الفرض الميتافيزيقى فلا يحتمل صفة الصحة ولا صفة الخطأ ، ولا معنى إذن لاستدلال الميتافيزيقيين به على الظواهر.

يخلص المنطقيون إلى القول : أن قضايا الفلسفة النظرية عديمة المعنى (Nonsense) . ومن يعرف الانجليزية يدرك مباشرة أن عدم المعنى هذا ، لهو ناشىء من عدم استناد المفكر إلى الحس والتجربة الحسية فى استخدامه القضايا المذكورة . وليس أظهر على هذا التعادل بين مضمون المعنى ودلالته التجريبية ،

من مناقشة يتخيلها المؤلف بين الفيلسوف النظرى والمحلل المنطقى: فعند مايتهم الثانى الأولَ باستخدام الفاظ وقضايا دون معنى ، يرد عليه الآخر بأنه يفترض قضاياه عديمة المعنى لأنها تدل على ما يتعدى الحس والمحسوس (Transense) . وهكذا يذهب كل من الفيلسوف والمحلل المنطق فى طريقه ، دون أن يرجع واحد منهما عن رأيه، ودون أن يصلا إلى نتيجة مرضية .

نقطة خطيرة يتأدى اليها الفكر الانسانى ، وقد يتجه منها إلى شك مطلق يذهب بالعقل وبقيمه : هذا هو ما دعا المؤلف إلى النعى على كل من الموقفين وإلى البحث عن طريق جديد يأذن بتحول فى تاريخ الفكر وبانقلاب الفلسفة ذاتها (Metamorphosis of Philosophy).

نعم ! يتفق حضرته مع المنطقيين على أن قضايا الفلسفة النظرية ليست قضايا علم ومعرفة ، ولاتعبر عن حقيقة أو مجهود نحو الحقيقة . ولكنه يتساءل : أليس هذا لأن الفيلسوف لم يرم بالفعل (سواء كان شاعرا بمرماه أو لم يكن) إلى البحث عن المعرفة والحقيقة ، ولم يقصد اطلاعنا على شىء من العالم الخارجى ، بل إن جل محاولاته كانت تؤدى إلى الكشف عن شىء فى نفسه ؟

وان نظرنا إلى تعدد الفلاسفة اتضح لنا أن ما يقوم بينهم من تباين لا يرجع إلى تفاوتهم فى الاعتماد على المنطق أو التجربة ، بل إلى طابع شخصى يتعين فى ما يختارونه من مشكلات وفى مايعدونه لها من حلول — وقدتظهر هذه المشكلات والحلول للمؤرخ السطحى ، كمحاولات تحاكى مجهود العلم للوصول إلى الحقيقة الموضوعية ، ولكن من ينظر وراء الستار الخارجى المصنوع من الكلمات الجوفاء ومن أشباه الحجج ، يتبين أن هناك مشكلات تربك الفيلسوف حقا من حيث لا يدرى ، مشكلات صادرة عن لا شعوره .

يخلص المؤلف إلى القول أن الفلسفة ليست موضع دراسة المحلل المنطقى (logical analyst) وانتقاده ، بل هى موضع معالجة المحلل النفسانى

(psycho-analyst). وكما أن دراسة أمراض النفس تحتاج الى أن يفحص المعالج المريض، فى ظاهره وكلامه وسلوكه الخارجى في المواقف المعتادة، للتأدى من هذا الفحص إلى الكشف عما يحويه اللاشعور من رغبات نفسية مكبوتة، فكذلك يتطلب فهم الفلاسفة أن نعمد إلى البحث فى لغتهم ومشكلاتهم، فى ظاهرها الموضوعى اللاشخصى، بغية اكتشاف ما يحمله لاشعور كل واحد منهم، من رغبات شخصية عمل طوال حياته على إخفائها.

نعرف أن فرويد (Freud)، مؤسس مدرسة التحليل النفسى، قد حاول فى نهاية حياته تطبيق منهجه فى دراسة أصول الأديان والحضارات والمجتمع. وإن كان الدكتور وزدم يدين لفرويد بشىء من نظرته إلى الفلسفة والفلاسفة، فقد عمل من ناحيته على صبغ هذه النظرة بصبغة علمية دقيقة، وعلى تأسيسها على معرفة مناهج علم النفس، وعلى إلمام واسع بالفلسفة وتاريخها. وكلنا يعرف ما قام به حضرته، على ضوء منهجه هذا، من دراسات فى ديكارت وباركلى وشوبنهور.

ولا شك أن الموقف الذى يقفه حضرته غاية فى الخطورة، ويتطلب من المتخصصين مجهودا كبيرا لفهمه ولمناقشته، غير أننا نكتفى الآن بالاشارة إلى بعض ما يخالجنا من شكوك بصدد هذا الموقف، مرجئين لفرصة أخرى دراسته بالتفصيل.

نقول: إن المؤلف دعم فرضه دعما قويا، وذهب إلى أبعد مما ذهب اليه المحللون المنطقيون، إلا أنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن استخلص من انتقادهم أن تفكير فلاسفة كافلاطون وديكارت وهيجل، شاذ على الأقل، خارج عن أصول التفكير المعتاد وعن منطقه السليم (ص ٢١٤). ولكن يحسن بنا ألا ننسى أن ما يسميه المحللون المنطقيون تفكيرا عاديا ومنطقا سليما لهو تفكير مقياسه الحس والتجربة الحسية. فيكون شذوذ التفكير الفلسفى الذي يهاجمه المنطقيون ويعتبره

المؤلف عارضة مرض يفتقر إلى تحليل ومعالجة ، ليس إلا خروجا من جانب هؤلاء المفكرين الفلاسفة عن منطق الفلسفة التجريبية وأصولها . وكما كانت هجمات المنطقيين على الفلاسفة ، كما لاحظ المؤلف (ص ١٧٦) ، صادرة عن إيمان فلسفى يعارض إيمانا آخر ، فمعالجة المؤلف للفلاسفة يستند حتما إلى إيمان فلسفى معين .

ولكن قد نكون مغالين فى استنتاجنا هذا ، متجاهلين ما يرمى اليه المؤلف من أغراض إيجابية علمية : فحضرته عندما يفرض اللاشعور والرغبات المكبوتة ويفسر بفرضه هذا نظريات الفيلسوف ، لا يرمى ذاته إلى وضع فرض فلسفى . ولا يعنيه من فرضه إلا قيمته التجريبية العملية ، أى صلاحية التحليل النفسانى الذى يقوم به على كل فيلسوف يدرسه . ولكننا نعرف أن القيمة العملية للتحليل النفسانى موقوفة ذاتها على مبلغ توفيق المعالج فى كل حالة يعرض لها ، أى بالمعنى الصريح ، على وصول المعالج إلى أن يسترجع المريض صحته . وإذا كانت غالبية مرضى الفلسفة غير عائشين الآن ، فلم يبق للمؤلف في سبيل تحقيق فرضه ، إلا إجراء العلاج على كبار الفلاسفة المعاصرين كهيدجر أو سارتر أو برتراند راسل .

وحضرة المؤلف من المعجبين براسل وتفكيره ، ويعتبره مع أينشتين وفرويد من القليلين الحقيقين بأن يلقبوا فلاسفة ، وذلك لما يجتمع فى تفكيرهم من صفات الشمول والاحاطة والدقة والاتزان . ولا يغرب عن بال المؤلف بالطبع أن هذه الصفات قد اجتمعت فى أكثر من واحد من الفلاسفة الأقدمين والمحدثين الذين ينتقدهم المحلل المنطقى ، أمثال أفلاطون وأرسطو ، وكلهم كانوا رجال علم دقيق فى الميدان الرياضى أو التجريبى ، قبل أن يكونوا رجال أحلام وأوهام .

ونحن نشارك المؤلف إعجابه برجل مثل برتراند راسل الذى ، بالرغم من إيمانه الوثيق بالعلم الوضعى وبقيمته العقلية والروحية ، لا يشك لحظة واحدة فى قيام مسائل اختص بها الفلاسفة وحدهم ، أولاها مسألة الحقيقة وطبيعتها (راجع راسل :

تاريخ الفلسفة الغربية ص ٨١٥)، وراسل ذاته يعترف، بأن الفلسفة إن كانت تتأثر بما يعترى المجتمع من تطورات وما يصيب النفس من أزمات ، إلا أن هناك مسائل يستحيل على غير الفيلسوف أن يعالجها .

(٥ Condillac: *Oeuvres Philosophiques* Volume I Ed. Georges Leroy. (Presses Universitaires. Paris 1947).

ان ما نلحظه فى مصر من مجهود عظيم لنشر أصول الثقافة العربية نشرا محققا متقنا لهو مثال على ما يحدث فى البلاد الغربية الكبيرة ، فى كل عصر تشعر فيه هذه البلاد بأنه لا قوام لثقافتها إلا بربط الحاضر بالماضى ، وبالافادة من آثار الماضى البعيد والقريب ، فى سبيل تفهم مشكلات الحاضر وحلها .

وهاهى ذا « دار النشر الجامعية » — وهى أعظم دار للطباعة فى فرنسا — تقوم بمجهود جليل فى هذه الناحية، تعلن عن عزمها — بالرغم مما تعانيه فرنسا من صعوبات اقتصادية واجتماعية — على اصدار سلسلة لأعمال الفلاسفة الفرنسيين الكاملة، فكلفت للاشراف على ذلك لجنة ثقافية عليا يرأسها الأستاذ أميل برهييه. وإذ لم يكن من المستطاع ضمان ظهور مجلدات هذه السلسلة فى النظام التاريخى اللازم ابتداء من فلاسفة القرن السادس عشر ، سمحت اللجنة بأن تكون أعمال كوندياك (Condillac) الفلسفية الكاملة ، باكورة السلسلة المذكورة . وقد نشر هذه الأعمال الأستاذ جورج لروا ، بعد مقارنة دقيقة لطبعة أعمال كوندياك الكاملة التى ظهرت فى سنة ١٧٩٨ ، بمخطوطاته المودعة بالمكتبة الأهلية بباريس . وخصص حضرته مقدمة لهذه الطبعة ، عرض فيها عرضا موجزا مركزا لحياة كوندياك وفلسفته وتأثيره — . وكوندياك ليس مجهولا لدارسى الفلسفة ومؤرخيها ، فهو يكاد يكون الكاتب الوحيد فى القرن الثامن عشر (ولد فى سنة ١٧١٢ وتوفى فى سنة ١٧٨٢) الذى خصص حياته ومؤلفاته للمسائل الفلسفية البحتة ، دون أن يضيع وقته فى

الأدب أو الدين أو السياسة ، كهؤلاء الذين سُمّوا «فلاسفة» فى ذاك العصر .

وقد وزع الأستاذ لروا أعمال كوندياك على مجلدين يعطينا فى أولهما مؤلفات الرجل فى المسائل الفلسفية الرئيسية ، كمقاله «عن أصل المعارف الانسانية» وكتبه فى «المذاهب الفلسفية» وفى «الحيوان» وفى «الاحساسات» ، منتهيا بدروس كوندياك الشهيرة لأمير بارم . وقد وعد الأستاذ لروا بأن ينشر قريبا المجلد الثانى والأخير لمؤلفات كوندياك فى المنطق وفلسفة الرياضيات والاقتصاد السياسى .

عندما نلقى نظرة على هذا المجلد الضخم ، ونتصفح أوراقه ، يجول بخاطرنا سؤال هام : هل هناك من حاجة ماسة لنشر أعمال هـذا الفيلسوف قبل غيره ، أو ليس هناك من بين الفلاسفة الفرنسيين من يمت للمعاصرين ولمشكلاتهم ، بروابط أوثق من كوندياك ؟ نقول : وإن كان لا مفر من الاجابة بالايجاب ، فليس فى هذا باعث كاف فى نظرنا على أن نقصر عنايتنا على فلاسفة دون آخرين . بل ربما كانت الشقة العقلية الكبيرة القائمة بيننا وبين كوندياك ، باعثاً لنا أقوى من أى باعث ، على مطالعته وتعرف مشكلاته والاطلاع على أسلوب تعبيره ، وعلى طرق وضعه وحله للمشكلات . فليس هناك ما ييسر فهمنا للمفكرين ، وإفادتنا منهم ، أكثر من المسافة التى نتكلم عنها . وان تمعنا فيما تنشره اليوم «دار النشر الجامعية بفرنسا» من أعمال كوندياك ، وجدنا أكثر من سبب يحبب الينا مطالعتها .

(أولا) كوندياك مؤلف فلسفى عظيم يكتب النثر الفرنسى فى عصره الذهبى . يعبر عن أفكاره أوضح وأسلس تعبير ، وقلما نجد من بين نصوص الفلسفة الفرنسية ، عدا «تأملات» ديكارت وبعض مؤلفات ملبراش ، ما يعادل كتابات كوندياك ، فى وضوحها وتنظيمها للأفكار . وظاهر لنا أن كتاب العصر الحاضر من الفرنسيين والألمان على الأقل هم فى أشد الحاجة إلى هاتين الصفتين .

(ثانيـا) تمتاز عقلية كوندياك بأنها عقلية فيلسوف منتقد لا يقبل الأمور على علاتها ، ولا يرضى بما يمليه الخيال على الناس من أفكار رائعة، ينأى بقدر المستطاع عن الصروح الميتافيزيقية الشاهقة ، مكتفيا بتحليل دقيق للنفس الأنسانية ومحاولاً الكشف عن أصول تفكيرها — . وإن كان الفلاسفة بعد كوندياك محقين فى عدم اقتناعهم بصلاحية موقفه وبمحاولته إرجاع المعارف كلها الى الحس والتجربة الحسية، إلا أنه قد يفوتهم أن كوندياك هذا، باعترافه الشخصى، لم يكن ميتـافيزيقيا ، ولم يدّع لحل جميع مشكلات الوجود ، بل كان فيلسوفا منهجيـا وضع بعض مسـائل هامة وضعا مفهوما معقولا .

(ثالثا) نؤمّن اذن على ما يقوله الأستاذ لروا فى مقدمته وعلى انتقاداته الشديدة للموقف الحسى . غير أننا نجد من اللازم أن ننبه ، بمناسبة صدور هذا المجلد ، إلى مجهود كوندياك لتعدى الخلافات بين أصحاب المذهب الحسى وأعدائه . — يقوم كوندياك بدراسة الانسان والظواهر الانسانية ، دراسة تكشف عن أشياء كثيرة كانت خافية على الناس ، على الأقل فى القرن الثامن عشر . فهو من ناحية عندما يفرض حالة أصلية يبتدىء عندها نمو العقل وظهور المدركات ، يشير إلى ضرورة مراجعة كل فكرة من أفكارنا مراجعة تظهر لنا مقدار اتصال هذه الفكرة بالواقع ومبلغ توغلها فيه . ومن ناحية أخرى، فالقول بأن قيمة كل فكرة موقوفة على تجربة حسية دقيقة ، لايعنى بالمرة ضرورة إرجاع المعارف إلى إحساسات موضوعية كاحساسات البصر ، بل يشير بوجه عام إلى أن الانسان يصل إلى مرحلة الادراك بعد عدة مراحل تسود فيها عوامل حركية انفعالية . وهذا القول مما أثبتت صحته اكتشافات علم النفس المعاصر .

ولا يقف كوندياك فى «المقال عن أصل المعارف الانسانية»، وفى مؤلفاته الأخرى، عند إظهار الأصول الواقعية للمعرفة العقلية ، بل يدرس على نحو طريف ظواهر لغوية

وفنية واجتماعية يمكن اعتبارها مع كونديك أصولا لا لتجربة الفرد وحده بل للتجربة الانسانية جمعاء . وليس هناك من بين ما كتبه ما هو أجدر بالاطلاع، من فصوله فى أصول القصص والشعر والغناء والرقص والموسيقى . فهو يصل بعد دراسة تاريخية وعلمية لهذه الأصول ، إلى تثبيت قيمة المنهج الذى اتبعه فى دراسة عقلية الفرد .

وأظن أن معالجة مسائل متعلقة بالانسان تبعا لطريقة المؤرخين وعلماء الاجتماع، والعناية بظواهر اللغة وأصول الفن ، مما يقبل عليه كل محب للثقافة الانسانية .

لذلك فنحن نشكر «دار النشر الجامعية بفرنسا» على افتتاحها سلسلتها الفلسفية العظيمة بهذا المجلد، كما نشكر الأستاذ لروا على ما قام به من مجهود لتحقيق النص وتنظيم أعمال كونديك ، على نحو يجعله فيلسوفا حيا بمعنى الكلمة .

نجيب بلدى

السحر وعلاقته بالدين
عند الشعوب البدائية

بقلم
الدكتور السيد محمد بدوى
مدرس علم الاجتماع

مقـــدمة :

كانت مسألة العلاقة بين السحر والدين من أهم المسائل التى شغلت أذهان الباحثين الاجتماعيين منذ أن خطت الأبحاث الاجتماعية خطوتها الأولى فى دراسة الشعوب البدائية . فأثار العلامة فريزر Frazer هذه المسألة فى مؤلفاته الضخمة التى تعد من أهم المراجع وأدسمها مادة فى دراسة الشعوب البدائية [١] وحاول أن يحدد بالدقة ماهية هذه العلاقة ومدي تأثير السحر فى مظاهر الحياة الاجتماعية . ثم جاء بعده كودرنجتون Codrington [٢] ودرس فكرة ال (مانا) Le Mana أو القوة السحرية عند الشعوب البدائية . ومنذ ذلك الحين ظلت هذه المسألة مثار النقاش والجدل لا بين علماء الاجتماع فحسب بل وأيضا بين المؤرخين ورجال القانون والفلاسفة وعلماء اللاهوت فاهتمت كل طائفة من هؤلاء ببحث ناحية خاصة من المسألة . ووجه علماء المدرسة الفرنسية من أنصار دوركيم اهتماما خاصا لدراسة مسألة السحر بوجه عام والى تحديد مدي تأثير العقيدة السحرية على الناحية التشريعية بوجه

(١) أهم مؤلفات فريزر هي *The Golden Bough* 3ème édit. en 7 Vol. 1911-15.
The Magic Origines of Royalty 1905.
La Tâche de Psyché; trad. Française 1909.

(٢) وصف كودرنجتون عقيدة المانا فى كتابه Codrington: *The Melanesians* 1891.

خاص . ومن علماء هذه المدرسة الذين اشتغلوا بهذه المسألة مــوس Mauss (١) و هوفلان Huvelin (٢) كما ساهم في بحثها أيضا العلامة ليفى برول Levy-Bruhl وتعرض لها من نواحى مختلفة في كتبه عن العقلية البدائية (٣) .

ولـكن على الرغم من كثرة هذه الابحاث والتفسيرات المختلفة التى استعان فيها أصحابها بالتعليل المنطقى الى جانب ما جمعوه من الوثائق والمعلومات عن حياة الشعوب البدائية فان المسألة الرئيسية وهى تحديد العلاقة الحقيقية بين السحر والدين ومعرفة الوظيفة التي يؤديها السحر في حياة المجتمعات البدائية من حيث علاقته بنشأة الفن والعلم والأخلاق والتشريع كل هذه المسائل ظلت موضع خلاف بين الباحثين ولم يصلوا فيها بعد الي رأي نهائي .

فمنهم من يقول بأن السحر نشأ عن الدين بعد أن أفسد بعض عناصره الأخلاقية وحولها الى ناحية الشر ومن أنصار هذا المذهب آليه Allier (٤). أو أنه نتيجة لبزوغ فكرة الفردية بعد أن كان الطابع الجمعى يسيطر على المجتمعات البدائية وأيـد هذه الفكرة دوركيم (٥) وهوفلان . ومنهم من يعتقد علي العكس بأن الدين هـو الذى خرج عن السحر ومن هؤلاء العلامة فريزر . كما أن هناك طائفة ثالثـة وعلى رأسها ليفى برول تعتقد أن محاولة فصل السحر عن الدين أو القول بسبق أحـدهما على الآخر إن هى الا محاولة عقيمة فالسحر والدين مظهران لفكرة واحدة أوظاهرة

---

(١) راجع مقال موس وهوبرت في المجلة الفرنسية لعلم الاجتماع
Mauss: *Esquise d'une théorie générale de la magie* (en collaboration avec Hubert). Année Sociologique 1902-1903.

(٢) Huvelin: *La Magie et le Droit individuel* (Année Soc. 1906).

(٣) Lévy-Bruhl: *La mythologie Primitive, Paris* 1936.
L'Expérience mystique et les Symboles chez les Primitifs, Paris Alcan 1938.

(٤) Allier: *Magie et Religion* 1936 pp. 22 et suiv.

(٥) Durkheim: *Les formes élémentaires de la vie Religieuse* 1912.

خاصة تميزت بها عقلية الشعوب البدائية وسماها ليفى برول « ظاهرة ما قبل التدين «Pré-religion »[١]

وسنحاول فى هذا البحث أن ندرس أهم النظريات فى هذا الموضوع دراسة نقدية لنخلص منها الى اثبات حقيقة اخرى : وهى أن السحر والدين ظاهرتان لا صلة لأحداهما بالأخري من حيث الأصل وأن كلا منهما تقوم علي أسس نفسية تختلف عن الأخري .

وقبل أن نخوض في بحث الموضوع نحب أن ننبه الأذهان الى أن كلمة «سحر» في العربية يقابلها في اللغات الأوربية لفظتا magie ، Sorcellerie كما أن كلمة «ساحر» يقابلها لفظتا magicien ، Sorcier. وتعبر لفظة Sorcellerie بوجه خاص عما يسمونه أحيانا السحر الأسود La magie noire. الذى يكون مقصده الوحيد احداث الضرر ببعض الافراد . أما السحر بوجه عام فهو وظيفة اجتماعية تتلخص في القيام بشعائر خاصة لجلب الخير للمجتمع أو درء الخطر عنه كالشعائر التي تقام لجلب المطر حين يعم الجدب أو لدفع خطر عدو مغير أو لشفاء مريض الخ ....

نظرية جيمس فريزر :

تسمى هذه النظرية بالنظرية العقلية Théorie intellectualiste وذلك لأن فريزر أراد أن يفسر ظاهرة السحر عند البدائيين بالرجوع الى أسس عقلية لادخل للعاطفة فيها . فنسب الى البدائيين أنهم توصلوا الي ادراك انتظام الظواهر الطبيعية وتتابعها فى تسلسل لاشذوذ فيه . ثم قال بأنهم فسروا هذا الانتظام بنوع من التأثير العاطفي بين الأشياء Sympathie [٢] ثم قام السحر بعد ذلك على تطبيق قوانين

(١) وقد نحا ليفى برول هذا النحو فيما يتعلق بالتفكير أو التعليل المنطقي توصف العقلية البدائية بأنها "prélogique". راجع كتابه *La Mentalité Primitive*

(٢) *Rameau d'Or* (Trad. Franç. de Golden Bough) p. 5 et suiv.

هذا التأثير العاطفي : وهي قانون المشابهة Loi de similarité وقانون الاتصال Loi de Contiguïté. «فالشبيه يؤثر فى الشبيه ، والأشياء التى كانت بينها صلة ثم انقطعت يظل يؤثر بعضها فى البعض كما لو كان الاتصال بينها ما زال قائما . كما أن التأثير ينتقل من قريب الى قريبه ومن الصورة الى ماترمز اليه ومن الجزء الى الكل» (١)

فالسحر فى نظر فريزر تطبيق وهمي لترابط المعاني عن طريق المشابهة والاتصال. هو علم science سابق لأوانه ولكنه علم يقوم على البهتان أو اذا شئت فانه فن عقيم أو نوع من الخرافة يستغلها المكرة وذووا الدهاء من أهل القبيلة للتسلط على عقول الافراد واخضاعهم لسلطانهم .

ولكن هذه الخرافة كانت فى نظر فريزر ذات نتائج بعيدة المدى فعنها خرج العلم والفن كما أنها أصل العقيدة الدينية . أما كيف نشأ العلم عن السحر فان فريزر يوضح ذلك بقوله ان السحر فى مظهره الخالص يقوم على الاعتراف بأن الاحداث الطبيعية تتتابع بالضرورة دون الحاجة الى تدخل عامل روحى أو مادى . وهذا المبدأ هو بعينه المبدأ الذى يقوم عليه العلم الحديث : مبدأ النظام ووحدة القوانين الطبيعية . فالساحر مقتنع تمام الاقتناع بأن العلة الواحدة لا يمكن أن تصدر عنها الا نتيجة واحدة وهو لا يمارس فنه الا إذا سار وفق قوانين الطبيعة على قدر فهمه لها. ولا يتوسل الى كائن آخر أقوي منه أو أكثر سلطانا كما يفعل الكاهن أمام معبوده ولا يحني هامته أمام جبروت الآلهة . هذا التشابه بين المبدأ الذى يقوم عليه السحر والمبدأ الذى يقوم عليه العلم هو الذى حدا بفريزر الى القول بأن العلم وليد السحر فكلاهما ينظر الى ما يحدث في الطبيعة لا على أنه وليد الصدف أو الأهواء الشخصية بل على أنه ناتج عن قوانين ثابتة تتتابع في نظام آلى. (٢)

(١) *Origines Magique de la Royauté* (Trad. franç.). pp. 35-38.

(٢) *Rameau d'Or* I. p. 64-65.

ولما كانت حياة القبيلة البدائية لا تستطيع أن تقوم بغير أداء بعض الشعائر السحرية من حين لآخر ، فقد أصبحت طبقة السحرة في مركز ممتاز ، واقتصرت هذه المهنة بطبيعة الحال علي أكثر أفراد القبيلة ذكاء وأشدهم دهاء . وكان تحررهم من القيام بأعباء الحياة المادية مما ساعد كثيرا علي تفرغهم لبعض الأبحاث العلمية . هؤلاء السحرة أمثال صانع المطر والطبيب المشعوذ والساحر الزراعي والساحر المتنبيء هؤلاء جميعا هم أسلاف أطبائنا وجراحينا بل ومخترعينا في الوقت الحاضر (١) فالسحر ولو أنه وليد الجهل والوهم الا أنه أبو الحقيقة والحرية فقدساعد كثيرا علي تحرير الانسان من عبودية التقاليد .

أما عن علاقة السحر بالدين — وهو موضوع بحثنا — فان فريزر ينوه فى باديء الأمر بما بين الظاهرتين من تنافر في المظهر الخارجى . فأهم ما يميز الدين على حد قوله « الضراعة والتوسل من جانب الانسان نحو قوة عليا يعتقد أنهـا تسيطر على شئون الطبيعة وعلى حياته . وهذه الصفة وحدها قد تكون كافية لتظهر لنا تعارض الدين مع السحر والعلم على السواء (٢) فموقف الساحر هو موقف الآمر المتحكم . أما رجل الدين فانه يضرع ويتوسل وذلك لأن الأول يشعر أنه يواجه قوى قد تكون مماثلة له في طبيعتها أو أقل منه على حين أن الثاني مقتنع تماما بأنه يتوجه نحو قوة عليا خارجة عنه transcendante وتتحكم في مصيره . هذا التعارض بين موقفى الدين والسحر يفسر لنا العداء المستحكم الذى كان ينشب فى مختلف العصور بين السحرة والكهنة . فان غطرسة السحرة واستخفافهم بالقوي التي تسيطر على الطبيعة جلبت عليهم سخط رجال الدين الذين كانوا يقارنون هذا التحدى بخضوعهم وضعتهم أمام الشعور بعظمة الآلهة. ومما زاد هذا الشعور بالسخط ما كانوا

(١) *Origine magique...* pp. 93-95.

(٢) *Rameau d'Or* pp. 66-67.

يشاهدونه من ثراء السحرة وتمتعهم بالجاه والسلطان دون عناء علي حين أنهم كانوا يقضون العمر فى التقشف وتعذيب النفس ويقطعون مرحلة طويلة شاقة في سبيل الوصول الى رضا الله والدخول فى رحمته .

ولكن فريزر يعود فيؤكد لنا أنه بالرغم من هذا الخلاف الظاهرى بين السحر والدين فان السحر هو الظاهرة الاجتماعية التي سبقت الدين من حيث الظهور وهو الأساس الذي نشأت عنه العقيدة الدينية . فقد نشأ الدين من أخطاء السحر وفشله فى كثير من محاولاته . إذ ظل الانسان مدة طويلة يعتقد أنه يستطيع بنوع من الخيال والاقتناع العقلي أن يكيف الأشياء كيف يشاء وأن يتحكم فى القوي الطبيعية كما يتحكم فى حركاته وسكناته ولكنه ما لبث أن اصطدم بمقاومة الظواهر الطبيعية له وعدم سيرها طوع بنانه . فعزى ذلك الي وجود قوى خفية خارجة عنه أطلق عليها اسم «الآلهة» ونسب اليها القوة والعظمة والمقدرة . ثم اضطرته هذه الصفات الى أن يقف منها موقف الخضوع والخشوع والي أن يتزلف اليها بالقرابين والصلوات والأدعية . ويدعم فريزر نظريته هذه بأسباب ثلاث :

(١) أن السحر بشعائره وطرقه واحد أينما وجد . واحد من حيث مبدؤه ومن حيث تطبيقاته العملية علي حين اختلفت الديانات حسب المجتمعات التي نشأت فيها والعصور التي ظهرت فيها . فكلية السحر Universalité وخصوصية الدين particularisation سببها أن السحر هو الطبقة الأكثر عمقا أو الجذور الأصيلة التي تفرعت عنها الديانات .

(٢) تتميز الظواهر السحرية بأنها بسيطة أولية على حين أن العقائد الدينية وما يتبعها من شعائر وطقوس تمتاز بطابع التعقيد الذي يرتكز في غالب الأمر علي تقدم الفكر . فقد اكتشف الانسان بعد ممارسة السحر أزمانا أن السحر قد يخفق فى كثير من الأحيان وحينئذ بدأ يشعر بضعفه وجهله وبقوته المحدودة . فمهد هذا الشعور

لظهور الديانات التي ما لبثت أن تغلبت على السحر وظهرت عليه .

(٣) نلاحظ فى بعض الديانات اختلاط شعائرها ببعض عناصر السحر كأن تحتوى هذه الشعائر مثلا علي صيغة الرجاء والأمر معا . ولا بد أن يكون ذلك قد حدث فى عصر الانتقال من السحر الي الدين فتعلقت بعض عناصر السحر بالعقائد الدينية وأصبحت جزءا منها . وأعظم مظهر لذلك الامتزاج ظهور الرجال الآلهة فى كثير من المدنيات الغابرة Les hommes-Dieux حيث كان الحاكم يجمع بين صفات الساحر والاله والملك (١).

***

أظهرت لنا الدراسات الحديثة وخصوصا دراسات ليفي برول خطأ فريزر الأساسى من حيث المنهج méthodologique . فقد بنى نظريته وما علق بها من تفسيرات مختلفة على مبادىء عقلية أومقولات Catégories تختص بها عقلية الشعوب المتحضرة وأراد تطبيق هذه المبادىء علي العقلية البدائية . فنراه يتحدث عن التشابه Similitude والاتصال contiguité ، التناسق Ordre ، العلية Causalité دون أن يفرق بين ما قد يفهمه البدائى عن هذه المقولات وبين فكرة المتحضر عنها في الوقت الحاضر . ولذلك فانه قد نزع عن السحر كل عنصر عاطفي علي حين أن أهم ما يميز العقلية البدائية خضوعها لنوع من القوة الخفية لا تخضع لسلطان العقل وقد عبر ليفي برول عن ذلك بقوله ان العقلية البدائية تخضع لسلطان الروح pensée mystique (٢) فالبدائي يعتقد أن هناك قوي خفية تؤثر فى الأشياء تأثيرا قد لاتدركه الحواس ولكنه مع ذلك حقيقي ويعتقد كذلك أن هناك صلة خفية بين الأشياء وأن الشىء يمكن أن يكون هو وشيئا آخر فى وقت واحد (٣)

(١) Ibid. pp. 84-136.

(٢) راجع كتابه عن العقلية البدائية *La Mentalité primitive*

(٣) اطلق ليفى برول علي هذا النوع الاخير من التفكير البدائى اسم «قانون المشاركة» Loi de participation, وهو يناقض المبدأ المعروف فى المنطق باسم «مبدأ الهوية» Principe d'Identité.

كما أظهرت لنا دراسات موس وهوبرت عن موقف الساحر ووصفهما المسهب للشعائر والأفعال السحرية (١) خطأ فريزر فى اعتقاده أن الساحر شخص ماكر يستغل سذاجة الأفراد أى أنه يعتمد أولا وقبل كل شيء علي عقله في التأثير عليهم. فالحقيقة التي أثبتها البحث وأثبتتها المشاهدة أن الساحر يكون أثناء تأدية عمله في حالة ذهول وغيبوبة كالتي يقع فيها المتصوف حين تنتابه نوبة الاشراق فيغيب عن وعيه ولا يشعر بالمؤثرات الخارجية ويأتي بحركات غير ارادية . وهذه الحالة التى تعتريه Etat d'extase, de catalepsie تنتقل عن طريق التأثير وبفعل البخور والطبول والرقصات التي تصاحب العمليات السحرية — الى من حوله من مريديه . فتنتابهم النوبة التى تنتابه وهذا شرط أساسى لنجاح عملية السحر .

ثم ان العمليات السحرية ليست من البساطة كما يدعي فريزر بل هى على العكس شديدة التعقيد وتستلزم لأدائها شروطا كثيرة منها ما يتعلق بالمكان الذي يراعى فيه أن يكون نائيا عن المساكن كالمقابر والكهوف والمستنقعات والغابات حيث تتخذ الأرواح والشياطين مقامها المختار . ومنها ما يتعلق بالزمان الذي يجب أن يحدد بعناية فائقة من حيث الساعة واليوم والشهر وفصل السنة ويستدعي ذلك طبعا إلماما تاما بحالة الكواكب وأوضاعها حتى ليقال إن بعض السحرة الهنود يعتقدون أن من الشعائر السحرية ما لا توآتى الظروف لأدائه الا مرة واحدة كل خمسة وأربعين سنة . ومنها أخيرا ما يتعلق باختيار أدوات السحر نفسها وكيفية تحضيرها. فالساحر الذى يريد أن يشفي مريضا يذهب لجمع أعشابه فى ليلة قمراء أو عند شروق الشمس ويجمعها بنظام خاص مستعملا في ذلك إبهامه وسبابته دون الأصابع الأخري ويراعى ألا يمر ظله حين يسير علي الأرض التي يختارها لجمع أعشابه إلى غير ذلك من الظروف والملابسات التى لا يتسع هذا المقال لسردها .

---

(١) انظر : L'Année Sociologique 1902-03, pp. 20-85.

علي أن مضمون السحر ذاته وما يحتويه من رموز واستدعاء قوى خفية كل ذلك يخرج به عن صفة البساطة . فهو ليس إذن كما يدعى فريزر عملية عقلية أو منطقية ولكنه صور رمزية وانفعالات ونزوع إلى نوع من الاتصال الروحى، حالة من حالات الضمير الجمعى لا يمكن تفسيرها تفسيرا عقليا وإنما يفسرها تحليل نفسية المجتمع ومعتقداته .

وقد وصل كودرنجتون Codrington من بحثه في هذه الناحية إلى اكتشاف فكرة الـ (مانا) Mana التى تخضع لها الظاهرة السحرية عند الشعوب الأولية :

عقيدة الـ (مانا) واتصالها بظاهرة السحر :

نظرية كودرنجتون:

عكف كودرنجتون على دراسة حضارة الشعوب الميلانيزية وهداه بحثه إلى اكتشاف عقيدة الـ (مانا) التي تسيطر على عقلية هذه الشعوب (١) وقد عرّف هذه العقيدة بما يلى :

«يعتقد سكان ميلانيزيا فى وجود قوة متميزة تماما عن القوة المادية . وهذه القوة تؤثر بطرق شتى إما لجلب الخير أو لجلب الشر . وهى تسهل كل شىء لمن يستطيع امتلاك زمامها ووضعها تحت سيطرته . هذه القوة هى الـ (مانا) : تأثيرها لا مادي ويمكن أن يقال إنه خارق للطبيعة surnaturel ولكن نتائجه تظهر علي شكل مادى فتمنح القوة الجسمية أو الجاه أو السلطان . وهذه القوة لا تكمن في شىء بذاته بل يمكن لمن يعرف سرها أن يجعلها تسري في كل شىء فهى العنصر الفعال الذي يمكن الفرد من السيطرة على قوة الطبيعة وتوجيهها كيف يشاء . إذا امتلكها الانسان استطاع جلب المطر أو الصحو ، الهدوء أو العاصفة . كما أنه

(١) شرح كودرنجتون هذا الاكتشاف في كتابه The Melanesians 1899 الذى ظهر بعد كتاب فريزر The Golden Bough بسنوات قليلة.

يستطيع أن يشفى مريضا أو يجلب المرض لسليم وأن يتنبأ بالمستقبل ويجلب السعادة لشخص أو يبعد عنه الشقاء . والاعتقاد فى هذه القوة هو أساس السحر والشعوذة . فالسحرة والمطببون والعرافة كل هؤلاء لا بد لهم من امتلاك هذه القوة» .(١)

يتضح لنا من هذا التعريف أن كودرنجتون يرى أن الـ (مانا) هى القوة السحرية ، وهو يطلق عليها فعلا في كتابه هذا الاسم «Magical power» . وهذه القوة ولو أنها خارقة للطبيعة surnaturelle إلا أنها كامنة فى الأشياء immanente أي أنها تتغلغل في كل شيء وتتحد به (وفي هذا ما يميزها عن القوة العلوية الخارجة La force transcendante) وفى استطاعة الانسان او الجماعة أن يسيطروا عليها ويستغلوها لقضاء مصالحهم .

هذا التميز هو الخطوة الكبرى فى سبيل الاتجاه نحو التفرقة بين ظاهرة الدين وظاهرة السحر . وقد سار ليمان Lehmann ، مالينوفسكي Malinowski فى هذا الاتجاه حتى وصلا بعد تحليل عقيدة الـ (مانا) إلى اثبات هذه الحقيقة : وهى أن السحر والدين ظاهرتان متباينتان لا صلة بينهما من حيث الأصل ، بل إن كلا منهما تقوم على أسس نفسية مختلفة .

ليمان يواصل البحث فى عقيدة الـ (مانا) :

بعد أن وضع كودرنجتون أساس التفكير فى عقيدة الـ (مانا) عند سكان ميلانيزيا جاء بعده ليمان Lehmann أحد تلاميذ العلامة الألمانى فوندت Wundt فواصل البحث فى هذه الناحية وأخرج لنا وصفا دقيقا شاملا لجميع مظاهر تلك العقيدة (٢). لاحظ ليمان عندما تعرض للبحث فى النواحى التطبيقية لهذه العقيدة أن

(١) The Melanesians, pp. 191 et suiv.

(٢) Lehmann: *Le Mana* 2ème édit. 1922.

هذا اللفظ (مانا) له معان كثيرة من الناحية اللغوية الصرفة (١).

فمعناه (أولا) في اللغة الميلانيزية يفكر ، يحب ، يرغب كما أنه يعني موضوع الشيء الذى تفكر فيه أو تحبه أو نرغبه — ثم هو يعني (ثانيا) النجاح والسعادة — (ثالثا) القوة الخارقة للطبيعة التي تقود الى النجاح والسعادة والتي نبحث عنها ونرغبها — (رابعا) المكانة الاجتماعية التى يتمتع بها شخص ما ومبلغ نفوذه فى المجتمع — (وأخيرا) التأثير الخفى الذى ينتج عن ممارسة قوى غير طبيعية .

ويعتقد لمان أن هذا المعنى الأخير هو المعني الأصيل لكلمة (مانا) وعنه تفرعت المعاني الأخري لأن استعمال كلمة (مانا) كصفة أو إسم ناتج عن المصدر «التأثير الخارق للعادة الذى يؤدى الى نجاح مباشر Das potenzierte ubernaturliche Konnen» . ويهمنا ان نسجل هنا أن الـ (مانا) كقوة سحرية تستدعى بذل أقصى قدر من الجهد فى سبيل النجاح ، أى ان العنصر الأساسي فيها هو النشاط الانسانى (وفى ذلك تمييز آخر لها عن أساس العقيدة الدينية) .

وقد توصل لمان بعد ذلك الى التمييز بين ثلاثة أنواع من الـ (مانا) :

(ا) نوع يعمل فى محيط الانسان كقوة تؤثر في العلاقات بين الأفراد والجماعات ، ويطلق عليها السكان الأصليون اسم «مانا تنجاتا Mana Tangata» . وهذه القوة قد تصيب الفرد أو الجماعة علي السواء . فالمحاربون الذين يصيبون النجاح والفوز في القتال يتمتعون بنصيب من قوة الـ (مانا) الفردية . وقد وصف تي كاوتى أحد الأبطال الذين قادوا الثورة ضد الانجليز بين قبائل الماهورى Les Maoris بأنه (مانا تنجاتا) أى الرجل الذي يتمتع بقوة لا مثيل لها . وقد تصيب هذه القوة أفراداً من أحط الطبقات فلا يلبث أن يتحقق سريانها اليهم بالنجاح الباهر الذى

(١) أشار هوبرت وموس الي بعض هذه المعاني فى بحثهما المشار اليه آنفا . انظر L'Année Sociologique 1902.

يكلل أعمالهم وبارتفاعهم الى أسمى مكانة في المجتمع . ويحدث الانتقال من الفكرة الفردية الى الفكرة الجمعية لهذه الكلمة حين يُقصد بها السلطان والمكانة الاجتماعية اللتان تضفيان على الفرد قوة يستطيع بها التأثير على سائر أفراد المجتمع . فيقال مثلا إن هذا الرئيس أو ذاك القائد الحربي يؤثر بما وهب من (مانا) على عدد من العشائر فى نطاق معين من الأرض ، وهذا يعنى أن مجموعة الرجال الذين يعيشون داخل هذا النطاق يخضعون لسلطته وينفذون أوامره . ويفقد القائد طبعا هذه القوة وما يترتب عليها من سُلطة ونفوذ حين يُمنى بالهزيمة في الحرب أو يفشل فى أداء مهمة يتعين عليه أداؤها . وقد يفقد الرئيس أيضاً صفته كممثل لهذه الـ (مانا) الجمعية بتأثير عمل سحري يقوم به شخص آخر لانتزاع هذه الصفة منه . وقد ينشب الكفاح بين ساحرين أو مجموعه من السحرة حتى يستطيع أحدهم أن يثبت بهزيمته للآخرين أنه يتمتع بأعظم درجة من قوة الـ (مانا) ويقضى بذلك على ما كان أنداده يتمتعون به منها (PP. 33 et Suiv.) .

كل هذه الأمثلة تظهر لنا بوضوح أن الـ (ماناتنجاتا) قوة تتصل اتصالا وثيقاً بالانسان وأنها مألوفة لديه يستطيع أن يحصل عليها ويضاعفها بمجهوده الخاص كما أنه قد يضعفها أو يفقدها إذا تراخى ذلك المجهود . وهى لذلك قوة أرضية لا صلة لها بحرمة الدين وقداسته . ويدخل تأثيرها فى كل ما يقوم به الفرد أو الجماعة من عمل. وقد لاحظ ليمان — كما لاحظ من قبله كودرنجتون — الدور الذى تلعبه عقيدة الـ (مانا) فى المجهود الصناعي والحرفى لسكان ميلانيزيا وخصوصا فى صيد اللآلىء . فالصياد الذى يغوص بمهارة إلى قاع البحر ويعود سريعا محملا بصيده يتمتع بحظ وافر من قوة الـ (مانا) ويكون ذلك خير عون له في عمله يقيه شر المخاطر .

وقد جاءت بعد ذلك دراسات مالينوفسكي عن العلاقة بين العمل والسحر مؤيدة

لتلك الملاحظة . إذ يقول[١] «إن السحر والعمل عند القبائل البدائية يسيران جنبا الى جنب ولا يستغنى أحدهما عن الآخر . فالبدائيون يعتقدون أن ما يقومون به من عمل لا ينجح إلا بفضل السحر ، كما أن السحر لا معنى له فى نظرهم إلا اذا كان عونا على العمل»[٢]. ويقول في موضع آخر «ولا يمكن أبداً أن نشبه الساحر بكاهن يتزعم حفلة دينية ، ولكن الوصف الذى ينطبق عليه هو انه صانع تخصص فى حرفة ما تعين على أداء الحرف الأخرى»[٣]. فالسحر إذن لازم لأداء أي عمل وينتظر البدائي منه ما ينتظر المتحضر اليوم من الحظ السعيد أو المصادفة الحسنة . والقيام بعملية سحرية معناه — إذا ترجمنا ذلك بلغة المتحضر — وضع الحظ فى جانبه ولذلك يستعان بالسحر خاصة عند الاقدام على عمل يستدعى المخاطرة ويلوح فيه جانب الخطر[٤].

(ب) أما النوع الثانى من الـ (مانا) فانه خاص بالحيوان والطير والأشياء الجامدة . ويتصل هذا النوع بما يعتقده البدائيون من وجود قوة خفية منتشرة فى الطبيعة مستقلة عن إرادة الانسان وتؤثر فى الأشياء دون تدخله . وقد استنتج ليمان من هذا الاعتقاد أن الـ (مانا) ليست صفة عارضة يُكسبها الساحر لما يزاوله من الأعمال بل انها في الواقع قوة حقيقية منتشرة فى كل شىء ، وإن كان الانسان لا يدري كنهها ولا يستطيع تعليلها . وتعمل هذه القوة فى محيط الحيوان والنبات والجماد دون أن يكون للانسان دخل في ذلك. ويعتقد سكان ميلانيزيا ان بعض

---

(١) انظر كتاب مالينوفسكي .Malinowski: Argonauts of the Western Pacific

(٢) Ibid. p. 414.

(٣) Ibid. p. 142.

(٤) انظر ايضا كتاب مالينوفسكي
Myths in Primitive Psychology 1926 (p. 107-117)
صحح ليفي برول نتائج هذا البحث فيما يختص باقتصار السحر علي العمل الخطر فى كتابه :
Expérience mystique et les Symboles chez les primitifs 1938.

الطيور يختص بقوة عظيمة من الـ (مانا) وأن الانسان قد يستطيع فى بعض الأحيان وبعد بذل مجهود شاق أن يتحكم فى هذه الـ (مانا) ويستخدمها في أغراضه ومصالحه (وفي هذا ما يفسر استخدام بعض الحيوانات أو بعض أنواع الأحجار فى الشعائر السحرية).

(ج) وهناك نوع ثالث من الـ (مانا) تختص به الأرواح والآلهة ويسمى «مانا أتوا» Mana atua . ويجب أن نلاحظ جيدا أن هذه القوة تعمل فقط فى محيط الآلهة ، أي فى كفاحها بين بعضها البعض ، ولكن لا شأن لها بالعلاقات بين الآلهة والانسان ، لأن الآلهة فى علاقاتها مع الانسان لا تحتاج لمزيد من القوة وصفتها الذاتية تكفي لاخضاعه والتحكم فيه .

* * *

خلاصة البحث :

يتضح مما قدمنا من وصف عقيدة الـ (مانا) واتصالها بالظاهرة السحرية أن هذه الظاهرة لا تتصل من قريب ولا من بعيد بالعقيدة الدينية . فالسحر يقوم على القوة الخفية التي يُعتقد أنها تسري فى المحيط الأرضى ، أما الدين فانه يقوم على فكرة التقديس La notion du sacré .

ونحن إذا أنعمنا النظر فيما كتب موس وهوبرت عن السحر وعلاقته بالدين ، وجدنا أنهما يميلان للفصل بين هاتين الظاهرتين ، وإن تكن هناك اعتبارات أخرى تتعلق بمبدئهما الفلسفى جعلتهما يلتمسان طريقا آخر لايجاد صلة بين الظاهرتين من حيث الأصل . إذ نجدهما يقولان فى معرض المقارنة بين السحر والدين «إن الشعائر الدينية تتصف بطابع القدسية والالزام ، وانها عامة يشترك فيها الجميع وتقام في أوقات ومناسبات منتظمة . وعلى النقيض من هذه الشعائر توجد شعائر أخرى

لا تُؤدي إلا فى الخفاء ، وذلك لأن المجتمع حرَّمها وفرض العقوبة علي من يمارسها وهى شعائر السحر الأسود Les maléfices التى يُقصد من ورائها الهدم وجلب الشر . ولكن هذين القطبين المتناقضين ، قطب التضحية وقطب الشر ، يفسحان المجال بينهما لطائفة من الظواهر التى قد يصعب تحديد طابعها الخاص لأول وهلة . وهذه هى الظواهر السحرية المباحة التى تقصد في مجموعها إلى الناحية العملية أو الفنية كالتطبيب أو جلب المطر أو زيادة خصوبة الأرض الخ...»[١]

ترينا هذه الفقرة بوضوح تردد العالمين موس وهوبرت فى وصل السحر بالدين أو فصله عنه . وقد اتجها آخر الأمر الى البحث عن أصل واحد للعقيدتين ووجدا أن فكرة الـ (مانا) هى ذلك الأصل ، ولكنهم قسموها الى قسمين : نوع مقدس mana sacré هو أصل الدين ، ونوع غير مقدس هو أصل السحر . فكل ما هو مقدس أو ديني يرجع في نظرهم الى فكرة الـ (مانا) ، ولكن ليس معنى ذلك أن كل (مانا) ترتفع الى مرتبة التقديس . وقد اتجه موس وهوبرت هذا الاتجاه لأسباب تتعلق بمنهج المدرسة السسيولوجية الفرنسية ، هذا المنهج الذى يقوم على اعتبار كل ظاهرة اجتماعية سواء أكانت دينية أو سحرية ناتجة عن الضمير الجمعي أو عن القوة الجمعية .

ويميل الفيلسوف برجسن أيضا لفصل السحر عن الدين ، ويظهر ذلك جليا فى بعض فقرات من كتابه «مصدري الدين والأخلاق»[٢]، فقد قسم فى هذا الكتاب ظاهرة التدين الى نوعين : الديانة الاستاتيكية التى تقوم علي غريزة حب البقاء والكفاح فى الحياة ، والديانة الديناميكية التي تقوم على الحدس والفناء في عالم الروح L'intuition mystique . وربط السحر بالنوع الأول أى بالديانة

---

(١) راجع المقال المشار اليه آنفا . L'Année Sociologique 1902, p. 19.

(٢) Bergson: *Les deux sources de la morale et de la religion.*

الاستاتيكية لاتحادهما في الهدف وهو « دفاع الغريزة الطبيعي ضد ما قد يحدثه عمل العقل من خيبة أمل فى نفس الانسان» (ص١٢٧).ولكن العلاقة بين السحر والدين تقتصر فى نظره على الأساس النفسى الذي أوجد كليهما وفيما عدا ذلك لا يجد مجالا للتساؤل «فيما إذا كان السحر قد تفرع عن الدين أو إذا كان الدين قد تفرع عن السحر . فكلتا الظاهرتين معاصرة للأخرى» (ص ١٨٥) . وهو يرى أن السحر متأصل فى الانسان inné وأنه المظهر الخارجي للرغبات التي يختلج بها صدره (ص ١٧٧) ، ويمكن إرجاعه في النهاية الى عنصرين أساسيين :

(١) الرغبة فى التأثير على الأشياء المحيطة حتى ما لا يمكن أن تصل اليه يد الانسان.

(٢) الاعتقاد بأن الأشياء يسري فيها ما نستطيع أن نطلق عليه اسم « العصارة الانسانية Le fluide humain.

«وفكرة العصارة الانسانيه هذه أو بمعنى آخر فكرة الـ (مانا) ، انما هى فكرة سحرية صرفة لا علاقة للدين بها» (ص ١٨٣) وذلك لان «الدين قوامه معبودات مقدسة تسمو على قوة الانسان ، على حين أن السحر يرتكز على قوة خفية منبثة فى العالم المادى ويستطيع الانسان ان يتحكم فيها ويسيرها لأغراضه الشخصية» (ص ١٧٤ ، ١٨٣) . والسحر يدعى لنفسه الغلبة علي قوة الطبيعة ، على حين أن الدين يطلب رضا الآلهة . كما أن السحر يتميز بصفة الأنانية على حين أن الدين يقوم على إنكار الذات .

* * *

والنتيجة التى نصل اليها من هذا البحث ، أن السحر يقوم على فكرة الـ (مانا) أي اعتقاد الانسان بوجود قوة خفية كامنة في الاشياء force immanente وهذه القوة تتصل بجميع أعمال الانسان وتأتلف معه لتعاونه في حياته وخصوصا في

الناحية العملية منها . وفى هذا ما يميزها عن العقيدة الدينية التي تقوم على أساس التقـديس أو العبادة ، والتقديس لا يكون إلا لقوة عليا force transcendante خارجة عن محيط الانسان .

وتعمل قـوة الـ (مانا) على الأخص فى نطاق كائنات من مستوى وجودي واحد du même rang ontologique على حين أن أهم مظاهر العقيدة الدينيـة وجود كائن أعلى يختص بالنفوذ العلوى وكائن أسفل يتصف بالخضوع وطلب الرضا والعفو والغفران .

وانتفاء صفة العلوية عن الـ (مانا) يجعل من الممكن الاستحواذ عليها وتسخيرها بواسطة الانسان ، وليست العمليات السحرية إلا وسيلة للاتصال بهذه القـوة وتسخيرها . ويمكن تشبيه الساحر فى اتصاله بهذه القوة الخفية بما ورد فى فلسفة أفلاطون عن الكائنات المؤلهة Les démiurges التى تشترك فى تنظيم العالم. ولكن ليس معنى ذلك أن الساحر يخلق هذه القوة خلقا ، فانها موجودة فى الاشياء فى حالة سبات d'une façon latente ويقتصر عمل الساحر على تحريكها وإيقاظها من مكمنها .

وقد نتج عن فكرة الـ (مانا) وما يتعلق بها من ممارسـة العمليات السحرية تقوية الروح المعنوية فى الانسان او الجماعة وشعورهم بقوتهم وبنتيجة مجهودهم الذاتى . فتولد عن ذلك نوع من الاعتداد بالنفس مما ساعد كثيرا على تقدم النشاط الانسانى واتجاهه نحو الاستنباط والابتداع ، ومن السهل أن نتبين أن هذا الاتجاه لا تساعد عليه نزعـة التدين ، لان الدين فوق ما يستلزم من خضوع وخشوع أمام قوة عليا من شأنه أن يشعر الانسان بضعفه وقصوره واحتياجه دائما الى عون يأتيه من فوق عن طريق الآلهة .

****

السحر والدين إذن ظاهرتان لا تتصل احـدهما بالاخرى لا من حيث النشـأة ولا من حيث الاسس النفسية التى تفسر كلا منهما . فأساس السحر هو تلك الرغبة الـمُلـحَّة عنـد الانسان التي تدفعه للعمل وبذل الجهـد حتى يستطيع أن يتحكم في ظواهر الطبيعة ، وهذه الرغبة قد تكـون مصحوبة بشيء من الوجل أو التهيب la crainte حين يقدم الانسان على مجابهة قوى لا يزال سرها مغلقاً عليه . أما أساس الدين فهو ذلك الشعور بالضعف وبقلة الانسان وبحاجته للمعـونة وما يترتب على ذلك من موقف الانتظار وطلب الرحمة ، ويصحب ذلك الشعور نوع من الفزع angoisse حينما يجد الانسان نفسه وحيـدا لا حول له ولا قوة ، ولا يخرجه من ذلك الفزع إلا أن يبتهل إلى قوة عليا ترسل اليه السلام والطمأنينة .

الفلسفة واللغة

بمناسبة صدور الطبعة الخامسة للقاموس الفلسفى
للأستاذ لالاند

ترك الأستاذ أندريه لالاند ، عضو المجمع العلمى الفرنسى ، كرسى الفلسفة بجامعة فؤاد فى مارس سنة ١٩٤٠ ، وبقى أثناء سنى المحنة بين فرنسا المحتلة وفرنسا غير المحتلة ، ثم استقر أخيرا فى باريس مترقبا تحرر فرنسا. ومنذ رجوعه لفرنسا حتى اليوم ، وقد جاوز الثمانين ، اشتغل طول الوقت باعداد مقالات جديدة ، وإعادة طبع كتبه وتنقيحها والزيادة فيها ، ونشر ما لم يتيسر له نشره من دراساته ومحاضراته .

ليس أستاذنا لالاند فيلسوفاً كهاملان (Hamelin) صاحب مذهب تنتظم فيه الأفكار ، أو كبرجسون مخترع منهج فلسفى تُدرَس فى ضوئه المشكلات . ولكنه كان ، وما زال ، خير معلمى الفلسفة . كان ، وما زال ، عقلا محللا ، يوجه تلامذته وأصدقاءه الفلاسفة ، ويشجعهم على القيام بالدراسات المنطقية اللغوية ، يدعوهم ، رغم ما بينهم من اختلاف أوجه النظر ، الى التعارف والتداول والمناقشة. — وفق فى مبدأ حياته الفكرية ، مع صديقه كزافييه ليون (Xavier Léon) ، الى تأسيس الجمعية الفلسفية الفرنسية . وليس أدلّ على توفيقه من التفاف ممثلى الفكر الفرنسى المعاصر حوله ، بل والفكر العالمى أيضا ، لمناقشة أهم المشكلات العلمية العامة والفلسفية أثناء جلسات الجمعية، ومن تدوين هذه المناقشات فى مجلة(١)

(1) *Bulletin de la Société Française de Philosophie.*

تصدر تباعاً حتى اليوم منذ سنة ١٩٠١ . كما أن أظهر علامة على مجهود الاستاذ تخصيص أهم مناقشات الجمعية لدراسة عناصر اللغة الفلسفية الفرنسية ، والمقارنة بين مصطلحاتها على ممر العصور : عمل الأستاذ لالاند على إعداد هذه المناقشات ، فبعد تعيين المصطلحات الأوروبية القديمة والحديثة المقابلة لكل كلمة فلسفية فرنسية ، يحرر الأستاذ بنفسه تعاريف الكلمة وما يلزم هذه التعاريف من الشروح ، مستعيراً من أعظم الفلاسفة والكتاب ، أفضل النصوص التي تمثل استعمال الكلمة . ثم يعرض نتائجه هذه على أعضاء الجمعية الفلسفية ، فيناقشونها ويدلون آراءهم بصددها ، ثم يقرن الأستاذ هذاالبحث المخصص لكل كلمة فلسفية ، بدراسة نقدية ، يجمع فيها بين مقارنة الاستعمالات المختلفة للكلمة ، واستخلاص نتائج المناقشة التي قامت بين الأعضاء وبينه بصدد المقال .

عمل جليل حقا كرس له الأستاذ أوقاته الثمينة مدة عشرين عاما ، وظهرت ثمرته في سنه ١٩٢٦ تحت عنوان «قاموس المصطلحات الفلسفية الفني والنقدي»(١) في مجلدين. هذا العمل الذي صدرت طبعته الخامسة، منذ بضعة شهور في مجلد واحد، طبعة مزيدة ومنقحة ، هو ما نزمع التكلم عنه اليوم .

* * *

يقول مونتيني (Montaigne) في فصل من فصوله الممتعة ان « أغلب خصوماتنا تقوم على أغلاط لغوية» . — نعرف أن فرنسيس بيكون كان له رأي مماثل ، وإنه كان يعتبر تاريخ الفلسفة كله منذ العصور القديمةمسرحاً لمناقشات تافهة حول الكلمات .

وإن كان بيكون مخطئاً في تقديره هذا ، ومتشيعاً لعصره في معاداة المدرسيين،

(1) *Vocabulaire Technique et Critique de Philosophie* (Presses Universitaires, de France 5e édition, Paris 1947).

إلا أنه وجه بعد مونتيني نظر الباحثين الى منزلة دراسة اللغة وأساليبها وكلماتها من الفكر الفلسفي . — ولسنا مبالغين ان قلنا بهذا الصدد أن الفلاسفة ، فى نظر رجلين كسقراط وأفلاطون ، لم تكن إلا دراسة دقيقة لبعض كلمات يتداولها الناس فى حديثهم ، وتدل على معان يحققها كل منهم فى حياته طول الوقت ، نقصد كلمات مثل الفضيلة والعلم والشجاعة والعفاف والجمال والوجود وما الى ذلك . وإن لم تبلغ دراسة هذين الرجلين لمعانى الكلمات ، الى نتائج نهائية ، فهى وجهت على الأقل نظر الناس الى أمر هام : هو أننا نتفوه فى أغلب الأحيان بكلمات لا ندري معناها أو تُحمل على معان متناقضة أو استخلصب من تجارب لا تربط بينهما عوامل مشتركة .

اعتُبِرت الفلسفة القديمة إذن دراسة للغة عند اثنين من كبار ممثليها . وان كان المجال لا يسمح لنا بتتبع هذا التأويل للفلسفة (١) أو بالتنويه عمن كان يعارضه أشد المعارضة ، كديكارت وتلامذته من الديكارتيين ، الذين كانوا يبحثون عن الأشياء فى ذاتها ، ويعملون على التأمل مباشرة مُثُلها دون ستار الألفاظ ، إلاأن هذه الاشارة تجعلنا نفهم ، لِمَ اتخذت ثورة هيوم على الفلاسفة، صورة بحث نقدى فى معانى الكلمات الفلسفية . يتساءل هيوم: الى أى تجربة واقعية يصح أن نرجع هذه المعانى ؟ — وان تبين أن هناك كلمات للفلاسفة لا تستند الى تجربة شعورية أو حسية ، أليس من واجبنا إقصاء هذه الكلمات ؟

لا يبغى أستاذنا لالاند فى قاموسه أو فى سائر مؤلفاته إرجاع المعانى الفلسفية الى التجربة الحسية أو الشعورية ، ولكنه يقوم بصدد الألفاظ ، بمجهود عظيم لتفهم أوجه استعمالها راجعا فى ذلك الى تاريخ اللغة وتاريخ الفكر .

---

(١) راجع هنا كتب بريس باران القيمة وخاصة
Brice Parrain: *Les Fonctions du Langage.* (Paris. 1942).

وإن كنا لا نستطيع فى دراستنا اليوم الالمام بالنواحى العديدة القيمه للقاموس فاننا سنعمل على الأقل على الاشارة الى ما يرمى اليه من أغراض هامة ، وما يستخدمه من طرق دقيقة لتحديد معانى الكلمات ، ممثلين لهذه الطرق ببعض أمثلة من القاموس .

ينبهنا الأستاذ لالاند فى مقدمة الطبعة الخامسة الى ما نجده عند بعض المفكرين وأشباه المفكرين ، من ألفاظ مُغرية ، ألفاظ كالوجودية والتعالى والفكر المتعالى ، يتوهم السامع أن وراءها معانى عميقة . الوظيفة الأولى للقاموس الفلسفى هى تحرير العقل من وطأة الألفاظ ، ولايتم هذا التحرير إلا بالبحث فى الألفاظ ذاتها وبتحديد مختلف معانيها . — إنما يجدر بصاحب القاموس ، قبل أن يحدد المعانى الفلسفية ، وهى معان مجردة كما نعرف ، أن يجد أصل استعمالها ، أن يتلمس الطريق الذى سلكه الانسان عند ما ترك التجربة الواقعية وشرع يُجرد ويتفلسف . يجد المدقق مع الأسف أنه قلما يدرك الأصل الحقيقى لمعنى كلمة من الكلمات ، قلما يعثر على جذر المعانى كلها ، بل يتعذر عليه تعيين طريق مفهوم بين الأصل والفروع ، أو حتى الكيفية التى اجتمعت بها الفروع فى جذع واحد . يبدو أن الكلمات تتخذ منطقا شاذا ، وأن بعضها لا يتخذ منطقا على الاطلاق . لنأخذ مثلا كلمة «طبيعة» (Nature) : شتان بين معنى هذه الكلمة فى عبارة روسو الشهيرة : « لنرجع لحالة الطبيعة » ، وبين معانيها عندما نتكلم عن طبيعة الذرة ، عن جمال الطبيعة ، أو عن قوانين الطبيعة .

وان ادعى البعض أن العبرة ليست بالكلمات بل بالمعانى ، وشرع الباحث فى إيجاد معان خالصة عارية ، لما وجد فى الذهن شيئا منها ، لا لأن الذهن صندوق

فارغ أو ورقة بيضاء كما يقول البعض ، بل لأن المعنى عبارة عن استخدام هذا الفيلسوف أو ذاك للكلمات، ولأن لكل كلمة حياةوتجربة وتاريخا فلسفيا مرتبطا بها، وأن المعانى لا تُكتَشَفُ إلا بتفصيل هذا التاريخ . وقد يكون التفصيل أمراً شاقا متعذرا كما ذكرنا إنما يمكن القيام على الأقل ، بصدد الكلمات الفلسفيه بوجه عام، وما شاع فى الاستعمال منها بوجه خاص ، باحصاء المعانى الهامة ، ومراعاة ما اذا كانت هذه المعانى متصلة فيما بينها ، وطبيعة هذا الاتصال ، ثم ، ان كانت منفصلة ، التساؤل عما اذا لم يكن هذا الانفصال جزءاً من منطقها الغريب .

لنوضح الآن كيف قام حضرة الاستاذ بهذا العمل، راجعين لبعض أمثلة هامة، وسنشير فى نهاية مقالنا الى ما بلغ اليه من نتائج .

يلاحظ الاستاذ بصدد كلمة « صدفة » (Chance) أصلها اللاتينى فى كلمتى (cadentia) ، (cadere) وارتباطها اللغوى بالكلمة الايطالية (Cadenza) . ومعنى هذه الكلمات الأصلى هو السقوط ، وخاصة سقوط زهر النرد ، ثم سقوط أو نزول النوائب . ولا شك أن هذا الأصل يبرر استخدام الكلمة فى الفلسفة للدلالة على الظواهر الاتفاقية ، ظواهر يدرسها العلم الفيزيقى وحساب الاحتمالات .

يلاحظ أيضا الاستاذ بصدد كلمة (Raison) «عقل وسبب» ، اشتقاق الكلمة من الفعل اللاتينى (reor) ، واسم المفعول (ratus) ، أى يحسب ويقوم بعملية حسابية . ولكنه يلاحظ أيضا أن نفس الكلمة (ratio) تستخدم عند الكتّاب اللاتينيين فى العصر الكلاسيكى ، للدلالة على الحساب ثم على النظام العقلى ثم على السبب . ولا يستطيع أن يوضح كيف يمكن لكتّاب عصر واحد أن يستخدموا نفس الكلمة فى معان متباينة ، دون أن يعينوا مبررا ظاهرا لتعدد هذه المعانى .

لننتقل مع الأستاذ الآن الى بعض كلمات هامة شاع استعمالها ، وأولاها كلمة «الطبيعة» (Nature) التى أشرنا اليها فيما سبق : هذه الكلمة من أقدم المصطلحات الفلسفية ، نجدها عند الفلاسفة الاغريقيين كعنوان لأسفارهم الشعرية والفلسفية ، ونجـــدها أيضا فى عنوان مؤلف رائع للشاعر والفيلسوف اللاتينى لوكريس . (Lucrèce) .

ما معنى أو ما معانى هذه الكلمة بالضبط ؟ للاجابة عن السؤال ، يجدر بنا أن نميز بين طائفتين رئيسيتين: نطلق «الطبيعة» أولا على صورة كائن من الكائنات أو على ماهيته ، ونطلقها ثانيا على الكائنات ككل ، على العالم بأكمله .

لننظر للطائفة الأولى : تعتبر الطبيعة مبدئيا كماهية كائن أو ماهية جنس من الكائنات . ولا يبعد كثيرا عن هذا المعنى استخدام ديكارت للكلمة : فالطبائع البسيطة عنده ، عبارة عن الكائنات من حيث أنها معقولة ، موضـع نظرة بسيطة ساذجـة . — وإن خصصنا الكائن وأردنا به الانسان أو الحيوان أصبحت «الطبيعة» دالة على الغرائز ، على ما للانسان من فطرة ، بعكس ما يكتسبه بالتجربة. أما إن نظرنا للانسان كعضو فى مجتمع متحضر ، دلت « الطبيعة » على حاله قبل التحضر ، وإن نظرنا له ككائن دينى دلت على حاله قبـل الوحى أو الخطيـئة ، وإن نظرنا له أخيراً ككائن فردى له استعدادات وميول خاصـة تتغير حسب الظروف ، فطبيعته هى طابعه أو سمته — . لدينا فيما سبق طـائفة اولى من معـانى «الطبيعة» تظهر فيها متفرعة عن أصل واحد .

ان نظرنا للطائفه الثانيه من المعانى وجدنا بعض الصعوبة في تفهم ارتباطها فيما بينهما ، وخاصة فى معرفه صلتها بالطائفه الاولى من المعاني: تطلق «الطبيعة» على الكل ، علي كل ما في العالم ، علي العـالم باكمـله ، وخاصة على الكل من حيث يحقق نظاما أو يتبع قوانين ، أو يظهر قيام مبدأ فعال فى العالم ، سواء كان المبدأ

عقلا ساريا بين الكائنات ، أو غاية عمياء تنشدها هذه . وقد تطلق الطبيعة على ما لا يتبع نظاما معقولا ، كما تطلق كثيرا على العالم المنظور وخاصة على عالم النباتات . — أما المعانى الرئيسية لهذه الطائفة فتتفاوت حسب النظام المقصود أو نوع القوانين المتبعة : يقصد الفيلسوف الألمانى كنت « بالطبيعة » قوانين ضرورية ، أما باركلى فيريد بها مجموعة القوانين التى وضعها الله للعالم بفعل ارادته ، وقد يكون النظام المقصود خلقيا ، وهنا تعنى «الطبيعة» مجموعة القوانين الكامنة فى النفس ، التى إن حاد عنها الانسان أنّبه على ذلك ضميره تأنيبا شديدا.

ما الذى نستخلصه من هذا التنوع الغريب؟ إن تطور معانى الكلمة لم يتخذ طريقا واحداً مستقيما ، بل كان معقدا متشعبا ، متجها كأشعة الضوء اتجاهات مختلفة . لا بل ان بعض هذه المعانى تتنافر فيما بينها ، حتى إن استخدمنا الكلمة فى معنى معين ، تعذر استخدامها فى المعانى الأخرى دون إطالة شرح وتفسير . ولذلك يقترح الأستاذ ، فى نهاية مقاله ، عدم استخدام الكلمة إلا فى النادر وعندما يكون الغرض منها واضحا كل الوضوح : فيقصر «الطبيعة» إما على العالم المنظور وخاصة النباتات والأشجار ، أو على العالم من حيث لا يحقق نظاما ظاهرا ، ثم ينصح فى الأحوال الاخرى باستخدام غيرها من الكلمات ، كماهية وغريزة ، للطائفة الاولى ، وكعالم وعقل وضرورة وقوانين ، للطائفة الثانية .

غير أن هذه النتيجة السلبية التى يقف عندها الاستاذ فى بحر مقاله لا ترضى بعض الفلاسفة ، ممن كان حاضرا مناقشة الكلمة : فيرى لاشلييه (Lachelier) ، ومكانته معروفة بين الفلاسفة المعاصرين ، أنه من الواجب على الباحث الفيلسوف أن يتعدى التنوع القائم بين معانى كلمة واحدة ، لأن هذا التنوع ظاهرة نلاحظها فى التاريخ ، ولا تخضع حتما لمعيار العقل . وعلى الباحث أن يكشف أيضا عن معنى أصيل متغلغل فى جميع الاستعمالات الأخرى . يقول لاشلييه : لو دققنا فيما

نعنيه ، وجدنا أن «الطبيعة» تدل قبل كل شىء على الوجود ذاته ، من حيث يعين ذاته ويتطور من الداخل رغم التأثيرات الخارجية .

لننظر الآن لكلمة لها أهميتها من نواح أخرى ، هى كلمة «العلة» (Cause) . نجد الاستاذ يدلى بصددها بملاحظات فقهية لم يسمح بها تاريخ كلمة « الطبيعة » . «العلة» (cause) من اليونانية *(aition)* هى فى الأصل ، الانسان المسؤول ، أو من يُوجَّهُ له الاتهام فى قضية جنائية معينة . و«العلة» باللاتينية (causa) ومنها الايطالية (cosa) ، لها فى الأصل معنيان واقعيان على الأقل : القضية بالمعنى المعروف فى المحاكم ، ثم الشىء موضوع الحديث — . جلىّ أن هذه الأصول أثرت فى تطور معانى الكلمة الى حد بعيد : «فالعلة» اذا اعتبرناها كمبدأ فعال تحدث عنه الآثار ، لهى أقرب الأشياء الى الارادة الانسانية التى تعمل وتتحمل تبعة أعمالها . أما اذا وجهنا النظر الى المعنى العلمى للعلة ، «فالعلة» شرط التغير والحدوث ، شرط هو جزء من الظاهرة يبتدىء عنده حدوثها، لا قوة خفية خارجة عن الظاهرة . ويرى الفلاسفة المعاصرون أن العالِمَ لا يميز علة الظاهرة من الظاهرة ذاتها وبأكملها — . وهذا معنى قول ليبنتز «ان هناك تطابقا بين العلة والمعلول». — فيصبح تطور معانى هذا المصطلح مشابها لحركة دوران حول قطبين، أحدهما ، المعنى الخلقى للعلة أى الارادة الفعالة ، والآخر المعنى المعتاد للكلمة ، الشىء الذى نقصده فى الحديث ، ونفرض بقاءه في التجربة ، رغم التغير .

ظهر منذ سنوات بحث طريف لانطوان مييه (Meillet) فى كلمة الله وأصلها

الهندى الأوروبى ، يوضح فيه ان الكلمة تعنى فى الأصل الأب والحامى والمدافع . وكان لهذا البحث أثر بعيد فى المناقشة التى دارت بالجمعية الفلسفية حول هذه الكلمة.

يؤدى بنا البحث فى تاريخ الكلمة الى ضرورة التمييز بين طائفتين من المعانى ، احداهما نظرية فلسفية والأخرى خلقية اجتماعية . — الأولى تدور حول فكرة تفسير العالم : الله عند اسبينوزا هو العالم ذاته ، الوجود معتبرا فى وحدته المطلقة . ثم الله فى الفلسفة المسيحية ، هو خالق السماء والارض . تدخل أيضا فى الطائفة الاولى بعض معان منطقية : الله مبدأ الحقائق ومحلها الاسمى ، هو الحقيقة المثلى المعيارية . — أما معانى الطائفة الثانية فهى تتفاوت فى التجريد ، انما تخص بالاكثر كائنا شخصيا فعالا . فلدينا من ناحية فكرة الله التى أشار اليها مبيبه فى بحثه السابق : الله هو حامى القبائل ، أب العشيرة الانسانية ، أعظم أبطال المجتمع ، ورأس الكنيسة (وتعنى الكنيسة مجتمعا من الناس) . الله هو رب أمة خاصة ، شعب مختار من بين الشعوب ، «إله ابراهيم واسحق ويعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء» كما يقول بسكال . — ولدينا من ناحية أخرى معان عملية أبعد من السابقة عن العالم الواقعى المنظور : فالله فى العقلية الدينية المتحضرة كائن لا متناه له شخصية سامية تتجه اليه آمالنا وصلواتنا ، وهو أيضا ، وخاصة عند الفلاسفة منذ كنت ، عماد القانون الخلقى ومثاله الأعلى .

نجد انفصالا بين الطائفتين ، بل نضالا بين المفكرين الذين يمثلون كلا منهما : هل هناك أى ارتباط فى المعنى بين حامى القبيلة ورأس المجتمع ، وبين مبدأ الحقائق النظرية ومعيارها الأعلى ؟ — يحسن ، قبل أن نحاول التوفيق بين الطرفين ، ملاحظة بعض حدود وسطى : يذكر الاستاذ لالاند ، بعد تعريف اسبينوزا لله ، الجملة الشهيرة التى يبدأ بها المسيحيون قانون إيمانهم «أؤمن بالله واحد أب ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض» . نجد إذن فى نص من أهم النصوص ، كلمة الأب

مرتبطة بكلمة الخالق ، أى بمبدأ تفسير العالم ، مما يدل على محاولة ضمنية عند المسيحيين للتقريب بين المعنى الأصلى لله والمعنى الفلسفى البحت . والمحاولة ذاتها صريحة عند ممثلى الأفلاطونية الحديثة ، وخاصة عند ابروقلوس حين يعمل على الربط بين ثلاث كلمات تدل على مبدأ العالم : الله هو الواحد والخير والأب .

إلا أن كثيرا من الفلاسفة المحدثين لا يقررون معنى واحداً عن الله إلا بتضحية المعانى الأخرى . فمن ناحية نشاهد فى مبدأ الفلسفة الحديثة اختفاء ، يكاد يكون كليا ، للمعنى الاجتماعى عن الله، هذا المعنى الذى وجدنا صدى عميقا له فى الفلسفة المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ، ونلاحظ من ناحية أخرى منذ كنت بوجه خاص ، اختفاء المعانى الميتافيزيقية والمنطقية ، وتغلب المعنى الخلقى المجرد . — ولكن أمر غريب : للمعنى الاجتماعى الذى اختفى وقتا طويلا يرجع ثم يطغى على الفلاسفة أنفسهم بقوة شديدة : فعلاوة على رجال المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، والله فى نظرهم مرتبط بطبيعة المجتمع وبمصيره ، نجد عند الفلاسفة الألمان من أوائل القرن التاسع عشر ، فكرة شعب يسود الشعوب وجنس بشرى يفضل سائر الأجناس ، هو الشعب الجرمانى . وليس غريبا بعد ذلك أن نجد عند بعض المفكرين السياسيين المعاصرين بألمانيا فكرة عن الله تكاد تكونُ بدائية .

غير أن هذا التردد الذى نشاهده فى الفلسفة الحديثة بين اتجاهين ، اتجاه خلقى واتجاه اجتماعى بدائى ، يظهر كما لو كان فى أساس هذه الفلسفة ذاتها : عند ديكارت مثلا ، وسُلطة ديكارت فى الفلسفة الحديثة ما زالت قوية ، الله حرية مطلقة ، أقل ما يمكن أن يقال عنها ، أنها تتنافى مع كل طبيعة ، وتنفر من كل تعقل . — موقف خطير يدل على أن القدماء كانوا أكثر توفيقا من المحدثين فى إيجاد فكرة عن الله تحترم مطالب العقل ، وتوفق بينها وبين رغبات النفس العميقة ، وحاجة المجتمع لأساس روحى متين .

لدينا فيما سبق فكرة وجيزة عن بعض ما دار من المناقشات حول الألفاظ والمعانى الفلسفية، تاريخها وتطورها وما قام بينها من تنازع وما بلغت اليه من وحدة. وقد دون أو لخص الاستاذ لالاند هذه المناقشات ، وارتبط فى تحريره النهائى للشروح والتعاريف بنتائج المناقشة .

انا لنكون مغالين دون شك إن ادعينا أن صاحب القاموس وُفق الى اقناع الفلاسفة باستخدام الألفاظ والمصطلحات استخداما يمنع قيام أى جدل أو خصام بينهم . أو انه نجح فى تحديد المعاني تحديداً يؤدى الى صياغة أحكام فلسفية يؤمن عليها الجميع ، أو يظهر بصددها على الأقل تماثل مواقفهم وتكاملها .

إن كانت هذه غاية بعيدة يرمى اليها الاستاذ، فانه لم يتوخاها لذاتها فى القاموس، ولم يمن نفسه بالوصول اليها — . انا نظنه نجح فى أمرين على الاقل : الاول أنه جمع لمناقشة المسائل المتعلقة باللغة الفلسفية ، كل من تعنيهم أمور الفلسفة فى فرنسا وخارج فرنسا أيضا ، بل نقول كل من تعنينا معرفة رأيه فى هذه المسائل من بين المفكرين . ولا شك أنها خطوة عظيمة ، تلك التى أدت الى اجتماع العلماء والفلاسفة. ومن بين الأخيرين كثير منهم متباينوا النزعة : نجد جنبا الى جنب مفكرين أحرارا ورجالا يناقضون القضايا الفلسفية القديمة ، ثم فلاسفة مسيحيين ، منهم من يرعى معايير العقل ، ومنهم من ينقضها من الاساس : نطالع فى القاموس بجانب ملاحظات برانشفيج وراسل وروه (Rauh) وبرهييه ، اعتراضات وانتقادات بلونديل ولروا ودلبوس ولاشيلييه وجلسون —

ولا عجب فى ذلك إن كان الاستاذ واثقابأن الفلسفة توطد دعائم الصداقة بين المفكرين ، وتدعو للصراحة فى القول والصدق والاخلاص — . ولا عجب في ذلك أيضا ، ان كان ما يعرضه حضرة الاستاذ على المجتمعين من تعريف لكلمة أو

ملاحظة أو انتقاد يدعو حضراتهم ، لا الى السكوت او عدم المبالاة ، بل الى التحمس لمسائل الفلسفة ولمواقفهم منها . وليس أدل على نجاح الاستاذ فى هذه الناحية من ملاحظات لجول لاشيلييه ، نلمس فيها ، أكثر مما فى كافة الملاحظات ، بعد النظر والعمق والدقة . نجد لاشيلييه ، هذا الرجل العظيم الذى لم ينشر طول حياته إلا بعض صفحات نادرة رائعة ، والذى أوصى قبل وفاته باحراق ما حرره فى أوراقه الخاصة ، نراه لا يضن على صديقه صاحب القاموس ، بالملاحظات والشروح كلما سنحت لذلك الفرصة . نجده يعمل رغم تقدمه فى السن على تنقيح هذه قبل أن تطبع نهائيا.

وفق الاستاذ اذن الى تأسيس روابط روحية متينة بين المفكرين ، وليس هذا بالأمر الهين . — ويجب ان نذكر الناحية الاخرى التى وفق فيها : قلنا انه لم يحلم عند تحرير مقالات القاموس وعرضها على أعضاء الجمعية الفلسفية ، بالوصول الى تحديد المعاني تحديدا نهائيا . لم يمن نفسه أبدا بوحدة موضوعية ، لانها قد تؤدى فى نظره الى شل الحركة الفكرية وتوقفها . ولكن مطالعة كل مقال وما يليه من انتقاد يعمله الاستاذ بعد احصاء معانى الكلمة ، ومطالعة ما يصحب المقال والانتقاد من ملاحظات له ولأعضاء الجمعية ، يحملنا على القول انه وصل الى استخلاص العوامل التى تفرق بين معاني كلمة واحدة ، وتلك التى تؤسس ترابطها واتحادها ، والى الكشف أخيرا عما يعد كلمة من الكلمات (حتى من بين تلك التى شاع استعمالها وعمّ) الى استخدام فلسفى جديد ، الى ما يعطى هذه الكلمة حياة جديدة ، وما يحقق للفلسفة سيرها وتقدمها .

ولا يمكن ان نعيب على الاستاذ ، كما يفعل البعض الآن ، انه لم يربط دراسته للغة والفلسفة باحدث آثار الفكر الحى ، وبلغة المؤلفين الجدد ، فهو بالعكس قد بذل ، فى طبعته الخامسة للقاموس ، قصارى جهده ، فتتبع هذه الآثار واقتبس أهم

المصطلحات الجديدة ، وشرحها بعبارات مستعارة من هؤلاء المفكرين أنفسهم ، ولا يمكن ان نعيب عليه عدم تشجيعه لهذه الحركات وما تحدثه من اضطراب فى تصور القيم العقلية . فلم يكن أى قاموس اداة للاضطراب ووسيلة للهدم او لتقلقل الفكر الانسانى .

ويؤمن الاستاذ لالاند ان الفلسفة تقوم على احترام نظم العقل والمحافظة على تراث الماضى ، والعمل على التوفيق بين هذه المحافظة وبين ما يتمتع العقل به من حرية . ولا يعنيه كصاحب قاموس أن يتمشى مع الحركات الثورية الفكرية ، ولن نطالبه بشىء من هذا . إنما نرجو أن يجد أبناء الجيل القادم رجلا مثله يتتبع الحركة الفكرية الناشئة ، ويوفق بين نتائجها وبين الثروة العقلية التى اكتسبها الانسان منذ العصور الاغريقية الزاهرة .

نجيب بلدى

المؤتمرات : أولا التقارير

المقدمة من حضرات الأساتذة الذين مثلوا الجامعة فى المؤتمر الثقافى بلبنان
فى المدة من ٢ الى ١١ سبتمبر ١٩٤٧

التقـــرير

المقدم من الاستاذ عبد الحميد العبادى بك

بعد أن أقر مجلس الجامعـة العربية المعاهدة الثقافية بين البُلدان العربية رؤى أن يكون أول عمل اللجنة الثقافية التى انعقدت بعد ذلك هو معالجة أمر الثقافة العربية . وقد قررت هذه اللجنة فى ٧ مارس سنة ١٩٤٦ عقـد أول مؤتمر ثقـافى عربي في لبنان . وقررت أن تكون مهمة هذا المؤتمر البحث فى أمرين : —

الأول: وضع حد أدنى مشترك لمواد الثقافة العربية يعلم لطلاب البـــلاد العربية فى مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى .

الثانى : تحسين طرق تدريس اللغة العربية .

وقد قررت الهيئة الدائمة للجنة الثقـافية لجـامعة الدول العربية فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٦ تأليف لجنة تحضيرية تعد العدة للمؤتمر المذكور .

واجتمعت هذه اللجنة التحضيرية فتفرع عنها أربع لجان فرعية : —

١) لجنة اللغة العربية
٢) لجنة جغرافية البلاد العربية
٣) لجنة التاريخ العربي
٤) لجنة التربية الوطنية

وكان الاستاذ ابراهيم مصطفى رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول عضوا فى لجنة اللغة العربية ، كما كان الاستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ الاسلامي بالكلية المذكورة عضوا فى لجنة التاريخ .

ثم قامت اللجان الفرعية الأربع المذكورة بتحضير التقارير والاسئلة ، وقد أقرتها اللجنة التحضيرية العامة .

ثم عرضت هذه التقارير والاسئلة على الشعب المحلية فى الأقطار العربية عن طريق حكوماتها ، وعنيت الشعب المذكورة ببحث هذه التقارير والاسئلة ووزعتها على الاخصائيين والهيئات العلمية والادبية ثم أرسلت ما ورد اليها من البحوث الى اللجنة التحضيرية فى مصر .

وقد نظرت اللجنة التحضيرية فى البحوث والتقارير الواردة من البلاد العربية ، فنظمتها وصاغتها فى صورة مشروع قرارات لتعرض على المؤتمر . وقد وصلت الى جامعة فاروق الاول دعوة من اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية الى أن ترسل الى المؤتمر المذكور ممثلين لها ، فاختارت الجامعة حضرات الاساتذة عبد الحميد العبادى بك عميد كلية الآداب وأستاذ التاريخ الاسلامي بها ، وأحمد محمد العدوى أستاذ الجغرافيه ، ومحمد خلف الله الاستاذ المساعد بقسم الغة العربية فأبحر ثلاثتهم من الاسكندرية فى ٣١ أغسطس فوصلوا الى بيروت فى صبيحة أول سبتمبر ، وابتدأ انعقاد المؤتمر فى الثاني من سبتمبر وانتهى فى الحادى عشر منه . وكان انعقاده فى فندق بيت مري .

* * *

قسم أعضاء المؤتمر الى لجنتين فنيتين عامتين :—

الأولى: لجنة اللغة العربية ، وكان الاستاذ محمد خلف الله من أعضائها .

الثانية : لجنة المواد الاجتماعية

ثم تفرعت كل من اللجنتين المذكورتين الى لجان فرعية كانت بالنسبة للمواد الاجتماعية ثلاثا ١) لجنة التاريخ، وكان الاستاذ عبد الحميد العبادى بك من أعضائها
٢) لجنة الجغرافيه ، وكان من أعضائها الاستاذ أحمد محمد العدوى
٣) لجنة التربية الوطنية

وكانت مهمة اللجان الفرعية دراسة المسائل والتقارير التى تدخل في اختصاصها وتلخص الآراء التي وردت فى التقارير ، ثم تتقدم باقتراحاتها الى اللجنة الفنية العامة التي تدرسها وتتقدم للهيئة العامة للمؤتمر وهذه تنظر فى مقترحات اللجنتين العامتين وتتخذ القرارات النهائية للمؤتمر .

* * *

ناقشت اللجنة الفرعية للتاريخ فى اجتماعاتها الخمسة التقارير والاسئلة الواردة من اللجنة التحضيرية والتى تختص بدراسة التاريخ فى مرحلتي التعليم الابتدائى والثانوي.

ويمكن أن نلخص ما وصل اليه المؤتمر فى هذا الموضوع فيما يأتى :—

أولا — أن تكون دراسة التاريخ العربى في المرحلة الابتدائية منصبة على تاريخ القطر الذي يعيش فيه التلميذ ، مع العناية بصلات هذا القطر بالبلاد العربية المجاورة له قبل الاسلام وبعده . وأن تكون الدراسة قائمة على القصص وسير أبطال التاريخ القومي وأبطال العرب ممن تجاوز أثرهم حدود بلادهم .

ثانيا — أما في مرحلة التعليم الثانوي ، فرؤي أن يدرس التاريخ العربي على أساس الدول العربية التي قامت ، وأن يدمج تاريخ الحضارة العربية فى

التاريخ العربى العام ، وأن يستفاد من التاريخ العربي فى تقوية الروح العربي الحق .

وقد وضعت توجيهات وتوصيات مختلفة تتعلق بالرحلات والمتاحف وكتب الدراسة تحقق الغرض المقصود من دراسة التاريخ العربى .

أما من الناحية العامة للمؤتمر ، فقد بدىء بحفلة افتتاح رسمية شرفها فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية وألقى فخامته خطبة الافتتاح ، ثم تكلم بعده رؤساء الوفود العربية الرسمية كلٌ عن حكومته . وقد اعتبرت ادارة المؤتمر صاحب العزة اسماعيل القباني بك المستشار الفنى لوزارة المعارف المصرية وأحد ممثليها فى المؤتمر رئيسا لممثلى مصر الرسميين ، وألقى عزته كلمة فى الحفلة الافتتاحية بهذه الصفة .

وختم المؤتمر بحفلة رسمية رأسها دولة رئيس الوزارة اللبنانية وألقى فيها دولته خطابا مرتجلا ، وألقى الأستاذ عبد الحميد العبادى بك كلمة باسم ممثلى مصر فى هذه الحفلة .

وتخللت أيام المؤتمر حفلات ورحلات وولائم نظمتها الحكومة اللبنانية تكريما لأعضاء المؤتمر ، وكانت غاية في حسن الرواء والبهجة . والخلاصة أن المؤتمر حقق الغرض الذي قصد اليه النجاح كله ، سواء أكان ذلك من حيث الغرض العلمى الذى سبقت الاشارة اليه ، أو الغرض العام وهو اجتماع طائفة ممتازة من كبار رجال العلم والثقافة في العالم العربي وتعارفهم وتبادلهم الرأي والمشورة فى أمر توجيه الثقافة في البلدان العربية .

عميد كلية الآداب

التقـــــرير

المقدم من حضرة الاستاذ أحمد محمد العدوى

حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب

بعد التحية ، أتشرف بأن أرفع لعزتكم تقريرى عن المؤتمر الثقافى الأول الذى عقد فى بيت مري بلبنان في سبتمبر سـنة ١٩٤٧ ، والذى مثلت فيه جامعة فاروق الأول بالاشتراك مع حضرة صاحب العزةعبد الحميد العبادى بك عميدالكلية وأستاذ التاريخ الاسلامى بها ، والاستاذ محمد خلف الله الاستاذ المساعد بقسم اللغة العربية.

قام بأعداد وتنظيم المؤتمر اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الأمم العربية ، وكان غرضه الأول وضع خطة مشتركة لتثقيف أبناء البلاد العربية ، وذلك ببحث مناهج وأساليب تعليم اللغـة العربية والتربية الوطنية والتاريخ والجغرافيا في مختلف البلاد العربية ، والسعى فى توحيدها بالقدر المستطاع بحيث يكون هناك قدر مشترك يعتبر الحد الأدنى الذى يجب على كل مواطن عربي معرفته فى مرحلتى التعليم الثانوي والابتدائى .

وقبل انعقاد المؤتمر بشهور اتصلت اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الأمم العربيـة بمختلف الهيئات العلمية بالبلاد العربية ومنها قسم الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة فاروق وطلبت اليه بحث الموضوع فيما يختص بمادة الجغرافيا مع اقتراح المنهج المثالى للجغرافيا فى البلاد العربية وطرق تطبيقه ووسائل إيضاحه الخ ....

وقد قمت بعقد عدة اجتماعات من هيئة التدريس بالقسم ، وبعد دراسة الموضوع أرسلت مذكرة ضافية برأي القسم الى اللجنة الفنية الجغرافية التابعة للمؤتمر فيما بعد.

سافرت وزملائي من الاسكندرية فى يوم ٣٠ أغسطس سـنه ١٩٤٧ على

الباخرة كورنثيا فوصلنا بيروت ، فبيت مرى مقر المؤتمر يوم أول سبتمبر .

وقد بدأ المؤتمر جلساته صباح ٢ سبتمبر وكان يضم ممثلين رسميين لهيئات مختلفة في مصر وسائر البلاد العربية ، كاليمن والمملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية وفلسطين والعراق وسوريا ولبنان وليبيا ، وذلك عدا عدد عظيم من الأعضاء غير الرسميين ، بينهم عدد كبير من السيدات ، وقد قوبل أعضاء المؤتمر خير استقبال من رجال الحكومة اللبنانية والشعب اللبناني ، وظهر ذلك في حفلات التكريم التي أقيمت فى مختلف البلدان ، وقد نظمت رحلات علمية واخرى للترفيه في ربوع الجبل لحضرات الأعضاء .

بعد حفلة الافتتاح قسم أعضاء المؤتمر الرسميين الى لجان فنية فرعية للبدء في العمل ، وكان عددها خمسا: الأولى للأدب العربي والثانية للقواعد واللغة والثالثة للتربية الوطنية والرابعة للتاريخ والخامسة للجغرافيا ، وقد ألفت منهم أيضا لجنتان فنيتان عامتان ، واحدة للغة العربية والأخرى للمواد الاجتماعية ، وذلك لتنسيق قرارات اللجان الفرعية ، ولقد كان نصيبي بطبيعة الحال تمثيل جامعة فاروق فى اللجنة الفنية الفرعية للجغرافيا واللجنة الفنية العامة للمواد الاجتماعية ، وقد عقدت هذه اللجان عدة جلسات ناقشت فيها الاقتراحات التي وردت من الهيئات المختلفة بالبلاد العربية فمحصتها واختارت منها ما يروق لها. وزادت عليها وقدمت توصياتها بعد ذلك للمؤتمر للموافقة عليها

ويمكن تلخيص توصيات اللجنة الفنية الفرعية للجغرافيا فيما يلى :

١ — ضرورة العناية بدراسة جغرافية الاقطار العربية الى جانب جغرافية الوطن الخاص ، وابراز الروابط البشرية والاقتصادية بين هذه الأقطار .

٢ — فى مرحلة التعليم الابتدائي تتدرج دراسة البيئة المحلية الخاصة حتى تمتد

الى دراسة بيئة الأقطار العربية فى موضـــعها من الأقاليم الطبيعية دراســة عامه ، ثم يُدرس العالم العربى كله بشىء من التفصيل فى إحدى السنوات الأخيرة من التعليم الثانوي من النـاحية الطبيعية والبشرية ، وتُدرّس جغـرافية الوطن الخاص دراسة مفصلة في المرحلة الأخيرة من التعليم الثانوي .

٣) يجب أن يكون هناك قدر مشترك لمنهج الجغرافيا للبلاد العربيه يعتبر حدا أدنى لما يدرس فى المدارس الابتدائيه والثانويه ، وقـــدر ينفرد به كل قطر عربي لظروفه الخاصه .

٤) يجب إعداد معلم الجغرافيا في البلاد العربيه إعدادا خاصا يجعله قادرا على تحقيـق الغرض من دراســه الجغرافيا ، وذلك بانشــاء قسم خاص للجغرافيا فى الجامعات القائمه اليوم أو التي ستنشأ مستقبلا في البلاد العربيه ، وأن تُنظم الدراسه فى مدارس المعلمين والمعلمات بحيث تشتمل على منهاج تغلب فيه الدراسات الجغرافيه للطلاب الذين يرون في أنفسهم ميلا لهذا العلم ، وفضلا عن ذلك يجب تنظيم دراسات صيفية للمعلمين والمعلمات ليزدادوا علما بمادتهم باستمرار .

٥) يجب تخصيص حجرة خاصه للجغرافيا فى معاهـد الدراسه تحوى جميـع وسائل الايضاح من خرائط ونماذج وصور وأفلام الخ ...

٦) توصي اللجنه الادارة الثقافيه بجامعــه الدول العربيه بأن تتخذ ما يلزم من اجراء لأعـداد أطالس وخرائط جغرافيه للبلاد العربيه تتناسب مع مراحل التعليم الابتدائي والثانوى والعالي .

٧) تري اللجنه أن تُشجع الدول العربيه الرحلات والمؤتمرات الجغـرافيه للطلاب والمدرسين المتخصصين فى الجغرافيا لمشاهدة الظاهرات التى قرأوا عنها .

٨) توصى اللجنه بأن تسهل كل دولة من الدول العربيه لمن يشاء من الباحثين

الجغرافيين زيارة الجهات التي يرغب في دراستها وأن تضع تحت تصرفه ما يعينه علي أداء واجبه العلمي .

٩) نظرا إلى أن هناك حاجه ماسه الى مؤلف مفصل يتناول جغرافيه البلاد العربيه جميعا يكون بمثابة مرجع جغرافي يحوي آخر ما وصل اليه العلم ، توصي اللجنه أن تتولى جامعة الأمم العربيه تأليف لجنه فنيه لاتخاذ الوسائل اللازمه لتنفيذ هذا الاقتراح .

ومتابعة لحركة التأليف الجغرافى ، ترى اللجنه ضرورة تبادل عدد كاف من النسخ لأهم الكتب الجغرافيه والنشرات والتقارير بين الأقطار العربيه بعضها وبعض لتزوّد بها المكتبات فى معاهدها .

ومن ذلك نرى أن هذا المؤتمر ثقافى علمي تربوى وقد لاحظت فيما لاحظت :

ا) أن طلاب معظم البلاد العربيه يعرفون عن جغرافية مصر أكثر مما يعرفه الطالب المصري عن جغرافيه البلاد العربيه ، وأن أبناء البلاد العربيه يهتمون بمعرفة شؤون مصر أكثر من اهتمام المصرى بمعرفه شؤون البلاد العربيه .

ب) أن المستوى الثقافى الجامعى فى الجغرافيا أعلى كثيرا في مصر عما هو فى البلاد العربيه الأخرى ، ولكن المستوي الثقافي الثانوى والابتدائى يختلف بين البلاد العربيه بعضها وبعض اختلافا كبيرا ، فى بعضها قد يضارع ما هو في مصر وفى غيرها ما هو أدنى من ذلك بكثير .

ج) لقد ظهرت مؤلفات مدرسيه عديدة فى الجغرافيا فى بعض البلاد العربيه قد تضارع ما ظهر فى مصر ، ومعظمها عرضت فى معرض (الكتاب العربى) أثناء انعقاد المؤتمر ، وهذا ما يجهله كثير من معلمى مصر عن التأليف الجغرافى في بعض البلاد العربيه .

والخلاصه أن فكرة انعقاد ذلك المؤتمر الثقافي صائبه ، تجعل رجال الثقافه والعلم والتربيه يتبادلون الآراء ، وتتفتح عيونهم الى حقائق جديدة ، ولا شك أن المؤتمر قد نجح نجاحا عظيما فى مهمته .

وتفضلوا عزتكم بقبول فائق الاحترام ؟

احمد محمد العدوي
رئيس قسم الجغرافيا
وممثل جامعة فاروق فى المؤتمر

ثالثا التقــــرير

المقدم من حضرة الاستاذ محمد خلف الله احمد

١) انعقد هـذا المؤتمر بدعوة من اللجنة الثقـافية لجامعة الدول العربية — في فندق بيت مرى الـكبير بلبنان ، من ٢ الى ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٧ .

وكانت مهمته البحث في أمرين:

الأول — وضع حـد أدني مشترك لمواد الثقافة العربية يعلم لطلاب البلاد العربيه في مراحل التعليم الابتدائيه والثانوية .

الثانى — تحسين طرق تدريس اللغه العربيه .

وقد اشتركت في هذا المؤتمر وفود رسمية من دول الجامعه العربيه وفلسـطين وبلاد المغرب. ومثلت «مصر» فيه وفود رسميه من جامعهفاروق الأول وجامعة فؤاد الأول والجامعه الأزهرية والمجمع اللغوى الملكي ووزارة المعارف المصرية، واشترك فى عضويته عدد كـبير من المشتغلين بشئون التعليم فى البلاد العربيه .

وقد أحاطت الحـكومه اللبنانيه والشعب اللبناني أعضاء المؤتمـر بكل صنوف الاكرام والرعاية ، وهيأت لهم وسـائل الانتقال لزيارة أهم البلاد اللبنانية ومعالمها وآثارها ومظاهر نهضتها .

وتفضل فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية فافتتح المؤتمر . وقام معالي وزير التربية الوطنيه اللبنانية برياسته . وناب دولة رئيس وزراء لبنان عن فخامه الرئيس في حضور الحفـــلة الختاميه للمؤتمر والخطابة فيها . كما تفضـل هو وبعض حضرات أصحاب المعالى الوزراء وحضرات أعضاء المجالس البلدية لبعض مدن لبنان فأقاموا حفلات لتكريم المؤتمرين .

ونجح المؤتمر فى أن هيأ لرجال التعليم فى البلاد العربية فرصة اللقاء والتعارف وتبادل الآراء فى الاجتماعات والرحلات والحفلات — وكان لذلك أثره فى القرارات التى وصل اليها المؤتمر باجماع أعضائه .

٢) أما من الناحية الفنية فقد شكل للمؤتمر :—

١) مكتب مؤلف من خمسة أعضاء مندوبين من الجامعة العربية وثلاثه مندوبين من الحكومه اللبنانيه ومهمته الاشراف على الأعمال الادارية للمؤتمر .

٢) اللجنة التوجيهية ، وتتكون من مكتب المؤتمر ورؤساء وفود البلاد العربية ومهمتها تنظيم أعمال المؤتمر الفنية .

٣) اللجنتان الفنيتان العامتان ، وهما :

ا — لجنة اللغة العربية .

ب — لجنة المواد الاجتماعية (التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية) .

وتتألف كل لجنة منهما من أعضاء المؤتمر الذين اختاروا تلك اللجنة فى طلب الاشتراك .

٤) اللجان الفنية الفرعية : فتتفرع عن لجنة اللغة العربية ،

ا — لجنة الأدب وما يتصل به

ب — لجنة اللغة والقواعد وما يتصل بها

وتتفرع عن لجنة المواد الاجتماعية :—

ا — لجنة التاريخ

ب — لجنة الجغرافيا

حـ — لجنة التربية الوطنية

ومهمة اللجان الفنية الفرعية دراسة المسائل التي تدخل فى اختصاصها دراسة تمهيدية ،وتمحيص الآراء التى وردت فى التقارير وتلخيصها ، والتقدم باقتراحاتها فيها إلى اللجنة الفنية العامة .

٥) الهيئة العامة للمؤتمر ، وتتكون من كل أعضاء المؤتمر ، وتنظر فى مقترحات اللجنتين العامتين ، وتتخذ المقررات النهائية للمؤتمر .

٦) وقد اشتركتُ فى المرحلة التحضيرية لأعمال المؤتمر ، فقدمت بحثين احدهما عن الأدب ، والثاني عن النقد والبلاغة ، ولخص البحثان فى الكتاب الذي حوى ملخص التقارير المقدمه فى موضوعات المؤتمر .

وأتاحت لي عضويتي فى اللجنة المصرية التى ألفها معالى وزير المعارف المصرية لبحث طرق تيسير اللغة العربية أن أشترك فى بحث جميع النقط المتصلة بفروع اللغة العربية وطرق دراستها في جميع مراحل التعليم ، وأن أتقدم فى بعض هذه الفروع ببحوث ناقشتها اللجنة . وقد طبع تقرير اللجنة المصرية فى كتاب وزع على أعضاء المؤتمر، وكان عاملا فى توجيه مناقشات لجنتي اللغة العربية فى المؤتمر.

واختارنى المؤتمر عضوا فى اللجنة الفرعية للأدب ومقررا لها ، فاشتركت في مناقشات اللجنة وقمت بتنسيق قراراتها وعرضها على اللجنة الفنية العامة لمناقشتها، ثم عرضها على المؤتمر فى جلسته الختامية لاقرارها .

وتضمنت هذه القرارات الأسس والتوجيهات التى وصلت اليها اللجنة في مناهج مواد التثقيف الأدبي فى مرحلة التعليم الابتدائى — وهى المطالعة والقصص والأناشيد والمحفوظات والتعبير — ومناهج الأدب نصوصه وتاريخه والنقد والبلاغة والمطالعة والتعبير في مرحلة التعليم الثانوي .

وتضمنت كذلك طرق استخدام هذه المواد في إثارة شعور المشاركة بين

سكان الأقطار العربية فى الحضارة والتاريخ وفى منزلتهم من النشاط الدولي الحديث.

هذا وقد اشتركتُ في جميع الرحلات التى نظمت لزيارة بيروت وبيت الدين، وصوفر، وضهور الشوير وزحلة وبعلبك والأرز وبشرى واهدن وطرابلس.

وسرني وشرفنى أن ألمس المكانة الممتازة التى تتمتع بها مصر من الوجهة الثقافيه بين البلاد العربيه، وأن أقوم بقسط في الجهود التي بذلها ممثلو مصر في التنظيم والبحث، وان اشترك مع حضرتى زميلى في تمثيل جامعه فاروق الأول فى هذا المؤتمر الثقافى العربي الأول.

محمد خلف الله
أستاذ الأدب العربي
بجامعة فاروق الأول

التقــــرير

المقدم من حضرتي الدكتور عبد المنعم أبوبكر والأستاذ محمد عبد العزيز مرزوق

اللذين مثلا الجامعة فى مؤتمر الآثار بالبلاد العربية

الذى انعقد بدمشق فى سبتمبر سنة ١٩٤٧

حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب .

قمنا برحلتنا إلى دمشق لتمثيل الجامعة في مؤتمر الآثار ، وذلك بناء على اختيار الكلية ومجلس الجامعة لنا .

وقد غادرنا الاسكندرية على السفينة « كيرينيا » التى أبحرت مساء السبت ٦ سبتمبر سنة ١٩٤٧ . ولما كان المؤتمر سيعقد فى دمشق يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، رأينا الفرصة سانحة لنا لزيارة متحف الآثار ببيروت ومنطقة حفائر جبيل التي تبعد عن بيروت بحوالى نصف ساعة بالسيارة .

ولمتحف بيروت شهرة كبيرة لأنه يحوى آثارا تدل على ما كان بين لبنان القديم فى جميع عصوره من علاقات وثيقة بين الأمم العربية المتاخمة لها ، ونخص بالذكر منها مصر . وهو فى الواقع متحف صغير ، إلا أنه يعد مثلا طيبا يحتذى به فى تنسيق التحف وعرضها .

أما منطقة جبيل فلها أهمية معروفة ، إذ أن هذه المدينة — منذ عصور فجر التاريخ الأولى — كانت على علاقات وثيقة بمصر القديمة وطبعت بطابع مصري فى مدنيتها وحضارتها .

وتوجهنا الى دمشق يوم الخميس الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٩٤٧ فوصلناها فى

نفس اليوم . وفى الحقيقة لقد كانت فكرة عقد مؤتمر الآثار فكرة صالحة إذ أتاحت لجميع المشتغلين بالآثار فى الدول العربية فرصة يجتمعون فيها معا في صعيد واحد يتبادلون الرأى ويتشاورون فى شئون الآثار .

ويمكننا أن نجمل أعمال المؤتمر فى النقط الأربعة الآتية :

أولا : القاء محاضرات علمية فى مختلف نواحي الآثار يعقبها مناقشات بين أعضاء المؤتمر . وقد القى الدكتور عبد المنعم أبو بكر محاضرة عن علاقة مصر بشعوب الشرق القديم في عصور فجر التاريخ ، كما ألقى الاستاذ محمد عبد العزيز محاضرة عن طراز الاسكندرية ومع هذا نسخه من المحاضرتين المذكورتين .

ثانيا : لجنه القوانين — وكانت مهمتها توحيد قوانين الآثار في مختلف البلدان العربيه والغرب على أيدى تجار العاديات ، وحماية الآثار من تسربها إلى البلاد الأجنبيه والعناية بها عناية كاملة . ولقد توصل المؤتمر الى الاتفاق على صيغه واحدة لقانون للآثار رفعت الى الادارة الثقافيه بالجامعه العربيه رجاء العمل على ابلاغها الى الحكومات المختلفه للموافقه عليها وتنفيذها .

ثالثا : لجنه الثقافه الأثرية وقد عملت على أن تتبادل الأمم العربيه التحف المختلفه كلما أمكن ذلك ، كما تتبادل الفنيين من أساتذة ومهندسين وغيرهم ، ثم تعمل على رعاية قدماء الصناع الفنيين نظرا لأنهم مهددين بالانقراض ، ثم أوصت بتدريس فن الحفر فى الجامعات العربيه التي تعنى بالدراسات الأثرية حتى يعد الطلاب العرب للقيام بأعباء الحفائر الأثرية بدلا من الأجانب. وأخيرا المحافظه على موقع الأثر وغير ذلك من الأمور المتصلة بالثقافه الأثرية.

رابعا : لجنه الاصطلاحات الفنيه ، وقد استقر الرأي فيها علي وضع معجم

للاصطلاحات الفنيه يشترك فيه كل المشتغلين بالآثار فى الأمم العربيه وذلك لتسهيل التأليف والنشر باللغه العربيه فى هذا المجال .

هذا وقد قام أعضاء المؤتمر برحلة أثرية زاروا فيها معالم حلب والمعرة وحماة وحمص وبعلبك ، أما الرحلة التى كانت مرتبه لزيارة فلسطين فقد اعتذرنا عنها نظرا لبدء امتحانات الكليه وضرورة وجودنا بها فى ذلك الوقت .

ونستطيع أن نختم هذا التقرير المجمل بأن المؤتمر نجح فى مهمته نجاحا باهرا وأن أعضاءه كانوا موضع حفاوة الحكومه السورية ورعايتها .

ولقد اقترح المؤتمر عقد دورته الثانيه فى مصر فى شتاء عام ١٩٤٩ ، وسيعد المؤتمر كتابا يتضمن ما التى فيه من ابحاث ومحاضرات علميه ، وما قررته لجانه المختلفه .

وتفضلوا عزتكم بقبول فائق الاحترام ؟

عبد المنعم أبو بكر　　　　محمد عبد العزيز مرزوق